سيرة روائية

ميخائيل زوشينكو

قبل شروق الشمس

ترجمها عن الروسية: يوسف نبيل



مقدمة المترجم

ميخائيل زوشينكو أحد أبرز أعلام الكتابة الساخرة في روسيا في القرن العشرين، وقد كان معشوق الجماهير في فترة العشرينيات والثلاثينيات. يختلف هذا الكتاب تمامًا عن بقية إنتاج زوشينكو، ويعتقد الكثيرون أنه أفضل أعماله على الإطلاق، ويرى الناقد الروسي "ديمتري بيكوف" أنه واحد من أفضل مائة عمل أدبي على الإطلاق.

بالرغم من أنه أحد أشهر كتاب القصة الساخرة، إلا أنه عاني من اكتئاب عنيف لم يعرف له سببًا، ووصل به الأمر للامتناع عن تناول الطعام، والامتناع عن الحركة لفترات من الزمن، مما أنهك صحته وجسده، فما موضوع الكتاب إذن؟

في البداية علينا أن نشير إلى إن الكتاب يصعب تصنيفه، فهو يضم ألوانًا من الكتابة الروائية والقصصية والسيرة الذاتية، والدراسة النفسية والعلمية. هو كتاب عصي على التصنيف.

في هذا الكتاب يحاول المؤلف تتبع جذور اكتئابه ومعرفة أسبابه، مستندًا إلى نظرية العالم السوفيتي بافلوف حول الانعكاسات الشرطية؛ فيعود إلى جذور مخاوفه الأولى في مرحلة الشباب ثم يتبعها بالصبا ثم الطفولة، فالطفولة المبكرة في بحث مضن عن جذور اكتئابه.

قصة زوشينكو إذن ليست عن الحرب، كما كان مطلوبًا في

هذه الفترة من كل الأدباء إبان الحرب العالمية الثانية، لكنها عن قهر المخاوف والعبودية، فزوشينكو رأى أن من يقهر العبودية لا يمكنه أن يكون عبدًا للفكر الفاشي المعادي للعقل. سيتحرر الإنسان من هذه الأوهام، وسيتحرر من مخاوفه ويصير إنسانًا حقيقيًا يسير في ضوء العقل.

لماذا إذن يمكن أن يُغضب هذا الكتاب ستالين حتى يحظره فور صدور الجزء الأول فقط منه؟

يرى زوشينكو أنه إذا فكك المرء مخاوفه، فسيتمكن من هزيمة العدو ويتحرر، فهل هذا ما يريده ستالين من روسيا في عهده؟

مطلوب من روسيا الستالينية أن تتحول إلى شيء بسيط تمامًا؛ إلى معسكر واحد، وحينها لا يكون هناك مجال للتعامل مع مشاكل المرء الخاصة. رأى زوشينكو أن البلاد كلها تسعى إلى الانتصار على عدوها، وهو أيضًا يسعى إلى الانتصار على عدوه الذي يتمثل في مخاوفه، لكن ستالين لا يريد التعامل مع الشعب الروسي بوصفه مجموعة من الأفراد، ولكل منهم مشكلاته الخاصة. إنه يريد روسيا واحدة؛ يريد معسكرًا واحدًا يزحف بكل ما لديه من قوة صوب النصر. يريد نثرًا يتغنى ببطولات الشعب الروسي الذي لا يتميز فيه فرد عن الآخر. إن مجرد قهر المخاوف والتحرر الفردي من شأنه أن ينتج أفرادًا أحرارًا، وهو أمر غير مطلوب على الإطلاق في عصور

الأيديولوجيات الشمولية.

يطرح لنا زوشينكو في كتابه مشاهد قصيرة ماسية، تشبه كتابات تشيخوف من حيث قوة التركيز وكثافة المعنى في أقل عدد من السطور، ويناقش نظريات فرويد وبافلوف، ويحدثنا عن شخصيات فنية معروفة مثل جوجول وبوشكين وإدجار آلان بو وغيرهم، ويواصل البحث بكل ما لديه من قوة حتى يتوصل إلى مكمن المشكلة. إنه بحث مضن عن السعادة التي من شأنها أن تحرر صاحبها من التعاسة والمخاوف والعبودية، لذلك لم يكن من السهل قبول هذه النزعة الفردية في زمن الأنظمة الشمولية. على الرغم من مرور أعوام طويلة على صدور هذا الكتاب، وما توصل إليه العلم، فإن قيمة الكتاب الفنية لا تزال مبهرة.

لقد كلَّف هذا الكتاب صاحبه الكثير والكثير، فسنعرف من مقدمته ظروف كتابته والتضحية التي بذلها من أجل إتمامه، كما يمكننا أن نعرف من نهاية زوشينكو الحزينة وتضييق الخناق عليه هو وآخرين مثل أنا أخماتوفا وغيرها، طبيعة الثمن الذي يمكن أن يدفعه كاتب حر لم يحاول حتى الاصطدام بالسلطة بشكل مباشر، بل كان مؤمنًا حقيقيًا بالثورة البلشفية وبالسعي صوب مجتمع لا طبقي، لكنه لم يتنازل ويكتب نفايات الأدب الدعائي المطلوبة في هذه المرحلة.

هذا الكتاب يضع زوشينكو وسط مصاف الكتاب العالميين بنزعته الإنسانية المفرطة، وعبقرية نثره التي تضارع

من وجهة نظري في بعض الأجزاء عبقرية تشيخوف، والأهم من ذلك أنه كتاب من نوع خاص، يجمع بين الرواية والسيرة الذاتية والقصص القصيرة والدراسـات النفسـية، وهي نوعية نادرة من الكتب تستحق الالتفات إليها.

بقـي أن أتوجـه بالشـكر إلـى أسـتاذي: د. أنـور إبراهيم الـذي كان أول من لفت نظـري إلى زوشـينكو، وإلى د. محمد نصـر الجبالي الذي سـاعدني كثيرًا فيما اسـتعصى عليَّ من فهم لبعض الجمل والتركيبات، وإلى الأسـتاذ جودت هوشيار الذي اسـتفدت من قراءة مقالاته عن زوشـينكو في كتابة مقدمتي هذه، فإليهم جميعًا الشـكر، و أرجو أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا العمل.

يوسف نبيل

قبل شروق الشمس

تمهيد

بدأت التفكير في كتابة هذا الكتاب منذ زمن بعيد؛ تحديدًا بعد أن خرج إلى النور كتابي: «الشباب المُستعاد»[1].

طوال ما يقرب من عشرة أعوام عكفت على جمع مادة هذا الكتاب الجديد، وانتظرت أن أحظى بعام هادئ أستطيع فيه الجلوس على مكتبي بسلام، وأنهمك في الكتابة.

لكن ذلك لم يحدث...

ما حدث كان النقيض من ذلك. سقطت القنابل الألمانية[2] مرتين بالقرب من أغراضي. غطت بقايا الجير والطوب الحقيبة التي تحوي مخطوطاتي، بل إن النيران اضطرمت بالفعل في الحقيبة، حتى إني أتساءل متعجبًا: كيف نجت الأوراق؟

(١) في عام ١٩٣٣ نشرت مجلة «أكتوبر» النصف الأول من روايته المعنونة «الشباب المستعاد» وهي قصة عالم روسي من علماء الفلك لم يظهر عاطفة نحو الاشتراكية القائمة بالبلاد دون أن يدري سببًا لذلك. كان هذا العالم يرنو إلى شبابه، ويريد أن يستعيد صحته وحيويته ونشاطه في سن الشباب. بذل جهودًا كبيرة في هذا السبيل، وأخيرا وفق في ذلك كله بفضل قوة إرادته. في هذه الرواية وضع زوشينكو أمامه مهمة التغلب على كآبته وتعليم الآخرين كيف يفعلون ذلك. أثارت الرواية جدلاً واسعًا في الأوساط الثقافية، أسهم فيه بعض كبار العلماء الروس. (جودت يوشيار - زوشينكو ذلك الساخر الحزين).

(٢) المقصود أحداث الحرب العالمية الثانية حينما اندلعت معركة ضارية بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا.

طارت معي المواد التي جمعتها على متن طائرة عبر الجبهة الألمانية من لينينجراد المحاصرة[1].

أخذت معي عشرين دفترًا ثقيلا من مخطوطات كتابي. مزقت الأغلفة القطنية للدفاتر حتى يخف الوزن، ووصل وزن الدفاتر إلى ما يقرب من ثمانية كيلو جرام بينما كان الوزن المسموح به على الطائرة لكل المتاع اثني عشر كيلو جرام. جاءت هذه اللحظة التي أسفت فيها ببساطة على أني أخذت كل هذا الهراء بدلا من سراويل تحتية ثقيلة من أجل الاستدفاء وزوج إضافي من الأحذية طويلة العنق. إلا أن حب الأدب قد انتصر، وقد تصالحت مع مصيري البائس.

ذهبت بأوراقي الموضوعة داخل حقيبة ممزقة إلى آسيا الوسطى؛ تحديدًا إلى المدينة المباركة من الآن وصاعداً: ألما أتا[2].

انشغلت طوال عام كامل بالسيناريوهات المختلفة للكتابة حول الموضوعات المطلوبة إبان الحرب الوطنية العظمى.

احتفظت بهذه الدفاتر التي جلبتها معي أسفل الأريكة

---

(١) استمر الحصار من ٩ سبتمبر ١٩٤١، إلى ١٨ يناير ١٩٤٣ عندما استطاع السوفيت فتح معبر بري إلى المدينة. رُفعَ الحصار تمامًا في ٢٧ يناير ١٩٤٤، أي بعد ٨٧٢ يومًا من بدء الحصار.

(٢) ماتي أو ألماتي وسابقا ألما أتا هي أكبر مدينة في كازاخستان .وقد كانت ألماتي العاصمة القديمة وهي اليوم من أهم مدن كازاخستان التجارية والاقتصادية والمالية.وتقع المدينة في منطقة جبلية في جنوب كازاخستان، بالقرب من الحدود مع قيرغيزستان.

الخشبية التي اضطجع عليها.

في بعـض الأحيان كنت أرفع مقدمـة الأريكة. فوق رقائق خشب الأرضية كانت الدفاتر العشرين مضطجعة بجانب حقيبة من البقسماط أحضرتها معي وفقًا لعادة أهل لينينجراد.

أعدت قراءة هذه الدفاتر ثانية، وشـعرت بالأسـف الشديد علـى أن الوقـت لـم يحن بعـد لإتمام هـذا العمل، سـيظل غير ضـروري الآن طالمـا هو بعيد عـن موضوع الحـرب وضجيج البنادق وصرير القذائف، قلت في نفسي: «لا بأس... سأعود إليه فور انتهاء الحرب».

أعدت الدفاتر ثانية إلى مكانها في قاع الأريكة. وبينما كنت مضطجعًـا على الأريكة حاولت التكهـن بموعد انتهاء الحرب. تبين لي أنها لن تنتهي قريبًا، ولكن متى تحديدًا؟ هذا ما لم أجرؤ علـى تحديده. قلت في نفسـي: «ولكن لماذا لم يحن الوقت بعد لإتمـام هـذا العمل؟ من الواضـح أن تلك المـواد التي جمعتها تتحـدث عن بهجـة العقل الإنسـاني والعلـم وتقـدم الوعي! إن عملـي هذا يُفنِّد فلسـفة الفاشـية التي تدَّعى أن الوعي الإنسـاني يقود البشـر صوب بلايا لا تحصى، وأن السعادة الإنسانية تكمن في العودة إلى البربرية والوحشية ورفض الحضارة.

يبـدو لي أن قراءة هذا العمل الآن قـد تبدو مثيرة للاهتمام أكثر من أي وقت آخر.

في أغسـطس من عام ١٩٤٢ وضعت دفاتري على الطاولة وبدأت العمل ولم أنتظر نهاية الحرب.

١
مقدمــة

نظرًا لرغبـة الممثل الطيبـة في التمثيل
يتغاضون عن أدائه[١]

منذ عشرة أعوام مضت كتبت روايتي «الشباب المُستعاد».

كانــت قصة عادية، من ذلك النوع الــذي يكتبه كثيرون من الكتَّــاب، لكني ألحقتها بحواشــي في صورة مقــالات ذات طابع فيسيولوجي[٢].

عملت هذه المقالات على توضيح سـلوك أبطال الرواية، ومنحت القارئ بعض المعلومات الفيسيولوجية والسيكولوجية عن الإنسان.

لم أكتب «الشـباب المستعاد» من أجل العلماء، ومع ذلك هــم الذين أبدوا اهتمامًا شـديدًا بعملي، واسـتمر الجدل بشـأن العمــل، واندلعــت بعـض النزاعات، واسـتمعت إلــى تعليقات كثيرة لاذعة، ووصلتني أيضًا بعض التعليقات اللطيفة.

شـعرت بالصدمـة من الطريقـة الجـادة والحماسـية التي ناقشــني بها العلماء بشــأن العمل. حينها قلت في نفســي إن ذلك

(١) أنطونيو وكليوباترا – شكسبير. الفصل الثاني – المشهد الرابع.
(٢) الفيسيولوجي هو علم وظائف الأعضاء.

لا يعني أني أعرف الكثير؛ بل يعني أنه من الواضح أن العلم لم يتطرق بعد إلى هذه المسائل بشكل كاف؛ تلك المسائل التي جرؤت على معالجتها بدافع من قلة خبرتي.

بطريقة أو بأخرى ناقشني العلماء كما لو أني ند لهم، حتى أني حصلت على بعض وثائق اجتماعات معهد العقل، ودعاني إيفان بيتروفيتش بافلوف[1] إلى الندوات التي يقيمها كل يوم أربعاء. لكني أكرر أني لم أكتب كتابي من أجل العلماء. إنه عمل أدبي، والمواد العلمية التي يتضمنها مجرد جزء من بنائه.

شعرت دائمًا بالدهشة من الأمر التالي: قبل أن ينخرط الفنان في رسم الجسد الإنساني عليه حتمًا أن يدرس علم التشريح. هذه المعرفة العلمية هي وحدها ما يمكنها أن تحول بين الفنان وبين الرسم الخاطئ. بالنسبة للكاتب فالأمر لا يقتصر على تصويره للجسد الإنساني، فهو يُصوِّر أيضًا نفسه ووعيه، ورغم ذلك نادرًا ما يسعى إلى تحصيل مثل هذه المعارف. اعتقدت أنه يتوجب عليَّ أن أتعلم شيئًا عن ذلك، وعندما حققت رغبتي هذه رأيت أنه عليَّ أن أشارك القارئ ما تعلمته.

هكذا ظهر إلى النور كتاب «الشباب المُستعاد».

أما الآن، وقد مرت عشرة أعوام، فإني أرى بوضوح تام

---

(١) عالم وظائف أعضاء روسي، حصل على جائزة نوبل في الطب في عام ١٩٠٤ لأبحاثه المتعلقة بالجهاز الهضمي، ومن أشهر أعماله نظرية الاستجابة الشرطية التي يفسر بها التعلُّم.

عيوب كتابي؛ فقـد كان غير مكتمل وتناول موضوعه من جانب واحـد. ربما لذلك كان يتوجب أن أنال تقريعًا عليه أكثر مما نلته بالفعل.

في خريـف ١٩٣٤ تعرفـت العالـم الفيسـيولوجي اللامع: ألكسندر سبيرانسكي.

عندمـا تطرق الحديث بيننـا إلى كتابي، قـال: «في الحقيقة أُفضِّـل قصصـك العاديـة، لكني أقـر أن ما كتبت عنـه في كتابك هذا يستحق الكتابة فعلا. إن دراسة الوعي ليست من اختصاص العلمـاء فقـط، وأنـا أشـك الآن في أن هـذا الأمر قـد يكون من اختصـاص الكاتب – إلى حد كبير – أكثر من اختصاص العالم. أنا فيسيولوجي، ولذلك فإني لا أخشى قول ذلك».

قلت له: «أشـاركك الرأي. أرى أن مجال الوعي والنشاط النفسـي السـامي ينتمي إلينا نحن الكُتَّاب أكثر من انتمائه إليكم. يمكن دراسـة سـلوك الإنسـان – بل ولابد من ذلك – بمساعدة التجارب على الكلاب واستخدام المشارط، ولكن أحيانًا تظهر لدى الإنسـان – مثلما هو الأمر مع الكلب أيضًا – أوهام ما تُغيِّر مـن طبيعة الإحسـاس الناتج حتى عن نفـس الباعث. هنا نكون في حاجـة إلى التحـدث مع الكلب من أجل فهـم كافة تعقيدات أوهامـه. الحديـث مع الكلـب يدخل تمامًا داخـل نطاق مجالنا بوصفنا كُتَّابًا.

ابتسـم العالِم وقـال: «أنت محق جزئيًـا. لا تتفق دائمًا قوة

المثير والاستجابة خاصة في مجال المشاعر، ولكن إن انتويت اقتحام هذا المجال، فهنا بالضبط سوف تلتقي بنا». مرت عدة أعوام على هذا الحديث. عندما عرف صديقي الفيسيولوجي أني أؤلف كتابًا جديدًا طلب مني أن أحكي له عنه. قلت له:

- باختصار، يحكي الكتاب عن الطريقة التي تخلصت بها من أحزان كثيرة غير ضرورية، وكيف صرت سعيدًا.
- دراسة أم رواية؟
- إنه عمل أدبي يضم بعض المواد العلمية كما تضم الرواية أحيانًا موادًا تاريخية.
- ستضيف حواشي تفسيرية مجددًا؟
- لا، سوف يكون كتابًا مكتملا، كما يمكن للبندقية والطلقة التي تنطلق منها أن تكونا شيئًا واحدًا.
- أسيكون العمل عنك أنت شخصيًا؟
- نصف الكتاب عنِّي. لا أخفي عليك... هذا الأمر يربكني جدًا.
- سوف تحكي عن حياتك؟
- لا، الأمر أسوأ من ذلك. سوف أحكي عن أمور ليس من الشائع الحديث عنها في الروايات. ما يطمئنني بعض الشيء أن الحكايات سوف تكون عن فترة شبابي. هذا أمر يشبه الحديث عن أحد الراحلين.
- ما المرحلة العمرية التي سيتوقف عندها كتابك؟

- حتى عمر الثلاثين تقريبًا.

- هل هناك ما يمنعك من إضافة الخمسة عشر عامًا المتبقية؟ بهذا يتناول الكتاب حياتك بأكملها.

- لا... بعد الثلاثين أصبحت شخصًا آخر، ولم يعد من الممكن تناول هذه الفترة في كتابتي.

- أحدث تغيير ضخم فعلا؟

- من المستحيل أن أطلق عليه مجرد تغيير. لقد ظهرت بعد الثلاثين حياة أخرى تمامًا لا تشبه في شيء الحياة التي كانت قبل الثلاثين.

- ولكن كيف حدث ذلك؟ أبسبب التحليل النفسي؟ فرويد؟

- لا على الإطلاق. لقد كان الأمر بسبب بافلوف. لقد استفدت من مبدأ بافلوف. كانت فكرته من الأساس.

- وماذا فعلت أنت؟

- في الواقع لقد قمت بأمر بسيط: لقد أزلت كل ما كان يزعجني، وردود الأفعال الشرطية الخطأ التي ظهرت بشكل غير صحيح في وعيي. لقد دمرت هذه الرابطة المزيفة. لقد مزقت هذه «الروابط المؤقتة» كما أطلق عليها بافلوف.

- كيف فعلت ذلك؟

في هذا الوقت لم أكن قد أمعنت الفكر تمامًا في المواد التي جمعتها، لذا كان من الصعب أن أجيب على هذا السؤال، لكني حكيت له عن الفكرة الرئيسة في عملي، وفي الحقيقة شرحتها

بشكل غامض.

استغرق العالِم في التفكير ثم أجابني:

- أكتب، ولكن لا تعد الناس بشيء.

- سوف أتحلى بالحذر. لن أعد بشيء سوى ما حصلت عليه بنفسي، ولن يكون ذلك سوى لأولئك الذين يشبهونني في السمات.

ضحك العالِم وقال:

- هذا قليل، لكنه صحيح. على سبيل المثال: لم تكن فلسفة تولستوي مفيدة لأحد سواه.

- فلسفة تولستوي كانت دينًا لا علمًا. لقد كانت إيمانًا ساعده. أنا بعيد عن الدين. لا أتحدث عن الإيمان ولا عن نسق فلسفي، لكني أتحدث عن مناهج شديدة الصلابة اختبرها عالم عظيم. إن دوري متواضع جدًا، وهو يتمثل في أني قد اختبرت هذه المناهج في الحياة الإنسانية، ووحَّدت بين ما بدا أنه غير متصل بعضه ببعض.

ودَّعت صديقي العالِم، ولم أره منذ ذلك الحين. ربما اعتقد أني تخلصت من فكرة كتابي، ولم أستطع كتابته... لكني كما قلت، كنت في انتظار عام هادئ. للأسف لم يأت عام هادئ. مع صليل المدافع تسوء كتابتي. بلا شك ستقل مساحة الجمال، وستهز اضطرابات النفس قوةَ الأسلوب بشدة، وسيطفئ القلق من اضطرام المعرفة. ستبدو العصبية نوعًا من التسرع وسيبدو

ذلك نوعًا من إهمال العلم، وعدم الاحترام للمجتمع العلمي...!

أيها العالِم!

أينما ترى خطابًا جافًا لي

امحه... هاك إذني بذلك(١)

أرجو أن يصفح القارئ المثقف عن سقطاتي في هذا الكتاب.

---

(١) من قصيدة: خزانة الأسرار لـ: م. شاجينيان.

٢

تعيس ولا أعرف لماذا!

ياويلي! أهرب من الشمس وأبحث
عن البهجة داخل الزنزانة على ضوء
المصباح الواهن.

عندما أتذكر أعوام شبابي، أشعر بالذهول من كمية الحزن والقلق غير الضرورية التي كانت لديّ.

كُتِبت أروع أعوام الشباب بحبر أسود. لم أختبر شيئًا كهذا في فترة الطفولة.

شابت الخطوات الأولى في مرحلة الشباب، معاناة غريبة لا أعرف لها مثيلا.

سعيت صوب الناس بكل قوتي، وابتهجت بالحياة، وبحثت عن الأصدقاء والحب واللقاءات المرحة، ولم أجد عزاءً واحدًا في كل ذلك. بهت كل شيء بين يديَّ، وسعى الاكتئاب إثري في كل خطوة.

كنت تعيسًا ولا أعرف لماذا.

لكني وقتها كنت في الثامنة عشرة من العمر، ووجدت سببًا لذلك. قلت في نفسي: «العالم مريع والناس مبتذلون وأفعالم هزلية. لست خروفًا وسط هذا القطيع».

علَّقت فوق المكتب رباعية شعرية لسوفوكليس:

النعمة الكبرى أنك لم تولد
إذا رأيت ضوء النهار
عُد أدراجك مسرعًا
عُد إلى حضن عدم الوجود[1]

كنت أعرف بالطبع أن هناك وجهات نظر أخرى في الحياة مبهجة بل وتثير الحماس، لكني لم أكن احترامًا لأولئك الذين كانوا قادرين على الرقص على أنغام موسيقى الحياة الفظة السوقية. بدت لي هذه النوعية من الناس حينذاك تقترب من مستوى الهمج والحيوانات.

كل ما رأيته حول دعّم أكثر وجهة نظري هذه.

كتب الشعراء قصائد كئيبة وافتخروا بكآبتهم. تمتمت بكلمات لشاعر لا أذكره:

«جاءتني الكآبة... جاءتني عشيقتي وسيدتي العجوز».

أما عن فلاسفتي المفضلين فقد تحدثوا عن الكآبة بكل توقير. كتب كانط: «لدى المكتئبين مشاعر سامية»، وقال أرسطو «تساعد الروح الكئيبة على التفكير العميق وترافق العبقري».

لم يقتصر الأمر على الشعراء والفلاسفة في إذكاء نار موقدي الكئيب. من الغريب جدًا القول إن الكآبة في زمني كانت سمة للعقلانية أو القدرة على التأمل. في الأوساط التي

(١) من دراما سوفوكوليس: أوديب في كولونيوس - الفصل الثالث.

عشت فيها مجَّدوا المستغرقين في التفكير والمكتئبين، بل وحتى معتزلي الحياة[1].

باختصار بدأت أعتقد أن النظرة السوداوية للحياة هي وجهة النظر الوحيدة الممكنة للإنسان المفكر المثقف المولود في أوساط نبيلة مثل التي ولدت فيها.

اعتقدت إذن أن الاكتئاب هو حالتي الطبيعية، أما الحزن وقدر من الاشمئزاز فهما خاصية عقلي. يبدو أنها خاصية كل عقل وكل وعي يطمح إلى أن يفوق وعي الحيوان.

إذا كان الأمر كذلك فهو محزن جدًا. ولكن هذا أمر محتمل. الطبائع الخشنة هي التي تنتصر في الطبيعة، وتختال المشاعر السوقية بنفسها، وكذلك الأفكار البدائية، ويهلك كل ما يزداد لطفًا ورهافة.

هكذا كنت أفكر في الثامنة عشرة من عمري. لن أخفي عليكم أني فكرت بنفس النمط حتى مدة طويلة بعدها.

لكني كنت مخطئًا، والآن بعد أن صرت سعيدًا سأخبركم عن مكمن خطئي المريع.

كاد هذا الخطأ يكلفني حياتي. أردت أن أموت لأني لم أر مخرجًا آخر.

---

(١) منذ فترة قصيرة ألقيت نظرة على يوميات فاليري بريوسوف (شاعر ومسرحي روسي) ووجدت فيها الآتي: «خروشنكو الجميل... الإنسان الكريم... الغريب عن الحياة...» (المؤلف).

في ربيـع ١٩١٤ اندلعت الحرب العالميـة الأولى، تركت دراسـتي الجامعيـة والتحقت بالجيش حتى أموت بشـرف على الجبهة من أجل بلدي، من أجل وطني.

إلا أن شـعوري بالاكتئاب تلاشى في الجيش. كان يراودني مـن وقت للآخـر، لكنه ينقضي سـريعًا. لأول مرة شـعرت إبان الحرب بأني سعيد تقريبًا.

قلت في نفسـي: تُرى ما السـبب؟ واعتقدت أن السبب هو تلـك الصحبـة الرائعة التـي نعمت بهـا هنا ولذلـك توقفت عن الحزن، بدت لي الفكرة منطقية. خدمت في فوج مرجلينسكي في فرقة رماة القنابل القوقازية. عشـنا مع بعضنا في وفاق تام، جنودًا وضباطًا، أو على الأقل هذا ما بدا لي.

في التاسـعة عشرة صرت ملازمًا، وفي العشرين نلت خمسة أوسمة ورشحوني إلى رتبة نقيب.

لكن هذا لا يعني أني كنت بطلا، بل يعني أني قضيت عامين علـى الجبهـة. شـاركت في معـارك كثيـرة، وأصبت وتسـممت بالغاز. أصيب قلبي، ومع كل ذلك لم تتلاش تقريبًا بهجة حالتي السعيدة.

في بداية الثورة عدت إلى بيتروجراد. لم أشـعر بأي شـوق للماضي. على النقيض من ذلك، أردت أن أرى روسيا الجديدة بدلا من تلك الحزينة التي أعرفها. أردت أن أحظى بصحبة أناس أصحـاء مقبلين علـى الحياة، لا أولئـك المقبلين على الاكتئاب

والحزن مثلي.

لم أختبر شيئًا مما يُطلق عليه: «تباينات اجتماعية»، ومع ذلك بدأ شعوري بالاكتئاب يعاودني.

جرَّبت تغيير المدينة والوظيفة. أردت أن أهرب من كآبتي المريعة، فقد شعرت أنها سوف تقضي عليَّ تمامًا.

رحلت إلى مدينة أرخانجلسك، ثم إلى مدينة ميزين على المحيط المتجمد الشمالي، وبعدها عدت إلى بتروجراد. رحلت إلى نوفجورود، إلى بسكوف تحديدًا. بعدها مضيت إلى مقاطعة سمولينسك إلى مدينة كاسني، وعدت ثانية إلى بتروجراد.

لاحقتني الكآبة في كل مكان...

تنقلت بين اثنتي عشرة مدينة وعشر وظائف في غضون ثلاثة أعوام.

عملت بالميليشيا[1]، وعملت محاسبًا، وإسكافيًا ومدربًا في مجال تربية الدواجن، وعملت بتربية الطيور، وعاملا في بدالة الهواتف في حرس الحدود، ووكيلا بالتحقيقات الجنائية، وسكرتير محكمة وكاتبًا.

كل ذلك لم يحدث ضمن إطار خطة محددة في الحياة،

---

(١) في ذلك الوقت لم تكن هناك قوات شرطة نظامية، وقد استبدلت بها السلطة السوفيتية عناصر مدنية تشكل ميليشيات لحفظ الأمن والنظام.

بـل محـض تشـوش وارتبـاك. بمـرور نصف عـام عُـدتُ إلى الجبهة مجددًا ضمن قـوات الجيش الأحمر بالقرب من نارفا[1] ويامبورج (كينجيسب)[2].

لكن تسـممي بالغاز أعطب قلبي، وتوجب عليَّ أن أبحث عن وظيفة جديدة.

في عام ١٩٢١ بدأت أكتب القصص.

تغيـرت حيـاتي تمامًـا منذ أن أصبحـت كاتبًا، لكـن الكآبة بقيت كما كانت، بل إن زياراتها بدأت تزداد.

حينها لجأت إلى الأطباء. بالإضافة لنوبات الاكتئاب التي كانـت تلاحقني كان قلبـي مريضًا، وكذلك معـدتي، وكان هناك عطب ما بالكبد.

تولى الأطباء علاجي بنشاط.

بدأوا في علاج أمراضي بالأدوية والمياه، وركَّزوا علاجهم على الماء، سواء الماء الذي أشربه أو الذي أغمر جسدي فيه.

قـرروا أن يهاجمـوا الاكتئـاب بضربـات مـن الجوانـب الأربعة، من الأجنحة ومن الأمام والخلف... واجهوا الاكتئاب بالرحلات والتداوي بماء البحر، وعلى طريقة شاركو[3] وباللهو

---

(١) ثالث أكبر مدينة في إستونيا، تقع في أقصى شرق إستونيا قرب الحدود الروسية-الإستونية.

(٢) مدينة روسية.

(٣) جان مارتن شاركو هو طبيب أعصاب فرنسي. يعتبر من مؤسسي علم الأعصاب البارزين. تتلمذ فرويد على يده.

الضروري لمرحلة الشباب.

كنـت أذهـب مرتين في العام إلـى المنتجعـات الصحية في يالطا وكيسلوفودسك وسوتشي وأماكن أخرى جميلة.

في سوتشـي تعرفـت على أحدهـم، وكان اكتئابه أشـد من اكتئابـي. كانوا ينقذونه على الأقل مرتين في العام من الأنشـوطة التـي يربطها حول عنقه مـن فرط العذاب الذي يعانيه من كآبة لا يعرف لها سببًا.

بـدأت في التحدث معه بأقصى قدر مـن الاحترام. توقعت أن أجده إنسـانًا حكيمًا، ذكيًا واسـع المعرفة، ترتسم على وجهه ابتسـامة العبقرية الحزينة، إنسـانًا مضطرًا إلـى العيش على هذه الأرض الفانية.

لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق.

بدا إنسـانًا ضيق الأفق للغاية، جاهلًا، لا يتمتع بأدنى درجة من الثقافة. لم يقرأ أكثر من كتابين طوال حياته، ولا يهتم بشـيء في الحياة سوى المال والنساء.

رأيت أمامي أشد البشر ابتذالا، يفكر في أكثر الأفكار سوقية ولديه أشـد الرغبات بلادة. لم أفهم على الفور حقيقة الأمر. بدا لـي في البدايـة أن الغرفـة مليئـة بالدخـان أو أن مقيـاس الضغط الجوي قد هبطت قراءته منذرًا باقتراب العاصفة. بشكل أو بآخر لم أشـعر بالراحة أثناء الحديث معه، وبعدها بدأت أكتشف أنني ببسـاطة أمام أحمق لا يمكن أن أحتمـل التحدث معه لأكثر من

ثلاث دقائق.

تصدعت فلسفتي، وأدركت أن الأمر لا يتعلق فقط بسمو الوعي. بِمَ إذن يتعلق الأمر؟ لم أعرف.

سلَّمت نفسي بكل قنوت إلى أيدي الأطباء.

في غضون عامين كنت قد تناولت نصف طن من المساحيق والحبوب. تناولت باستلام كامل مختلف أنواع القذارة التي أعيتني، تركتهم يحقنوني بمختلف أنواع الحقن، وسمحت لهم بعمل الأشعة والعلاج بالمياه.

رغم ذلك لم يحقق العلاج نجاحًا، وتطور الأمر سريعًا إلى حد أن معارفي لم يعد بإمكانهم معرفتي في الشارع. نحفت بطريقة لا يمكن تصورها. صرت كهيكل عظمي قد اكتسى ببعض الجلد. طوال الوقت تكتنفني برودة مريعة، وترتعش يداي، وحيَّر صفار جلدي الأطباء. بدأوا في الاشتباه أني مصاب بوساوس مرضية إلى درجة لا يجدي معها شيء، وأني في حاجة إذن إلى التنويم المغناطيسي والعلاج السريري.

نجح أحد الأطباء في تنويمي، وما إن نمت حتى بدأ يوحي لي أني عبثًا أعيش في اكتئاب وحزن، وأن كل شيء في العالم رائع، وأنه ما من سبب يدعو المرء للحزن.

شعرت بعدها بالبهجة ليومين، ثم ساءت حالتي أكثر من السابق.

توقفت تقريبًا عن الخروج من المنزل، وصار كل يوم

جديد بالنسبة لي أمرًا ثقيلا.

يوم يأتي ويوم يمضي
تمر السنون دون حساب.
أشعر أني فقدت ذاكرتي
بشأن كل التغيرات في العالم[1].

صرت أتحرك بصعوبة شديدة في الشارع، لاهثًا من تعب قلبي وآلام كبدي.

توقفت عن الذهاب إلى المنتجعات الصحية، فعندما كنت أذهب إلى هناك وأقضي يومين أو ثلاثة كنت أعود مجددًا إلى المنزل في حالة أسوأ من تلك التي ذهبت بها.

حينها توجهت إلى الكتب. كنت كاتبًا شابًا يبلغ من العمر حينها سبعة وعشرين عامًا. بالطبع توجهت إلى رفاقي العظام من الكتاب والموسيقيين. أردت أن أعرف ما إن كان أحدهم قد مرَّ بظروف شبيهة لما أمر به، وهل عانى أحدهم من كآبة تشبه كآبتي، وإن كان كذلك فما السبب في رأيه، وكيف يتصرفون من أجل التخلص من هذه الكآبة.

حينها بدأت أكتب عن كل ما يتعلق بالاكتئاب. كتبت دون أي اعتبارات أو دوافع خاصة، إلا أني حاولت أن ألتقط ما هو مميز في الشخصية الإنسانية، وما يتكرر في حياة المرء، وما لا يبدو أمرًا عرضيًا أو مجرد خيال عابر أو ومضة ما.

(١) من قصيدة بيرون: سجين تشيليون.

المقتطفات الآتية يمكنها أن تعبر عما ظل يساورني لعدة أعوام:

«أخرج من المنزل وأسير في الشارع مكتئبًا ثم أعود مجددًا إلى المنزل. لماذا؟ حتى أكتئب».

شوبنهاور – خطابات ١٨٣٠.

«لا أعلم أين يمكنني أن أتوارى عن الكآبة. لا أعرف من أين تأتيني».

خطاب من جوجول إلى أمه في عام ١٨٣٧.

«تهاجمني نوبات الاكتئاب حتى أني أخشى أن ألقي بنفسي في المياه. آه يا عزيزي... كم أشعر بالغثيان!»

من نكراسوف إلى تورجينيف ١٨٥٧.

«أشعر بالتعب... أشعر بتعب مريع في جسدي ونفسي حتى أني لا أستطيع العيش».

من إدجار بو إلى آنا ١٨٤٨.

«أشعر بالكآبة تكتنف روحي بدرجة لم أختبرها من قبل. عبثًا أناضل من أجل التخلص منها. أنا بائس ولا أعرف لماذا...»

من إدجار بو إلى كينيدي ١٨٣٥.

«يخطر على بالي عشرين مرة في اليوم أن أرفع المسدس إلى رأسي، وعندما تأتيني هذه الفكرة يصير الوضع أسهل».

من نكراسوف إلى تورجينيف ١٨٥٧.

«كل شيء يثير الغثيان. أشعر أني أود بكل سرور أن أشنق

نفسي، ولا يحول بيني وبين ذلك سوى الكبرياء.»

فلوبير ١٨٣٥.

«أعيش بلا مبالاة تمامًا، وأشعر بشعور رهيب. في كل صباح أنهض وفي ذهني فكرة واحدة: أليس من الأفضل أن أطلق النار على نفسي؟»

من سالتيكوف شيدرين إلى بانتيليف ١٨٨٦.

«تكتنفني كآبة لا سبيل لوصفها. لا أعرف قطعًا ماذا أفعل وعلام أستند؟»

جوجول - بوجودين ١٨٤٠.

«كل شيء في هذا العالم مقزز وغير محتمل... أعيش وأتحدث وأكتب بملل».

ليونيد أندرييف يوميات ١٩١٩.

«أشعر بالتعب والإنهاك التام إلى درجة أني أود البكاء تقريبًا من الصباح إلى المساء. تزعجني رؤية وجوه الأصدقاء... الأحاديث اليومية والنوم على نفس الفراش... نفس الصوت ونفس الوجه وانعكاساته على المرآة».

موباسان - تحت أشعة الشمس ١٨٨١.

«الشنق والغرق يبدوان لي دواء وراحة»

جوجول - بليتينيف ١٨٤٦.

«لقد أُنهكت... أُنهكت من كل العلاقات ومن الناس جميعًا ومن كافة الأمنيات. أود لو أذهب إلى صحراء ما أو

أحظى بالنوم الأخير».

بريوسوف يوميات ١٨٩٨.

«أخفي الحبل حتى لا أشنق نفسي على عارضة غرفتي في المساء عندما أكون بمفردي. لم أعد أخرج إلى الصيد ومعي سلاحي حتى لا تغويني فكرة إطلاق النار على نفسي... يبدو لي أن حياتي لم تكن سوى مهزلة سخيفة».

ليف تولستوي ١٨٧٨.

ملأت كشكولا كاملا بمقتطفات من هذا القبيل. لقد أذهلتني وصدمتني بشدة. لم أسجل مقتطفات من كتابات من مروا بأحزان وبلايا وحوادث موت، بل سجَّلت فقط مقتطفات من كتابات من تكررت لديهم هذه الحالة؛ أولئك الذين قالوا إنهم لا يفهمون من أين جاءتهم تلك الحالة.

كنت مشدوهًا ومضطربًا إلى أبعد حد. ما هذه المعاناة الغريبة التي يعاني منها الناس؟ من أين تأتي؟ وكيف يمكن مواجهتها، وبأية وسائل؟

هل يمكن أن تكون فوضى الحياة هي السبب الحقيقي لظهور هذه المعاناة؟ الأحزان الاجتماعية مثلا أو القضايا العالمية؟ هل يمكن أن يكون ذلك هو ما يُمهِّد التربة الخصبة لنمو هذه الكآبة؟

نعم... لابد وأن ذلك صحيح. لكن هنا تذكرت كلمات

تشيرنيشيفسكي[1]: «الناس لا يحرقون أنفسهم أو يطلقون النار على أنفسهم أو يفقدون عقولهم بسبب القضايا العالمية».

زادتني هذه الكلمات ذهولا.

لم أستطع أن أجد تفسيرًا معقولا... لم أفهم الأمر.

قلت في نفسي مجددًا: «هل يمكن أن يكون السبب على أي حال هي حالة الحزن العالمية التي يتعرض لها عظماء الناس بحكم وعيهم السامي؟»

لا... قد شاهدت بجانب أولئك العظماء الذين أتحدث عنهم آخرين لا يقلون عظمة عنهم، ولم يختبروا أي كآبة مع أنهم يتمتعون بوعي أسمى، وهم يفوقون الفئة الأولى عددًا بكثير.

كنت في حفلة موسيقية لموسيقى شوبان، وعزفوا الكونشيرتو الثاني للبيانو بمصاحبة الأوركسترا.

جلست في الصفوف الأخيرة منهكًا إلى أقصى حد.

فارقتني كآبتي إبان عزف الكونشيرتو الثاني. ملأت الأصوات القوية الجهورية الصالة.

في الجزء الثالث من الكونشيرتو ترددت أصداء الفرحة والنضال وقوة مهولة وكذلك أصداء الابتهاج.

قلت في نفسي: من أين جاء هذا الإنسان الضعيف، هذا

---

(١) نيكولاي غافريلوفيتش تشيرنيشيفسكي هو فيلسوف مادي وناقد واشتراكي وثوري روسي. كان زعيم الحركة الديمقراطية الثورية في ستينيات القرن التاسع عشر.

الموسيقي العبقري بهذه القوة العظيمة، وهو الذي عاش حياة حزينة أعرفها جيدًا؟ من أين جاء بهذه الفرحة والبهجة؟ أيعني ذلك أنه اختبرها فعلا، أم أنه يتصنعها فقط؟ وبأية وسيلة يمكنه أن يفعل ذلك؟

في هذه اللحظة فكَّرت في قصصي التي تجعل الناس تضج بالضحك. فكرت في السخرية التي تمتلئ بها كتبي لكنها لا تملأ قلبي.

لن أخفي عليكم... لقد شعرت بالهلع حينما راودتني فجأة فكرة أنه لابد وأن أجد السبب الذي يُكبِّل قواي، ولماذا أنا تعيس هكذا في الحياة، ولماذا يظهر في الحياة أناس على شاكلتي يجدون أنفسهم منساقين إلى الاكتئاب والحزن بلا سبب.

في خريف ١٩٢٦ أجبرت نفسي على الذهاب إلى يالطا وقضاء أربعة أسابيع هناك. مكثت في غرفتي بالفندق لعشرة أيام متواصلة. بعد ذلك خرجت لأتنزه قليلا. ذهبت إلى الجبل. أحيانا كنت أجلس بالساعات على شاطئ البحر مسرورًا بأن حالتي قد تحسنت وأني على ما يرام. في شهر واحد تعافيت بدرجة ملحوظة. هدأت روحي، بل وابتهجت. قررت أن أمد عطلتي حتى أعتني أكثر بصحتي. قطعت تذكرة الباخرة إلى باطوم[1]. أردت أن أسافر من هناك إلى موسكو بالقطار مباشرة.

حجزت مقصورة خاصة، ورحلت من يالطا في حالة

---

(١) هي عاصمة مقاطعة أجاريا في جورجيا.

مزاجية رائعة.

كان البحر هادئًا صافيًا. جلست طوال اليوم على ظهر السفينة أشعر بالإعجاب بساحل القرم والبحر... ذلك الساحل الذي أحببته دومًا وكنت أسافر عادة إلى يالطا من أجل رؤيته.

الصباح مشرق نوعًا ما، وها أنا جالس ثانية على ظهر السفينة.

ها قد لاح الصباح الرائع، جلست على الأريكة مبتهجًا بحالتي المزاجية الرائقة. كانت الأفكار التي تدور في ذهني مشرقة، بل ومبهجة. فكرت في رحلتي وفي موسكو وفي أصدقائي الذين سوف ألتقيهم هناك. اعتقدت أن كآبتي قد فارقتني، ولتكن لغزًا، وعسى ألا تظهر ثانية! في الصباح الباكر حدقت في تموجات الماء الرقيقة وأشعة الشمس المنعكسة عليها وفي النوارس التي تهبط على سطح الماء وتطلق أصواتها البغيضة.

فجأة، في لحظة واحدة شعرت أني لست على ما يرام. لم يكن الأمر مجرد كآبة، بل إثارة ورعبًا وخوفًا. نهضت بصعوبة شديدة من الأريكة، ووصلت بصعوبة إلى قمرتي.

استلقيت على فراشي لساعتين كاملتين دون حركة، وفي هذه المرحلة عاودتني نوبة قوية من الاكتئاب لم أختبر نوبة أخرى بشدتها إلى يومنا هذا.

حاولت أن أقاومها. خرجت إلى سطح السفينة وأخذت أنصت إلى أحاديث الناس. أردت أن ألهي نفسي عن النوبة،

لكنـي لم أسـتطع ذلك. حينهـا ارتأيت أنـه لا يتوجـب عليَّ أن أكمل رحلتي، بل أني لا أستطيع من الأساس أن أكملها. انتظرت بصعوبـة حتـى وصلنا إلى توابسـي[1]. هناك ذهبت إلى شـاطئ البحر الذي سـوف أواصل فيه طريقي بعـد بضعة أيام. أصابتني حمى عصبية.

توجهت مباشـرة إلى الفندق. انهرت هناك، ولـم أستطع أن أحـزم أمتعتي لأكمل طريقي إلا بعد أسـبوع، وقـد بذلت كل ما أستطيع من جهد. تحسـنت حالتي في الطريق فقد ألهاني الطريق عن حالتي، وتلاشت هذه النوبة المريعة من الاكتئاب.

كان الطريـق طويـلا، وأخـذت أفكـر في حالتـي المرضية البائسـة التي بإمكانها أن تختفي هكذا فجأة كما ظهرت... كيف يحدث ذلك؟ وما السبب فيها؟

أم أنها بلا سبب؟

بدا الأمر كما لو أنه لم تكن هناك أسـباب! لابد وأن يكون الأمر ببسـاطة بسـبب ضعف حالة الأعصاب، وحالة حساسـية مفرطة. لابد وأن هذا هو ما يجعلني أهتز كبندول الساعة.

أخـذت أفكـر: هل ولـدت هكذا بهـذا الضعـف العصبي وتلك الحساسية المفرطة أم أن شيئًا ما قد حدث في حياتي ألحق

(١) إحـدى مدن مناطـق القفقـاس الشـمالي، ومنطقة كانت تتبـع قديمًا معقل الشراكسة الشابسوغ، وهي الآن من المدن الساحلية والتي تقع على شاطئ البحر الأسود الشمالي الشرقي.

الضرر بأعصابي وأتلفها، وجعلني كذرة غبار بائسة يمكن لأي رياح أن تلهو بها وتُطيِّرها كما تشاء؟

ثم بدا لي فجأة أنه لا يمكن أن أكون قد ولدت بائسًا عاجزًا على هذا النحو. قد أكون ولدت ضعيفًا أو ميضًا بسل العقد الليمفاوية. يمكن أن أكون قد ولدت بذراع واحدة، أو بعين واحدة، أو بلا أذن على الإطلاق، لكن أن أكون قد ولدت مكتئبًا دون سبب، فهذا يعني أن العالم بذيء إلى أقصى حد! لكني لست من أهل المريخ. أنا ابن لهذه الأرض، ولابد أن أختبر مثل أي حيوان آخر مشاعر البهجة بالوجود. لابد أن أختبر مشاعر السعادة إذا كانت الأمور جميعًا على ما يرام، وأن أكافح إن لم تكن كذلك، ولكن بدلا من ذلك أكتئب؟! حتى الحشرة التي لا تستمر حياتها أكثر من أربع ساعات تبتهج بالشمس. لا... لا يمكن أن أكون قد ولدت مشوهًا هكذا.

فهمت فجأة بوضوح أن أسباب كآبتي لابد وأنها متجذرة في تربة حياتي. لابد وأن شيئًا ما قد حدث... شيئًا ما قد حدث وكان له هذا التأثير المحبط عليَّ. ولكن ماذا حدث؟ ومتى حدث ذلك؟ كيف يمكنني أن أبحث عن ذلك الحادث التعيس؟ كيف يمكنني أن أجد سبب كآبتي؟

حينها قلت في نفسي: لابد أن أتذكر أحداث حياتي. أخذت أتذكر أحداث حياتي على نحو محموم، لكنني أدركت فورًا أني لن أصل إلى شيء بهذه الطريقة إذا لم أتذكر أحداث حياتي

بمنهجية محددة.

قلت في نفسي: من المستحيل أن أتذكر كل شيء. يكفي أن أتذكر أقوى المشاهد وأوضحها. يكفي أن أتذكر ما تربطه علاقة بإثارة عاطفية، ففي مثل هذه المشاهد فقط يمكنني أن أجد مفتاحًا لحل اللغز.

حينها أخذت أتذكر أكثر المشاهد جلاءً العالقة في ذاكرتي، ووجدت أن الذاكرة قد احتفظت بها بدقة فائقة... احتفظت بأصغر الأشياء وأدق التفاصيل... بالألوان وحتى بالرائحة.

ألقت الإثارة العاطفية بضوئها على ما حدث، وكأنه لون مغنيسيوم متوهج، بدت هذه اللحظات كصور فوتوغرافية بقيت في ذاكرة دماغي.

أخذت أُحلِّل باضطراب رهيب هذه الصور، ورأيت أنها أثارت اضطرابًا أكثر من ذلك الذي أثارته رغبتي في معرفة سبب تعاستي.

٣
أوراق متساقطة

تكـرر حياة كل إنسـان ما فعلـه الناس من قبله، والإنسـان الذي يتمعن في ماضيه جيدًا، ربما يمكنه أن يتنبأ بسـير الأحداث في المستقبل.[١]

لذا قررت أن أتذكر حياتي كي أكتشف سبب تعاستي.

قـررت أن أتوصل إلى الحدث أو مجموعة الأحداث التي حفـزت الكآبـة بداخلي وجعلتني ذرة غبـار يمكن لأي رياح أن تعبث بها كما تشاء.

لذلك قررت أن أتذكر فقط أكثر المشـاهد جلاءً في حياتي؛ المشـاهد المرتبطة بإثارة عاطفية شـديدة، وقد اعتقدت أنه بهذه الطريقة فقط يمكن أن أجد مفتاح حل اللغز.

قلـت في نفسـي: لكن لابد أنـه من المسـتحيل تذكر أعوام الطفولـة، ثـم ما طبيعة الاضطرابـات التي قد تكـون أثّرت عليَّ في عمر الصبا؟ كانت المصائب الشـديدة حينها من قبيل: فقدت ٣ كوبيكات – الصبية ضربوني – تمزق السـروال – سـرقوا مني السـيقان الخشـبية (عـكاز البهلـوان) – أعطـاني المعلـم درجة واحـدة (أي راسـب)... تلكم هـي صدمات الطفولـة. قلت في نفسي إنه من الأفضل أن أتذكر مشاهد من حياتي الواعية. الأهم

(١) هنري الرابع – شكسبير – الفصل الثالث – المشهد الأول.

مـن ذلك أني لم أصب بالمرض في الطفولة، ولكن عندما صرت بالغًا. سوف أبدأ من عمر السادسة عشرة.

حينهـا أخـذت أتذكر أكثر المشـاهد بجلاء بـدءًا من عمر السادسة عشرة.

١٩١٢ - ١٩١٥

آاه.... لقد بُعِثت الحكاية الخرافية من الموت

إنها أجنحة الفراشة التي تنفض الغبار عنها[1].

أنا مشغول

الفِناء... وها أنا ألعب بالكرة. أشعر بالسأم من اللعب، لكني أواصل، وأسير على أصابع قدمي وألقي نظرة على نافذة الطابق الثاني. يعتصر الحزن قلبي.

تعيش هناك تاتا[2]. إنها بالغة. تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، متزوجة من رجل كهل، يبلغ الأربعين من العمر. نسخر منه دائمًا – نحن طلاب المدرسة الثانوية – وهو عائد من عمله، إنه أحدب بعض الشيء.

تُفتح النافذة. إنها تاتا. تُعدِّل تسريحتها، تشد جسمها وتتثاءب.

تراني فتبتسم لي.

آه... إنها فاتنة! تشبه نمرة شابة من حديقة الحيوان...

---

(١) من قصيدة: على التخوم لبالمونت.

(٢) صيغة تدليل لناتاشا (ناتاليا).

نمرة من تلك النمور الساطعة اللامعة ذات الألوان البرّاقة. إني لا أستطيع تقريبًا النظر إليها.

تبتسم تاتا وتقول لي:

- ميشنكا[1]... تعال عندي لدقيقة.

يدق قلبي فرحًا لكني أجيبها دون أن أرفع عيني:

- أنا مشغول كما ترين. ألعب بالكرة.

- اخلع قبعتك. سألقي لك شيئًا فيها.

أخلع قبعتي الخاصة بالمدرسة الثانوية، وتلقي تاتا صرة صغيرة ملفوفة بشريط. إنها شيكولاتة.

أخفي الشيكولاتة داخل جيبي وأواصل اللعب.

أتناولها في المنزل، وبعد أن ألامس الشريط بجبهتي لوهلة أخبئه في مكتبي.

خطاب

غرفة الطعام. أوراق جدران بنية اللون. مملحة بلورية على هيئة هرم مقلوب.

أمي وشقيقاتي جالسات إلى المنضدة.

مكثت طويلا في المدرسة، وتأخرت فبدأن في تناول غدائهن من دوني.

تتبادل شقيقاتي النظرات فيما بينهن ويضحكن بصوت

---

(١) تدليل ميخائيل.

خفيض.

أجلس على مقعدي. أجد خطابًا بجانب أدوات طعامي. مظـروف طويل أرجـواني اللون. تنبعث منـه رائحة عطرية رائعة.

أمـزق المظروف بأيـد مرتعشـة، وأخرج منـه الخطاب ذا الرائحة الأقوى عطرًا. الرائحة قوية حتى إن شقيقاتي لا يستطعن تمالك أنفسهن أكثر من ذلك وينفجرن في الضحك.

يتجهم وجهي وأقرأ الخطاب. تهتز الحروف أمامي عيني. «آه... كم أنا سـعيدة بالتعرف إليك...» أحفظ هذه العبارة وأرددها في عقلي.

تلتقـي نظرتي بعيني أمي الضاحكتين. تسـألني: من أرسـل الخطاب؟

أجيبها بجفاف يكاد يقترب من الغضب: ناديا.

تزداد بهجة شقيقاتي.

تقول شـقيقتي الكبرى: أنا لا أفهم الأمر. تعيشـان في نفس البنايـة وتلتقيان كل يـوم، ورغم ذلك تتبـادلان الخطابات! أمر مضحك... حماقة.

أنظـر بغضـب إلـى شـقيقتي. أتنـاول حسـائي في صمـت وكذلك قطعة خبز الممتلئة برائة العطر.

لقاء

بطرسبورج. جادة كامينو أستروفسكي. تمثال ستيريجوشي[1]. اثنان من البحارة عند مدينة كينجستون المفتوجة. تتدفق المياه البرونزية إلى عقد السفينة[2]. أنظر إلى البحارة والمياه المتدفقة البرونزية دون توقف. يعجبني هذا النصب التذكاري.

أحب مشاهدة هذا المنظر التراجيدي لغرق السفينة.

تجلس زميلتي في المدرسة الثانوية ناديا بجانبي. كل منا يبلغ السادسة عشرة.

تقول ناديا:

- عبثًا أحببتك! لقد نصحتني كل الفتيات بقوة ألا أفعل ذلك.

أسألها بينما ألتفت بعيدًا عن التمثال:

- ولكن لماذا تقولين ذلك؟

- لأني أحببت دومًا المرحين والأذكياء من الرجال... أنت يمكنك الجلوس صامتًا لمدة نصف ساعة وأكثر.

أجيبها:

- لا أعتقد أنه يجدر بي أن أتلفظ بكلمات قالها من قبلي

---

(١) تمثال يصور الموت البطولي لطاقم سفينة ستيريجوشي في الحرب الروسية اليابانية.

(٢) الجزء الواقع بين سطح السفينة السفلي وقاع السفينة المخصص لتخزين الحمولات.

عشرات الألوف من الناس.

- في هذه الحالة إذن عليك أن تُقبِّلني.

أنظر إلى الخلف وأقول:

- قد يروننا هنا.
- لنذهب إذن إلى السينما.

نذهب إلى سينما «مولنيا»[1] ونتبادل القبلات هناك لساعتين.

نسخة طبق الأصل

أغادر المدرسة وألتقي بسيريوجا ك الواقعي. شاب كثيب أشقر الشعر طويل القامة.

يقول لي وهو يقضم شفتيه بعصبية:

- بالأمس افترقنا أنا وفالكا نهائيًا. لك أن تتخيل أنها طلبت مني أن أعيد لها الخطابات كافة.

أقول له:

- يجب أن تعيدها.
- سوف أعيد لها الخطابات بالطبع، لكني أريد الاحتفاظ بنسخة منها. أريد منك خدمة... أحتاج منك أن توثق هذه الخطابات.

أسأله:

---

(١) الكلمة بالروسية تعني البرق.

- ولماذا ذلك؟

- وما أدراك؟. سوف تقول فيما بعد إنها لم تحبني أبدًا، ولكن إذا وثقنا الرسائل...

نقترب من منزله. سيريوجا هو ابن لرئيس فرقة بقوات الإطفاء. لذلك أحب الذهاب إلى منزله.

يضع سيريوجا ثلاثة خطابات على الطاولة وثلاث نسخ منسوخة سلفًا.

لا أود أن أوقع على النسخ لكن سيريوجا يصر على موقفه ويقول لي:

- إننا بالغون بالفعل. لقد مرت سنوات طفولتنا. أرجوك وقِّع على النسخ.

دون حتى أن أقرأ أضع على كل نسخة التوقيع الآتي: «نسخة طبق الأصل» وأوقع باسمي[1].

عرفانًا بالجميل يخرج بي سيريوجا إلى الساحة ويريني سلالم الإطفاء وخراطيم الحريق، وهي موضوعة لتجف في الشمس.

ليلة عيد القيامة

أستعد مسرعًا للذهاب إلى الكنيسة لقداس الفجر. أقف

---

(١) في الأصل مكتوب: اسم العائلة، فكما هو الأمر في بلدان كثيرة اسم العائلة هو الاسم الرسمي.

أمام المرآة، يلتصق زي المدرسة الثانوية على جسدي بإحكام. قفاز أبيض في يدي اليسرى، بينما أعدِّل بيدي اليمنى فرق شعري الجميل.

لست راضيًا تمامًا عن مظهري. ما زلت يافعًا للغاية.

في عمر السادسة عشرة يمكن أن يبدو المر ء أكبر من هذا.

ألقي بالمعطف على كتفي بغير اكتراث، وأخرج إلى السلم.

. أجد تاتا تصعد على السلم. تبدو اليوم فاتنة الجمال في ردائها القصير المكسو بالفرو وأكمامها الجميلة.

أسألها:

- ألن تذهبي إلى الكنيسة؟

تجيبني ضاحكة:

- لا.. سوف نستقبل العيد في المنزل.

وتضيف وهي تقترب مني أكثر:

- المسيح قام يا ميشنكا(١).

أتمتم:

- لم تحل الساعة الثانية عشرة بعد.

تحيط تاتا عنقي بذراعيها وتقبلني. لم تقبلني قبلات عيد

---

(١) ميشنكا تدليل لميخائيل. من عادة المسيحيين في عيد القيامة أن يقول الواحد منهم: المسيح قام (المقصود قام من الأموات) فيجيبه الآخر: بالحقيقة قام.

القيامة الثلاث[1]؛ بل قبلتني قبلة واحدة استمرت لدقيقة. حينها بدأت أفهم أن هذه ليست قبلة عيد القيامة.

في البداية شعرت بالفرح، ثم الدهشة، وبعدها ضحكت.

تسألني:

- ما الذي يضحكك؟

- لم أكن أعرف أن الناس يتبادلون القبلات بهذه الطريقة.

- ليس الناس بل الرجال والنساء يا أحمق.

وتربت بيدها على وجهي وتقبل عينيَّ، وعندما تسمع صوت الباب، تصعد درجات السلم مسرعة وتبدو في أوج الجمال والفتنة، بالضبط كالفتاة التي حلمت أن أحبها دائمًا.

لن أعود للمنزل

نسير نحن العشرة في قرية نوفايا. جميعنا يشعر بالاضطراب الشديد. صديقنا فاسكا ترك المدرسة الثانوية، وفارق منزله وهو يعيش الآن مستقلا في مكان ما على ضفاف نهر تشيرنايا.

ترك المدرسة وهو في الصف الثامن، ولم ينتظر حتى إتمام الامتحانات النهائية، وهذا يعني أنه يستهين بكل ذلك.

كل منا يشعر في قرارة نفسه بالإعجاب الشديد بتصرفه.

منزل خشبي. سلالم بالية متقلقلة.

نصعد درجات السلم حتى سقف المبنى وندلف إلى غرفة فاسكا.

---

(١) عادة روسية.

يجلس فاسكا فوق مقعد حديدي، وياقة قميصه مفكوكة. ثمة زجاجة فودكا على الطاولة، وكذلك خبز وسجق. بجانبه تجلس فتاة نحيلة تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا.

يهمس أحدهم إليَّ قائلا:

- لقد ترك كل شيء من أجلها.

أنظر إلى هذه الفتاة النحيلة. عيناها حمراوتان دامعتان. تلقي إلينا نظرة مشوبة بالخوف.

يسكب لنا فاسكا كثيرًا من الفودكا في الكؤوس.

أهبط إلى الحديقة. أرى هناك سيدة عجوز. إنها والدة فاسكا.

رفعت الأم قبضتها إلى الأعلى مهددة وهي تصرخ بصوت حاد، ويسمع صرخاتها بصمت بعض النساء المتقدمات في العمر.

تصرخ الأم:

- هذه الفتاة هي المذنبة في كل شيء. لو لم تظهر لما فارق فاسكا المنزل أبدًا

يظهر فاسكا من النافذة. يقول:

- أتركيني يا ماما... لن يفيد هذا الضجيج في شيء. أتركيني... أتركيني... لن أعود للمنزل.

تجلس الأم على درجات السلم وهي تعض شفتيها بأسى.

تعذيب

أنا مستلق على طاولة العمليات، فوق قماش أبيض بارد. ثمة نافذة ضخمة أمامي. تلوح السماء من خلف النافذة زرقاء صافية

ابتلعت بلورة كلوريد الزئبق من أجل التصوير. الآن سوف يغسلو معدتي.

يقف الطبيب بثبات مرتديًا معطفه الأبيض بالقرب من الطاولة. تقدم له الممرضة أنبوبًا مطاطيًا طويلا. ثم يتناول إناءً زجاجيًا ليملأه بالماء. أرقب كل هذه الإجراءات باشمئزاز. حسنًا... يبدو أنهم سوف يعذبونني. ربما أموت إذن. على الأقل سوف تنتهي حينها أحزاني ومعاناتي.

حصلت على درجة واحدة فقط (أي راسب) في مادة «التعبير». بالإضافة إلى الدرجة كتبوا بخط أحمر على الورقة: «هراء». في الواقع كانت المقالة عن تورجينيف وشخصيته «ليزا كاليتينا»[1]. وما علاقتي بها؟ ولكن على كل حال من المستحيل تحمل ذلك.

يُمرِّر الطبيب أنبوبًا مطاطيًا عبر حلقي. يزداد هذا الأنبوب البني المقزز عمقًا أكثر فأكثر.

ترفع الممرضة الإناء المليء بالماء. يتدفق الماء مني.

---

(١) بطلة رواية عش النبلاء لتورجينيف.

تعذيب

أنا مستلق على طاولة العمليات، فوق قماش أبيض بارد. ثمة نافذة ضخمة أمامي. تلوح السماء من خلف النافذة زرقاء صافية

ابتلعت بلورة كلوريد الزئبق من أجل التصوير. الآن سوف يغسلو معدتي.

يقف الطبيب بثبات مرتديًا معطفه الأبيض بالقرب من الطاولة. تقدم له الممرضة أنبوبًا مطاطيًا طويلا. ثم يتناول إناءً زجاجيًا ليملأه بالماء. أرقب كل هذه الإجراءات باشمئزاز. حسنًا... يبدو أنهم سوف يعذبونني. ربما أموت إذن. على الأقل سوف تنتهي حينها أحزاني ومعاناتي.

حصلت على درجة واحدة فقط (أي راسب) في مادة «التعبير». بالإضافة إلى الدرجة كتبوا بخط أحمر على الورقة: «هراء». في الواقع كانت المقالة عن تورجينيف وشخصيته «ليزا كاليتينا»[1]. وما علاقتي بها؟ ولكن على كل حال من المستحيل تحمل ذلك.

يُمرِّر الطبيب أنبوبًا مطاطيًا عبر حلقي. يزداد هذا الأنبوب البني المقزز عمقًا أكثر فأكثر.

ترفع الممرضة الإناء المليء بالماء. يتدفق الماء مني.

---

(١) بطلة رواية عش النبلاء لتورجينيف.

أشـعر بالاختناق. أتلوى بين يدي الطبيب. ألوِّح له متوسـلا من أجل إيقاف هذا التعذيب.

يقول الطبيب:

- اهدأ... اهدأ أيها الشـاب. كيف لا تشعر بالخجل من جبنك من مثل هذه الأمور البسيطة!

وينسكب الماء مني كما ينسكب من نافورة.

في الجامعة

رجـل الشـرطة واقـف عنـد البوابـة. يطلب منـي أن أريه شهادتي الدراسية بالإضافة إلى بطاقة الدخول. أقدم له أوراقي.

يقول:

- يمكنك المرور.

في السـاحة أرى رجال شرطة وحراس يحملون أسلحتهم. اليـوم هي الذكرى السـنوية لوفاة تولسـتوي. أمضـي عبر رواق الجامعة، وهناك أواجه جلبة وهرجًا ومرجًا. هناك بروتيتشـينكو رئيس المنطقـة التعليمية يخطب ببطء. إنه طويـل القامة، أحمر الوجه. أرى تحت زيه الرسمي أزرارًا ماسية صغيرة تزين صدره الأبيض.

يحيـط بـه سـياج مـن أجسـاد الطلبة. إنهـم طلبـة اتحاد الأكاديمية يرتـدون معاطفًا ذات بطانة بيضاء. أمسـكوا بعضهم بأيـدي بعض وشـكلوا سـياجًا حول رئيـس المنطقـة التعليمية

ليحمونه من أي خطر. يقودهم طالب طويل القامة، تغطي البثور وجهه يرتدي زيًا خاصًا، والسيف معلق على جانبه.

الهرج والمرج يحيط بالمكان، ويصيح أحدهم:

- أحدهم يجر فيلا في الشارع.

تنطلق النكات ويتعالى الضحك.

يمضي رئيس المنطقة التعليمية ببطء إلى الأمام، ويتحرك معه سياج الطلبة المحيطين به.

يظهر أحد الطلبة. إنه متوسط القامة، غير جميل الهيئة، لكن وجهه ملفت للنظر، ينم عن الذكاء، مليء بالحيوية.

يقترب من سياج الطلبة ثم يتوقف. يتوقف بعفوية، وكذلك يفعل تلقائيًا سياج الطلبة.

يرفع يده فيسود الصمت.

حينها صاح الطالب، وهو يشدد على كل كلمة:

- لقد أُبتُلينا في روسيا بمصيبتين: سلطان الظلام على الأرض، وظلام السلطة في السماء.

عاصفة من التصفيق، وكذلك الضحك.

يمسك الطالب طويل القامة بمقبض سيفه بقوة، ويهمس رئيس المنطقة التعليمية:

- لا داعي لذلك... توقف.

يقول الطالب ذو السيف لأحدهم:

- أخبرني باسم هذا الوغد.

أكان الأمر يستحق الشنق؟

شـنق الطالب ميشـكا نفسـه. ترك ورقة مكتـوب فيها: «لا أحد مذنب. إنها علاقة حب فاشلة».

عرفت ميشكا منذ زمن طويل. أشعث،غير حليق، لا يتمتع بقدر كبير من الذكاء.

علـى الرغم من ذلـك كان الطلبة يعاملونه بصورة حسـنة، فقد كان طيبًا ودودًا.

احترامًا لمآساته قررنا أن نشرب نخبه عسى أن تجد روحه السلام.

اجتمعنـا في حانة في شـارع مالـي. في البداية أنشـدنا أغنية: «أيـام حياتنـا تمر سـريعًا كالأمـواج». ثـم أخذنا نحـاول تذكر صديقنا، لكن أحدًا لم يستطع أن يتذكر شيئًا مميزًا عنه.

حينهـا تذكر أحدنا كيف تناول ميشـكا عـدة وجبات غداء في مطعـم الجامعـة. ضحـك الجميـع، وأخـذوا يتذكـرون كل التفاصيـل الصغيرة والتافهة في حياة ميشـكا. تعالت الضحكات بشكل لا يصدق.

قال أحد الطلبة وهو يكاد يختنق من الضحك:

- ذات مـرة مضينا إلى حفلة راقصة. عرجت على ميشـكا. لم يـرد أن يغسـل يديه. مـن فرط اسـتعجاله غمـس أصابعه في مسحوق الزينة الأبيض ليبيض أصابعه السوداء القذرة.

انطفأت موجة الضحك.

حينها قال أحدهم:

- من الواضح لنا الآن لماذا حظي بعلاقة حب فاشلة.

ضحكنا ثانية وأنشدنا مجددًا «أيام حياتنا تمر سريعًا كالأمواج». في كل مرة كان أحد الطلبة ينهض ويلوِّح بيده عندما تصل كلمات الأغنية إلى كلمة: «تموت وتُدفن كأنك لم تعش في هذا العالم».

ثم أنشدنا «جاوديموس[1]» و «رنين المساء» «دير ليم بوم... يوم».

في عيد الشفيع[2]

الوقت مساء. في طريقي إلى المنزل. أشعر بالحزن الشديد. أسمع صوت أحدهم: أيهاالطالب!

أمامي امرأة، مزينة ومعطرة. أسفل قبعتها المزينة بريشة يمكنني رؤية وجهها البسيط الذي تظهر فيه عظام الخد وشفتاها المكتنزتان. عبست وأردت أن أمضي، لكنها قالت مبتسمة بخجل:

- اليوم عيد قديسي... زرني ولنشرب سويًا الشاي.

تمتمت:

---

(١) أغنية طلابية تُنشد باللاتينية.

(٢) يوم الاحتفال بالقديس الذي سُمِّي المرء على اسمه.

- اعذريني. ليس لديَّ وقت.
- أنـا أمضي مع كل مـن يدعوني، لكني قـررت اليوم الاحتفال بعيد قديسي. قررت أن أدعو أحدًا. من فضلك لا ترفض.

نصعـد سـويًا درجات السـلم في قلب الظلام بيـن الهررة الصغيـرة. ندلـف سـويًا إلـى غرفة صغيـرة. أرى علـى الطاولة السـماور ومكسـرات ومربى وبعض الكعك. نرتشـف الشـاي سـويًا في صمت. لا أعرف ماذا أقول. يتسبب صمتي في شعورها بالارتباك

- أليس لديك أصدقاء، أقارب؟

تجيبني:

- لا... أنا قادمة من روستوف.

أنهي شرب الشاي، وأرتدي معطفي لأغادر.

- هـل أنـا لا أروق لك فعلا إلى هذه الدرجـة حتى أنك لا تود البقاء معي؟

أشـعر بالسعادة والمرح. لا أشـعر صوبها بأي نفور، وأقبل شفتيها المكتنزتين لأودعها، وتسألني:

- هل ستزورني ثانية؟

أخـرج صوب السـلم. هـل يمكننـي أن أتذكر شـقتها؟ في الظلام أعد درجات السلم حتى بابها. أتعثر. هل أشعل الكبريت كي أرى رقم شقتها؟ لا... الأمر لا يستلزم. لن أعود إليها ثانية.

عرض

أمضي وسط العربات. أمسك في يدي خرَّامة صغيرة[1] لثقب تذاكر القطار.

التذكرة مثقوبة على شكل هلال.

في فصل الصيف يعمل الطلبة على خط سكة الحديد الرائع من مدينة كيسلوفودسك إل مدينة مينيرالني فودي. لهذا أنا هنا في القوقاز... أنا هنا من أجل كسب الرزق.

كيسلوفودسك. أخرج إلى رصيف محطة القطارات. ثمة شرطي ضخم الجثة واقف عند بوابة العربة، تتدلى ميداليات على صدره. يبدو جامدًا كتمثال.

يقترب مني المُحصِّل بأدب وانحناءة، ويقول لي:

- يا زميلي (رغم أنه لست طالبًا) باختصار شديد... في المرة القادمة لا تثقب التذاكر، بل عُد إليَّ.

يقول كلماته بهدوء وابتسامة ترتسم على وجهه كما لو أنه يتحدث عن الطقس.

أتمتم بارتباك:

- ولماذا أثـ... ألكي تبيعها لي مرة أخرى؟

- حسنًا... نعم. لديَّ اتفاق مع كل من مثلك. ونقسم الربح بالنصف...

(١) أداة صغيرة تكون في حوزة المحصِّل بالقطار كي يُعلِّم بها تذاكر الركاب.

- وغد حقير! أنت كذَّاب. أتفعل ذلك مع الجميع؟

يهز المُحصِّل كتفيه:

- ليس مع الجميع. ولكن مع كثيرين. هل يدهشك ذلك؟ الجميع يفعلون الأمر ذاته. وهل يمكن أن أعيش على ٣٦ روبل؟ أنا حتى لا أرى أي جريمة فيما أفعله. إنهم يدفعوننا إلى ذلك و...

أستدير بحدة وأغادر. يلحق بي المُحصِّل بسرعة ويقول:

- يا زميلي إن لم تكن تريد ذلك فحسنًا.. كما تشاء. لن ألح عليك، ولكن لا تحكي لأحد عن ذلك. أولا لن يصدقك أحد. ثانية يستحيل أن تثبت ذلك. ثالثًا ستنال سمعة بأنك كذاب مثير للمشاكل.

أعود إلى المنزل ببطء شديد... ينهمر المطر.

أشعر بالدهشة أكثر من أي وقت مضى!

إيلفيرا

محطة مينوتكا[1]. أحظى بغرفة هادئة تطل على الحديقة.

لم تستمر هذه الحالة من الهدوء والسعادة طويلا. تصل إلي الغرفة المجاورة لاعبة السيرك إيلفيرا من بينزا. حسب جواز السفر تُدعى ناستيا جوروخوفا.

إنها امرأة ضخمة، غير متعلمة تقريبًا.

---

(١) اسم المحطة يعني: دقيقة.

حظيت في بينزا بعلاقة قصيرة مع أحد الجنرالات. في الوقت الحالي يصل الجنرال بصحبة زوجته إلى عيون الماء الطبيعية. تأتي إيلفيرا إلى هنا إثرهم دون أن تعرف ماذا تنوي تحديدًا.

من الصباح وحتى المساء لا تفكر إيلفيرا في شيء سوى في ذلك الجنرال البائس.

تريني إيلفيرا يديها اللتين كانتا قادرتين على حمل ثلاثة رجال تحت قبة السيرك وتقول لي:

- بشكل عام كن بإمكاني أن أقتله بسهولة، ولن يعاقبونني على ذلك بأكثر من ثماني سنوات، فما رأيك؟

- وماذا تريدين منه تحديدًا؟

- ماذا تقول؟ لقد أتيت إلى هنا من أجله هو وحده. أعيش هنا منذ شهر تقريبًا مثل امرأة حمقاء، متحملة تكاليف كل شيء بنفسي. أريده أن يدفع لي على الأقل تذكرة العودة بدافع من اللياقة. أود أن أكتب له خطابًا بشأن ذلك.

لأنها لا تعرف القراءة والكتابة يتوجب عليَّ أن أكتب لها هذا الخطاب. أكتب الخطاب بإلهام، والأمل يساورني أنها سوف تغادر إلى بينزا ما إن تحصل على المال.

لا أذكر ماذا كتبت تحديدًا. كل ما أذكره أني عندما قرأت الخطاب لإيلفيرا قالت لي:

- نعم... هذه هي صرخة الروح الأنثوية، وسأقتله حتمًا إن لم

يرسل لي شيئًا بعد ذلك الخطاب.

تمكنت رسـالتي من اختراق نفس الجنرال. أرسل لإيلفيرا خمسمائة روبل. كانت كمية وفيرة جدًا من المال في هذا الزمن.

شُدِهت إيلفيرا بشدة. قالت:

- من الحماقة أن أرحل من كيسلوفودسـك ومعي هذه الكمية الوفيرة من المال.

ظلت هنا، ورأت فيَّ المصدر الحقيقي لثروتها.

الآن لا تبارح غرفتي أبدًا.

حسنًا أن اندلعت الحرب العالمية سريعًا، فقد جعلني ذلك أرحل عن هناك.

١٩١٥ - ١٩١٧

لقد كان القدر رحيمًا معي أكثر
مما كان مع الآخرين[١].

اثنا عشر يومًا

أسافر من فياتكا إلى كازان لألحق بفوجي العسكري. أسافر على متن جياد البريد. لا تتوفر وسيلة نقل أخرى. أسافر داخل عربة ملتحفًا ببطانية ومعطف فروي.

ثلاثة جياد تركض وسط الثلوج. المكان مقفر من حولنا. صقيع قاسٍ. بجانبي يجلس الضابط (س). نمضي سويًا في طريقنا لنجلب الجنود الجدد.

إنه اليوم الثاني من سفرنا. قلنا كل شيء. تحدثنا عن الذكريات كافة. نشعر بملل رهيب.

يسحب الضابط مسدسه من جرابه، ويطلق النار على العوازل البيضاء في أعمدة التلغراف.

أشعر بالضيق من هذه الطلقات. أغضب من حامل الراية وأقول له بخشونة:

- توقف أيها الأحمق!

(١) تاجر البندقية - شكسبير - الفصل الرابع - المشهد الأول.

أنتظر اندلاع مشاجرة، أو تعالي صراخه، ولكن بدلا من هذا أسمع صوتًا حزينًا يجيبني قائلا:

- أيها الضابط زوشينكو.... لا حاجة لك بإيقافي. دعني أفعل ما أشاء، فأنا ذاهب إلى الجبهة وهناك سوف ألقى نحبي.

أنظر إلى أنفه الأفطس، وعينيه الزرقاوين الحزينتين. سوف أتذكر وجهه حتى بعد مرور ثلاثين عامًا على ذلك. لقد قُتِل فعلا في اليوم الثاني لوصوله إلى موقعه.

في هذه الحرب لم يكن الضباط يعيشون في المتوسط أكثر من اثني عشر يومًا.

أنا في حاجة إلى النوم

ندلف إلى الصالة. ثمة ستائر قرمزية مخملية معلقة على النوافذ، ومرايات ذات حواف ذهبية على الحوائط.

تتعالى أصوات موسيقى فالس. يعزف أحدهم الموسيقى على البيانو ويرتدي ثياب سهرة، ولديه دبوس زينة معلق في عروة سترته، لكن وجهه يبدو كوجه قاتل.

يجلس الضباط بصحبة السيدات على الأرائك، ويرقص بعضهم.

يدلف إلى المكان عازف بوق سكير، وينشد قائلا:

- لقد أعلن النمساويون الحرب مع روسيا،وبدأوا الحرب ضد روسيا...

يشارك الجميع في الغناء ويضحكون.

أنا جالس على الأريكة، وبجانبي امرأة. تبلغ من العمر حوالي ثلاثين عامًا، سمينة سمراء ومرحة.

تنظر إلى عينيَّ مباشرة وتقول لي:

- أتود أن ترقص معي؟

أجلس في مكاني متجهمًا كئيبًا، وأهز رأسي بالرفض.

تسألني:

- أتريد أن تنام؟ تعال عندي إذن.

وندلف إلى غرفتها. في الغرفة مصباح صيني، ومباذل صينية، وستائر صينية. أمر مسلٍ ومضحك... نستلقي سويًا لننام.

الساعة الثانية عشرة . عيناي ناعستان لكني لا أستطيع النوم. لست في حال حسنة. أشعر بالكآبة والاضطراب والإنهاك.

تشعر معي بالملل . تتقلب وتتنهد. تلمس كتفي وتقول:

- – ألن تشعر بالغضب إن خرجت إلى الصالة قليلا. إنهم يلعبون لعبة «اللوتو[1]» الآن ويرقصون.

- – لا، تفضلي.

تُقبِّلني بسرور وتغادر الغرفة. أستغرق تمامًا في النوم.

في الصباح لا أجدها بجانبي. أغلق عيني ثانية.

في وقت متأخر تدخل الغرفة وتنام، بينما أرتدي ثيابي في صمت وأغادر.

---

(١) لعبة أمريكية للمقامرة.

الليلة الأولى

أدخل الكوخ. ثمة مصباح يعمل بالكيروسين على الطاولة. يلعب الضباط الورق. يجلس المُقدِّم على الفراش يدخن غليونه.

أُلقي عليهم التحية.

يقول لي المُقدِّم: «اجلس!» ويلتفت صوب الضباط المنهمكين في اللعب ويصرخ تقريبًا:

- أيها الضابط (ك). إنها الثامنة مساءً. هيا لقد آن الوقت لتعود إلى العمل.

يجيب الضابط ذو الطلعة الشجاعة والشاربين الرقيقين، وهو يوزع الورق:

- حاضر يا بافل نيكولايفيتش... سوف ننتهي حالا.

أنظر إلى الضابط بإعجاب. سوف يعود الآن إلى عمله، في قلب الليل، ووسط هذا الظلام، سيعود إلى الاستطلاع، وإلى مؤخرة الجيش. قد يُقتل أو يُصاب، بينما هو يجيب بيسر ومرح وسرور.

يراجع المقدم بعض الأوراق ويقول لي:

- فلنسترح الآن، وغدًا نرسلك أنت أيضًا إلى العمل.

أجيبه:

- حسنًا.

يغادر الضابط. يستلقي بقية الضباط من أجل النوم. يسود الهدوء. أنصت إلى أصوات القذائف البعيدة. إنها ليلتي الأولى بالقرب من الجبهة. لا أستطيع النوم.

قبالة الصباح يعود الضابط (ك). يبدو منهكًا وملطخًا.

أسأله بتعاطف:

- لم تُصب؟

يربت الضابط على كتفي. أقول له:

- اليوم سوف يتوجب عليَّ العمل أنا أيضًا.

يبتسم الضابط ويقول لي:

- هل تعتقد أني ذهبت لأداء عملية عسكرية؟

ذهبت للعمل مع الكتيبة على بعد ثلاثة كيلو مترات في العمق. نصنع هناك خط تحصينات ثان.

أشعر بحرج وخجل رهيبين. أكاد أن أبكي من خيبة الأمل، بينما يتصاعد شخير الضابط.

أعصاب

جنديان يذبحان خنزيرًا. يصرخ الخنزير بشكل غير محتمل. أقترب.

أحد الجنود رابض فوق الخنزير. تمسك يد الجندي الآخر بالسكين، وتشق البطن بمهارة. ينسكب دهن أبيض كثيف لزج على الجانبين.

يتعالى صراخه بشكل يستدعي سد الأذنين. أقول:

- أيها الأخوة... بهذه الطريقة تعذبون الخنزير بلا داعي. لماذا تمزقونه إربًا هكذا؟

يجيبني الجندي الأول الرابض فوق الخنزير:

- من المستحيل يا سيدي. لن يكون مذاقه جيدًا.

يرى سيفي الفضي وفي منتصفه الأحرف الأولى من اسمي الكامل، مكتوبة بشكل متشابك، فيقفز من جلسته، فيبدأ الخنزير في الحركة محاولا الهروب. أقول له:

- اجلس.. اجلس! انهِ عملك بسرعة.

فيقول الجندي الممسك بالسكين:

- لن يكون مذاقه جيدًا إن أجهزنا عليه سريعًا. السرعة تفسد شحم الخنزير.

ينظر إليَّ الجندي الأول بأسف ويقول:

- إنها الحرب يا سيدي. البشر يئنون وأنت تشفق على خنزير!

ويقول الجندي الثاني بعد أن يقوم بحركته الأخيرة بالسكين:

- آه من أعصاب سيادتهم!

تبدأ المحادثة هكذا في اتخاذ نبرة ودية. هذا أمر غير مستحب بين الجنود والضباط. أود أن أفارقهما، لكني لا أفعل ذلك.

يقول الجندي الأول:

- سحقت عظام هذه اليد في غابات أغسطس. مدوني على الطاولة وأعطوني نصف كأس نبيذ كمخدر وأجرى الجراح عملية القطع وتناولت السجق.

- ألا تؤلمك؟

- كيف لا تؤلمني؟ تؤلمني جدًا. تناولت السجق، وقلت «أعطوني فقط بعض الجبن» تناولت الجبن وقال الجراح: «مستعد لخياطة الجرح؟» فقلت له «تفضل». لكن لو كان الأمر معك يا سيدي لما احتملت.

يكُرِّر الجندي الثاني ثانية:

- أعصاب سيادتهم ضعيفة!

أمضي بعيدًا عنهما.

هجوم

في الليلة الثانية عشرة تحديدًا خرجنا من خنادقنا. الظلمة دامسة. المسدس في يدي.

أهمس قائلا:

- رويدًا رويدًا... لا تثيروا ضجيجًا بالصناديق.

ولكن لا يمكن منع قعقة الصناديق.

يبدأ الألمان في إطلاق النيران. يا للبؤس. هذا يعني أنهم يلاحظون مناورتنا.

نركض إلى الأمام تحت صفير وعويل الرصاص حتى

نخرج الألمان من خنادقهم.

يزداد إعصار النيران عنفًا. يطلقون النيران من مدافعهم وبنادقهم، وتشارك المدفعية في القذف.

يتساقطون من حولي. أشعر أن قذيفة قد أصابت قدمي، لكني أواصل الركض للأمام.

ها نحن نصل إلى حواجز الألمان، ويقطع رماة القنابل الأسلاك الشائكة.

موجة ضارية من النيران توقف عملنا. ما من إمكانية حتى لرفع اليد. نستلقي على الأرض دون حركة.

نظل على هذا الوضع لساعة أو لربما اثنتين.

في النهاية يمد لي جندي الاتصالات سماعة الهاتف. يحدثني قائد الكتيبة:

- انسحبوا إلى مواقعكم السابقة.

أعطي أمرًا للجنود بالانسحاب.

نزحف على الأرض منسحبين.

في الصباح التالي في مستشفى المعسكر يربطون حول جرحي. ليس جرحًا بالغًا. ليست رصاصة بل شظية قذيفة.

يقول لي الجنرال ماكايف قائد القوات:

- أنا راضٍ تمامًا عن عمل سريتك.

أجيبه بخجل:

- لم نفعل شيئًا سيادتكم.

- لقد قمتم بما كنا تحديدًا في حاجة إليه. الأمر كان خدعة وليس هجومًا حقيقيًا.

- آه... كان الأمر خدعة؟

- كان الأمر ببساطة خدعة. كان علينا أن نصرف انتباه العدو عن الجناح الأيسر، حيث كان الهجوم الحقيقي هناك.

أشعر بخيبة أمل غير محتملة لكنني لا أظهر شيئًا.

في الحديقة

أمام شرفة المنزل الريفي يوجد حوض زهور جميل، وكذلك كرة زجاجية صفراء تستند إلى قاعدة.

يجيئون بالموتى على عربات ويضعونهم هنا على العشب بالقرب من هذا الحوض.

يضعونهم كقطع الحطب، واحدًا على الآخر، ملقين مصفرين بلا حراك، كدمى الشمع.

بعد إزالة الكرة الزجاجية من على قاعدتها يحفر رماة القنابل مقبرة جماعية.

يقف قائد الفوج عند الشرفة بصحبة ضباط القيادة. يصل إليهم الكاهن.

الهدوء يحل على المكان. تتعالى أصوات المدافع من بعيد.

ينزلون القتلى في جوف الأرض ملفوفين بملاءات.

يسير الكاهن حولهم، وينشد الصلوات الجنائزية. نلمس بأيدينا أطراف خوذاتنا العسكرية.

تدك الأقدام المقبرة.

تصل عربة أخرى محملة بالقتلى على غير انتظار. يقول قائد الفوج:

- كيف ذلك أيها السادة؟ كان يجب أن يُجلبوا عليهم سويًا.

يقول له ضابط الصف الذي وصل مع العربة:

- لم نجدهم جميعًا في نفس الوقت يا سيدي. وجدنا هؤلاء في حفرة عميقة في الجانب الأيسر.

يقول القائد:

- وما العمل الآن؟

- لو تسمح لي يا سيدي، يمكن ألا ندفنهم اليوم، وندفنهم مع موتى الغد سويًا.

يوافق القائد، ويحملون الموتى إلى السقيفة. نمضى لتناول الغداء.

القوات في الفخ

القوات متناثرة على الطريق. الجنود في حالة تعب وإنهاك. إنه اليوم الثاني الذي نمضي فيه بين حقول جاليسيا[1] دون راحة.

نحن ننسحب، فليست لدينا ذخيرة كافية. يأمرنا قائد

(١) منطقة تاريخية مقسمة بين بولندا وأوكرانيا.

الفوج بإنشاد أغنية.

يتبختر أصحاب المدافع الرشاشة فوق جيادهم وينشدون «فوق أمواج المحيط الزرقاء....».

تتناهى إلى آذاننا من كل مكان أصوات القذائف والانفجارات. يترك الأمر لنا انطباعًا كما لو أننا محاصرون.

نمر بالقرب من قرية. يهرع الجنود إلى الأكواخ. لدينا أمر بتدمير كل ما نلتقيه على الطريق.

إنها قرية ميتة، لا تثير الأسف، فما من أحد فيها. ليس هناك حتى كلب واحد، ولا دجاجة مثلما نجد عادة في بقية القرى.

يركض رماة القنابل صوب الأكواخ الصغيرة ويضرمون النيران في الأسقف المصنوعة من التبن. يتصاعد الدخان إلى السماء.

فجأة، في لحظة واحدة تعود القرية الميتة إلى الحياة. تركض النساء بصحبة الأطفال، ويظهر الرجال، ويتعالى جؤار البقر. تصهل الجياد، ونسمع أصوات الصراخ والبكاء والعويل.

أرى جنديًا فور أن أضرم النيران في سقف الكوخ، يحاول بارتباك أن يطفئه بقبعته. أستدير إلى الجانب الآخر. نمضي بعيدًا.

نظل في سيرنا حتى المساء، ثم يحل الليل. يلوح من حولنا وهج الحرائق. تتعالى القذائف والانفجارات.

بحلول الصباح يقول قائد الفوج:

- الآن يمكنني أن أتحدث. لقد كانت قواتنا ليومين متتالين تبدو كما لو أنها داخل فخ لكنها الآن خرجت منه.

نستلقي على العشب وننخرط فورًا في النوم.

اختراق

تذكرت اسم هذه القرية: توخلا. حفرنا الخنادق على عجل، لكننا لم نستطع مد سياج من السلوك الشائكة. كنا قد تركنا خلفنا لفائف كبيرة من السلوك الشائكة.

في المساء أتلقى أمرًا بالتوجه نحو مقر القيادة. أسير وسط صفير القذائف مع جندي الخدمة.

أدخل إلى مخبأ قائد الفوج.

يقول لي القائد مبتسمًا:

- أيها الصغير... ابق هنا في القيادة. سيتولى الضابط المعاون قيادة الكتيبة، وأنت سوف تبقى هنا بدلاً منه.

أستلقي للنوم داخل أحد الأكواخ. أخلع حذائي العسكري للمرة الأولى منذ أسبوع.

في الصباح الباكر أستيقظ على أصوات انفجارات القذائف، وأركض خارج الكوخ.

يقف قائد الفوج وضباط القيادة عند جيادهم المسرجة. أرى الاضطراب والذهول يكتنفان الجميع. تنهال القذائف من حولنا، وتتعالى الأصوات وتتهاوى الأشجار. مع ذلك يقف

الضباط في أماكنهم بلا أدنى حركة وكأنهم أحجار.

يقول لي قائد وحدة الاتصالات في كلمات متقطعة:

- لقد حوصرت الفوج وأُسر. في غضون عشرين دقيقة سيكون الألمان هنا. ليس هناك اتصال مع القيادة العامة. لقد تمزقت الجبهة بامتداد ستة كيلومترات.

يصرخ فيَّ قائد القوات وهو يجذب سوالف شعره الشيباء:

- اذهب سريعًا إلى قيادة الفرقة واسأل ما إذا كانت هناك أيِ أوامر. قُل لهم إننا توجهنا إلى القافلة حيث القوات الاحتياطية.

امتطيت جوادي، واندفعت سريعًا وبصحبتي جندي الخدمة عبر طريق الغابة.

الصباح الباكر... الشمس تضيء المروج التي تلوح لعيني على اليمين. أمضي صوب هذه المروج. أريد أن أرى ما يحدث وأين يقع تحديدًا موقع الألمان. أريد أن أكوِّن صورة كاملة عن الاختراق الذي حدث.

أهبط من على متن جوادي، وأصعد إلى قمة التل.

يتعرض كل جسدي لوهج الشمس، وكذلك سيفي وكتافاتي العسكرية ومنظاري المقرب الذي أضعه قرب عينيَّ. أرى صفوفًا بعيدة من الفرسان والمدفعية الألمانية. أهز كتفي... المنظر بعيد.

تسقط فجأة قذيفة. واحدة والثانية فالثالثة. تسقط القذائف

عيار ثلاثة إنش بالقرب مني بالكاد يمكنني أن أستلقي.

بينما أنا راقد أرى فجأة بطارية مدفعية ألمانية أسفل الرابية، لا يفصلني عنها أكثر من ألف قدم.

تسقط القذائف ثانية، وتلك المرة تتمزق الشظايا فوقي.

يشـير لي جنـدي الخدمـة بيـده، وبالأخرى يشـير لي إلى أسفل حيث الطريق الذي تسير فيه القوات الألمانية.

أمتطي جوادي، ونسرع بعيدًا.

عبثًا وصلت

أقـترب عدوًا بالفـرس من البوابات العاليـة. هنا مقر قيادة الفرقة.

أشعر بالاضطراب والقلق. ياقة معطفي مفكوكة، وقلنسوتي مرفوعة على مؤخرة رأسي.

أهبط من على متن جوادي وأدخل عبر البوابة.

يقترب مني الضابط زرادلوفسـكي العامل بالقيادة. تخرج الكلمات بصعوبة من بين أسنانه:

- عدِّل من مظهرك... أغلق ياقتك.

أغلق الياقة وأعدِّل من وضع قبعتي العسكرية.

يقف ضباط القيادة بالقرب من جيادهم المسرجة.

ألمح بينهم قائـد القوات الجنرال جابايـف، وقائد الكتيبة الكولونيل شابوشنيكوف.

أقدِّم تقريري. يقاطعني الجنرال بغضب قائلا:

- أعرف ذلك.

- وما أوامر سيادتكم التي تود أن أنقلها إلى القائد هناك؟

- قُل له أن...

أستشعر نوعًا من التوبيخ في حديث الجنرال، لكنه يكبح جماح نفسه. يتبادل الضباط النظرات بينهم وبين أنفسهم، ويبتسم قائد القوات ابتسامة بسيطة ساخرة.

- قل له أن... ولكن ماذا الذي يمكنني أن أنقله لقائد قد فقد قواته؟ عبثًا وصلت إلى هنا.

أغادر المكان مضطربًا وخجلا، مستشعرًا نوعًا من التوبيخ في حديث الجنرال لكنه يكبح جماح نفسه. يتبادل الضباط النظرات فيما بينهم، ويبتسم قائد القوات ابتسامة بسيطة ساخرة.

أمتطي جوادي ثانية، وأرى فجأة قائد فوجي. إنه نحيل طويل القامة. يمسك قلنسوته العسكرية بين يديه، وتهتز شعيرات سوالف شعره الشيباء من أثر الريح. يقف في مكانه أمام بعض الجنود المنسحبين. ليسوا من قواتنا. يتقدم القائد صوب كل واحد منهم بالصراخ والتضرع كي يعودوا إلى المعركة.

يعود الجنود بإذعان إلى حافة الغابة. هناك أرى كتيبتنا الاحتياطية وقافلة النقل.

أمضي صوب الضباط، ويقترب قائد القوات منهم هو الآخر. يتمتم قائلا:

- لقد هلك فوجي المجيد.

ويلقي بقلنسوته على الأرض ويطأها بقدميه بغضب شديد.

نحاول أن نهدئه. نقول له إنه قد تبقى منا خمسمائة مقاتل، وهو عدد غير قليل. سنعيد تشكيل الفوج ثانية.

الجحيم

نجلس في إسطبل يبعد عن الخنادق بمسافة سبعمائة قدم. يتناهى أزيز الرصاص إلى آذاننا، وتنفجر القذائف بالقرب منا. رغم ذلك يبدو قائد الفوج بالو ماكايف سعيدًا بل وشديد البهجة. لقد أعدنا تشكيل قواتنا، شُكِّلت الكتيبة على عجل.

لثلاثة أيام متواصلة ظللنا نصد هجوم الألمان بدون انسحاب.

يملّيني القائد قائلا:

- اكتب...

أكتب في دفتر حقيبتي الميدانية تقريرًا إلى قيادة الفرقة.

تنفجر قذيفة على بعد عشر خطوات من الإسطبل. تغطينا النفايات والقاذورات ويتطاير القش.

عبر التراب والدخان يمكنني رؤية الوجه المبتسم للقائد. يقول:

- لا عليك... أكتب...

أعاود الكتابة. قلمي يقفز من يدي حرفيًا من الانفجارات القريبة. تشتعل النيران في المنزل الكامن قرب الساحة. تتساقط ثانية قذائف ثقيلة مريعة قريبة جدًا منا. يتعالى صفير الشظايا المتطايرة. أخفي شظية صغيرة ساخنة في جيبي لهدف ما.

لا ضرورة للجلوس هنا داخل هذا الإسطبل الذي لم يعد هناك سقف يغطيه. أقول:

- ألا يرى جنابكم أنه من الأفضل أن ننتقل إلى الخط الأمامي.

يجيبني مباشرة:

- سوف نمكث هنا.

ينقض إعصار من نيران المدفعية على القرية. الهواء معبأ بالصراخ والأنين والعويل والصرير. يبدو لي أني دلفت إلى الجحيم.

بدا لي حينها أني قد دلفت إلى الجحيم! لكنني دلفت إلى الجحيم بعدها عندما بلغت الخامسة والعشرين، عندما انفجرت قنبلة ألمانية تزن نصف على بعد بيت واحد.

أنا ذاهب في عطلة

في يدي حقيبة سفر. أنا واقف في محطة «زاليسي». سيأتي القطار الآن، وسأعود إلى بتروجراد مرورًا بمينسك ودنو.

يقترب القطار. كافة العربات عادية، وهناك عربة واحدة من فئة الدرجة الأولى. يندفع الجميع صوب القطار.

تنهـال القذائف فجأة. يبـدو من صوتها أنها مدافع مضادة للطائرات. تظهر الطائرات الألمانية على صفحة السـماء. يطلق الجنود بعشوائية طلقات بنادقهم صوبها.

تسـقط قنبلتـان بصـوت يصـم الآذان وتنفجـران قـرب المحطة.

نركـض جميعًـا في الميـدان. الميـدان يحـوي حدائـق ومستشـفى عسكريًا على سطحها صليب أحمر يحيط بها سياج. أستلقي على الأرض قرب السياج.

تحلـق الطائرات حول المحطة وتلقـي قنبلة تلو الآخرى ثم تتوجه صوب المستشـفى. تسـقط ثلاث قنابل تقريبًا بالقرب من السـياج، وتتناثر بقايا الأرض من الانفجارات. إنها وحشية، فالصليـب يلـوح فوق سـطح المستشـفى. مـن المسـتحيل ألا يلاحظوه.

تسـقط ثلاث قنابل أخرى. أراهم وهم يسقطونها من على متن الطائرات. أرى فقط بداية سـقوطها، وبعدها لا ألحظ شـيئًا سوى صفير وعواء الهواء.

يطلقون ثانية النيران من المدافع المضادة للطائرات. الآن شـظايا نيراننا هي التي تتساقط على الأرض. أضغط نفسي على السياج، وأرى فجأة من خلفه مستودعًا للذخيرة.

مئات صناديق الذخيرة أسفل السماء المكشوفة.

ثمة حارس يجلس فوق الصناديق يحدق في الطائرات.

أنهـض ببطء، وأبحث عـن مكان يمكننـي أن أختبئ فيه. ولكن لا مكان للاختباء. قنبلة واحدة تسقط فوق هذه الصناديق من شأنها أن تُدمر كل ما حولها لعدة كيلومترات.

تسقط بعض القنابل الأخرى، ثم تبتعد الطائرات.

أمضـي ببـطء إلى القطـار، وقلبي مبتهج بعدم دقة سـقوط القنابـل. أقول في نفسـي إنه عندمـا تتطور التقنيات بدقة سـوف تصبح الحـرب محض هراء. إن حدث ذلك لمـتُّ في هذا العام أربعين مرة.

أنا أحب

أطرق الباب. تفتح ناديا الباب. تصيح من الدهشة، وتلقي بنفسها على عنقي.

تأتي أمها وشقيقاتها إلى عتبة الباب.

نخرج لنتمشـى في الشـارع حتى نسـتطيع التحدث بهدوء. نجلس على الدكة أمام تمثال ستيريجوشي.

تضغـط ناديـا علـى يـدي وهـي تبكي، تقـول لي مـن بين دموعها:

- يـا للحماقـة! لماذا لـم تكتب لي شـيئًا؟ لمـاذا رحلت فجأة هكذا؟ لقد مر عام بالفعل، وسأتزوج.
- هل تحبينه؟

هكذا سألتها، فلم أعرف ماذا يجب أن أقول.

- لا... لا أحبه. أنا أحبك أنت وحدك. سوف أرفضه.

تنخـرط ثانية في البـكاء. أُقبِّل وجهها المبلـل بالدموع. ثم تقاطع نفسها قائلة:

- ولكـن كيف يمكنني أن أرفضه؟ لقـد تبادلنا الخواتم بالفعل وأتممنـا الخطبـة. لقد منحني في هذا اليـوم ضيعة في مقاطعة سمولينسكايا.

أقول لها:

- إذن لا تفعلـي. سـوف أرحـل ثانيـة إلـى الجبهـة، فلمـاذا ستنتظرين؟ يمكن أن أُصاب أو أُقتل.

تقول ناديا:

- سـوف أفكر في الأمر مليًا. سأحسم الأمر بنفسي. ليس عليك أن تقول لي شيئًا. سوف أجيبك بنفسي بعد غد.

في اليوم التالي ألتقي بناديا في الشارع. تسير بصحبة عريسها ممسكة بيده.

الأمر ليس غريبًا. هذا أمر مألوف، ومع ذلك أشعر بالحنق.

في المساء أرسل ورقة لناديا أقول لها فيها أنهم قد استدعوني ثانية للجبهة، وأني سوف أرحل في غضون يوم واحد. كانت هذه أكثـر تصرفاتي غباءً وحماقة في حياتي كلها. لقد أحببتها جدًا، ولا أزال أحبها حتى الآن.

تعال غدًا

في الـرواق ألتقـي بتاتا. تبدو فاتنة جدًا حتى أني أشـحت بصري عنها كما يشيح المرء بعينه بعيدًا عن الشمس.

تبتســم عندما تـراني. تتفحصني بفضول وتتلمس سـيفي الفضي، ثم تقـول إني قد أصبحت بالغًا تمامًا، وأنه لن يكون من اللائق أن يرانا الناس سويًا. سرعان ما سوف تنطلق الشائعات.

نصعد درجات السـلم سـويًا. بينما يرن مهمـازي[1]، أدخل إلى شقتها.

تُعـدِّل تاتـا مـن وضع شـعرها أمـام المرآة. أقـترب منها وأعانقها. تبتسـم، وتتعجب من أني قد أصبحـت جريئًا إلى هذا الحد. تعانقني كما فعلت سابقًا على درجات السلم.

نتبـادل القبلات. يبدو العالم كلـه حينها أمام هذه القبلات تافهًا، وهي أيضًا لا تعير انتباهًا لأي شيء آخر.

ثم تنظر إلى الساعة وتصرخ من الهلع. تقول لي:

- زوجي سيصل الآن.

في هـذه اللحظة يُفتح الباب ويدخل زوجها. بشـق الأنفس تتمكن من تعديل تسريحة شعرها.

يجلس الزوج على المقعد وينظر إلينا في صمت

تقول له دون أن تفقد رباطة جأشها:

---

(١) قطعة حديد تكون في عقب الراكب ينخس بها بطن الدابة حتى تسرع في المشي.

- أنظر إليه يا نيقولاي... أترى كم أصبح بالغًا! لقد وصل لتوه من الجبهة.

ينظر إليَّ الزوج وهو يبتسم بمرارة.

ليس من المناسب تبادل الحديث هنا. انحنيت أمامهما بطريقة رسمية كي أغادر. تودعني يتاتا.

بعد أن تفتح لي الباب تهمس:

- تعال غدًا ظهرًا. إنه يغادر في الحادية عشرة.

أهز رأسي في صمت.

لم أستطع طوال اليوم أن أخرج من رأسي صورة زوجها وابتسامته المريرة. بدا لي الأمر مريعًا، بل وإجراميًا أن تقول لي: «تعال غدًا ظهرًا».

في الصباح أرسل لها ورقة قائلا إني سأغادر الآن بسرعة إلى الجبهة.

في المساء أغادر إلى موسكو، وبعد أن أقضي هناك بضعة أيام أعود إلى فوجي.

اللص

أنا قائد الكتيبة. أشعر بالقلق من هبوط مستوى الانضباط.

رماة القنابل لديَّ في الكتيبة يؤدون لي التحية العسكرية وابتسامة ساخرة ترتسم على وجوههم. إنهم تقريبًا يغمزون لي. ربما أكون أنا المخطئ، فأنا أتحدث أكثر من اللازم معهم. طوال

اليوم يتزاحمون حول مخبئي. بعضهم في حاجة ماسـة إلى كتابة الخطابات، وآخرون يأتون إليَّ من أجل المشورة.

أية مشـورة أقدمها لهم إن كنت أسـمعهم يطلقون عليَّ من خلف ظهري «الغِر»؟

وصـل الأمـر إلـى أن بعض الأغـراض بـدأت تختفي من مخبئـي. اختفـى مثـلا الغليون ومـرآة الحلاقة. كذلـك اختفت بعـض الحلـوى والأوراق. سـيكون مـن الضروري اسـتخدام الشدة وكبح جماحهم.

نحن الآن في عطلة. أنام على فراشـي داخل الكوخ. أشـعر فجأة وسـط نومي أن يد أحدهم تمتـد من فوقي صوب الطاولة. أرتجف من الخوف وأسـتيقظ من نومي. يحاول أحد الجنود أن يخرج من الكوخ بسـرعة، أركض إثره ومسدسي في يدي. أشعر بالغضب أكثر من أي وقت آخر في حياتي كلها. أصرخ: «قف!». إن لـم يكن قد توقف لكنت قد أطلقت عليـه النار، لكنه توقف، أقـترب منـه فيتهاوى فجأة على ركبتيه. يمسـك بيـن يديه العلبة المطلية بالنحاس التي تحوي موسي الحلاقة خاصتي.

- لماذا سرقته؟

تمتم:

- من أجل أن أضع التبغ فيه سيادتكم.

أدرك أنه يجب أن ينال عقابه ويُقدَّم إلى محاكمة عسكرية، لكنـي ليسـت لـديَّ القـوة لأفعـل ذلـك. أنظـر وجهـه الكئيب

وابتسـامته البائسة ويديه المرتعشتين. أشـعر بالاشمئزاز من أني حتى قد طاردته. أُخرج الموسـي وآخـذه وأعطيه العلبة، وأبتعد شاعرًا بالحنق من نفسي.

العشرون من يوليو

أقـف في الخنـدق وأنظـر بفضول إلى الحطـام في المكان من حولي. إنها سمورجون[١]. يتحصن جناحنا الأيمن في بساتين هذه المدينة.

إنهـا بقعة هامة جـدًا، فمن هنا هرب نابليون وسـلَّم القيادة لمورات[٢].

يحل الظلام. أعود إلى المخبأ.

إنها ليلة خانقة من ليالي شهر يوليو. أخلع معطفي وأنخرط في كتابة الخطابات.

السـاعة الواحـدة تقريبًا. لا بد أن أسـتلقي. أريد اسـتدعاء جنـدي الخدمـة، لكنـي أسـمع فجـأة بعـض الجلبـة. يتزايـد الضجيج، وأسـمع أصوات دق بالأقدام وقعقعة قدور، ولكن لا

(١) مدينة في منطقة بيلا روسيا.

(٢) يواكيم نابليون مورات، مارشـال فرنسا والأدميرال الأكبر أو أدميرال فرنسـا، الأمير مـورات الأول، كان الدوق الأكـبر لبيرغ بين ١٨٠٦- ١٨٠٨ وملـك نابولي ١٨٠٨-١٨١٥. حصل على بعض ألقابه كونه صهـر نابليون بونابـرت من خلال زواجه بشـقيقة نابليـون الصغرى كارولين بونابرت.

أحد يصيح، ولا تتناهى إليَّ أصوات إطلاق نيران.

أخرج سريعًا من المخبأ. تحيط بي فجأة موجة خانقة، فأصرخ: «غاز... الأقنعة!» وأهرع إلى المخبأ. بالداخل لدي قناع غاز معلق على مسمار.

انطفأت الشمعة وأنا أهرع إلى داخل المخبأ. أمسك بيد قناع الغاز وأرتديه، وأنسى نزع السدادة التحتية. أشعر بالاختناق، فأفتحها وأخرج راكضًا من المخبأ.

الجنود يركضون من حولي والأقنعة على وجوههم.

أخرج من جيبي أعواد الثقاب وأشعل النار في غصن أمام الخندق. إنه غصن معد سابقًا في حالة حدوث هجوم غاز.

النيران الآن تضيء مواقعنا. يمكنني رؤية جميع رماة القنابل قد خرجوا من المخبأ واستلقوا بالقرب من النار. أنا أيضًا كذلك. لست على ما يرام. رأسي تدور.

لقد استنشقت كثيرًا من الغاز عندما صرخت: «الأقنعة!».

يصبح الأمر أفضل عند اشتعال النيران. تتحسن حالتي تمامًا. تعمل النيران على أن يتصاعد الغاز دون أن يؤذينا. أخلع القناع.

نستلقي لمدة أربع ساعات.

يبزغ الفجر. الآن يتضح كيف تتصاعد الغازات. إنها لا تشبه جدارًا سميكًا، بل أبخرة تتصاعد في مساحة عريضة تقترب من عشرة ساجن[1]. يقترب ببطء منا، وتُعجِّل الرياح اللطيفة

(١) مقياس روسي قديم.

قليـلا من حركته. من الممكن أن نتوارى يمنة أو يسـرة، وحينما يمر الغاز لن يؤذينا.

الأمـر الآن لا يبعث على الهلع، بل إني حتى أسـمع بعض الضحكات والمزاح من مكان ما. إنهم رماة القنابل يدفع بعضهم بعضًا نحو الغاز. يضحكون ويمزحون.

أنظـر عـبر المنظـار إلـى الألمـان. يمكننـي أن أرى الآن كيف يطلقون الغاز من الأسـطوانات. إنه مشهد يثير الاشمئزاز. يعتريني الجنون عندما أرى كيف يفعلون ذلك بهدوء ونظام.

أعطي الأمر بفتح النيران على هؤلاء الأوغاد. أعطي الأمر بإطلاق النار من كافة البنادق والرشاشـات مع أني أعرف أنها لن يكون لها أثر يذكر من هذه المسافة على بعد ألف ونصف قدم.

يطلق رماة القنابل النيـران بخمول. أرى فجأة الكثير منهم قـد مات. في الواقع قضت غالبيتهم نحبها، والآخرون يئنون ولا يستطيعون رفع رؤوسهم من فرط النيران.

أسـمع أصوات الأبواق تعلـو من الخنـادق الألمانية. إنها أصوات الإشارة إلى إنهاء ضرب الغاز. لقد انتهى الهجوم الغازي.

أذهب إلى المستشـفى الميـداني متكئًا على عصـا. الدماء تغطي معطفي من فرط القيء الرهيب.

أمضي في الطريق وأرى العشـب الأصفر والعصافير الميتة متناثرة على الطريق.

خاتمـة

يحظى فوجنا العسكري بعطلة ثانية.

نذهب على الزلاجات إلى قطار الدرجة الثانية ونتناول عشاءنا هناك.

يلتقي رئيس الوحدة بزوار آخرين.

تملأ أوعية الخمر الطاولة وكذلك اللحم المشوي ومختلف أنواع الطعام.

أجلس على الطاولة بجانب الممرضة الرقيقة كلافا. ثملت فعلا، لكني لا زلت أشعر بأني في حاجة إلى المزيد من الشراب. كل كأس يصاحبه نخب ما.

أشعر أني لا أريد المزيد، فقلبي ليس على ما يرام منذ حادثة الغاز.

أخرج إلى الشارع حتى لا أشرب المزيد، وأجلس في الشرفة.

تقترب مني كلافا وتندهش من جلوسي هنا في قلب الصقيع دون معطف. تأخذني من يدي إلى غرفتها. الجو فيها دافئ. نجلس سويًا على فراشها.

لكن غيابنا يصبح ملحوظًا. يقرع الضباط على نافذة الغرفة وهم يضحكون ويلقون النكات.

نعود إلى الطاولة ثانية.

في الصباح نعود إلى مخيَّم الفوج. أستلقي لأنام على فراش المخيَّم كقطعة من حجر.

أستيقظ على أصوات عويل وانفجارات قنابل. تقذف طائرة ألمانية القرية بأكملها. ليس قذفًا مثل الذي اختبرناه سابقًا. إنها أربع قنابل تحديدًا، وبعدها تغادر الطائرة.

أخرج إلى الشارع، وأشعر فجأة أني غير قادر على التنفس. يتوقف قلبي عن النبض. أتحسس النبض فلا أشعر بشيء.

أستند على السياج بصعوبة غير محتملة وأمضي صوب المصحة.

يهز الطبيب رأسه ويصيح:

- اجلبوا الكافور بسرعة!

ويرشونني بالكافور.

أستلقي شبه ميت تقريبًا. يكتنف الخدر الجانب الأيسر من صدري. نبضاتي تبلغ الأربعين.

يقول الطبيب:

- ممنوع عليك تمامًا أن تشرب الخمر. قلبك مريض.

أعطيه كلمتي ألا أشرب ثانية.

ينقلونني إلى المستشفى عبر ثلوج فبراير الذائبة.

عاد إلى قواته على متن جواده

وريح جديدة تهب على البلاد(١).

لا أفهم شيئًا...!

إنهـا الأيام الأولى من مارس. أمضي من محطة القطار إلى منزلي في عربة أجرة.

أسـير بقـرب القصـر الشـتوي[٢]، وأرى علمًـا أحمر فوق القصر.

هـذا يعني حياة جديدة، روسـيا جديدة، وأنا أيضًا إنسـان جديد لا يشبه إنسان الماضي. فلأدع كل شيء يمر بعيدًا عني... أحزاني، وأعصابي المحطمة واكتئابي وقلبي العليل.

أمضي بفرح إلى منزلي العزيز، وفي هذا اليوم أجد نفسـي محاطًا بكل أصدقائي. ألتقي بناديا وزوجها، وأيضًا بـتاتا وأعرج على أصدقائي بالجامعة.

أرى الفرحـة والبهجـة في كل مـكان من حولـي. الجميع فرحون بأن الثورة قد اندلعت إلا ناديا التي قالت لي:

---

(١) من قصيدة خزانة الأسرار لشاجينيان.

(٢) هـو قصـر يقـع في بطرسـبرج في روسـيا، كان المقر الرسـمي لإقامة قياصـرة روسـيا منذ عام ١٧٣٢ حتى سـقوط الحكـم القيصري عام ١٩١٧.

- إنها مريعة. إنها خطيرة جدًا على روسـيا. لا أتوقع شـيئًا جيدًا يمكن أن يأتي من ورائها.

طـوال يومـين أشـعر أني في حالـة رائعـة. في اليـوم الثالث تعاودني الحالة، وكذلك آلام قلبي، والحزن والاكتئاب.

أنـا لا أفهم شـيئًا. لا يمكنني أن أفهم مـن أين ظهرت هذه الكآبة. لم يكن عليها أن تأتيني!

ربما علـيَّ أن أعمل. ربما عليَّ أن أبذل كل قواي من أجل الناس والوطن والحياة الجديدة.

أمضـي صوب مقـر القيادة الرئيسـي؛ تحديـدًا إلى ممثل السلطة المؤقتة. أطلب منه أن يعيد تعييني في الجيش.

يجدونني غير مؤهـل لذلك ويعينونني قائدًا لمكتب البرق والبريد الرئيسي.

أسـوأ مـا يمكـن أن يحدث قد حـدث فعـلا. أجلس على مكتبـي وأوقع بعض الأوراق. يثير هذا العمل نفوري إلى أقصى درجة.

أمضـي ثانية إلى القيادة وأطلب منهم أن يرسـلوني إلى أي مـكان في المقاطعة. يرسـلون بي إلى أرخانجيلسـك[1] لأصبح ضابطًا معاونًا هناك. أوافق على ذلك.

يتوجب عليَّ أن أرحل في غضون أسبوع.

---

(١) إحدى مدن روسيا وهي ميناء على البحر الأبيض.

شاي الساعة الخامسة

يسير من خلفي المحامي (ل). نعتزم الذهاب إلى بيت أرستقراطي تمامًا؛ إلى منزل الأميرة (ب).

يطلب مني (ل) أن أرتدي كافة أوسمتي العسكرية. يقول لي:

- سوف يروق لها هذا. زوجها لازال حتى الآن في الجبهة. يتولى قيادة فرقة الحرس.

أخرج أوسمتي. أضع أحدها على سيفي القوقازي، واثنين على صندوق سجائري. أرتدي الرابع على عنقي. أشعر أني أخرق نوعًا ما وأنا أرتديه. الخامس صدر به أمر فحسب لكني لم أحصل عليه بعد.

يصر (ل) على طلبه، ويجعلني أرتدي وسامًا أسفل ياقة معطفي.

أمضي معه إلى حفلة الضباط شاعرًا بأني لا أحظى بأية أهمية.

لم يتوجب عليَّ قبلا أن أكون في صحبة الأرستقراطيين. لقد حطَّمت ثورة فبراير الحواجز الطبقية. وها أنا ذاهب إلى هذا البيت.

في غرفة الاستقبال الصغيرة ضابطان من الحرس وبعض المحامين والطلاب.

الأميـرة لا تتمتـع بالجمال. قصيرة القامـة، وكافة تفاصيل وجهها دقيقة، لكنها تتصرف ببساطة بالغة، فلا أشعر بالارتباك.

يجلب الخادم إلى الغرفة بهدوء طاولة زجاجات تسير فوق عجلات. تصب الأميرة الشاي.

يـدور الحديـث طـوال الوقـت حول أسـرة القيصـر؛ عن نيقولاي وعـن التنازل[1] عن الحكم وعـن الحالة الصحية لهذا أو ذاك من أفراد أسـرة القيصر، وعن صحة زوجته وعن الشئون والأفعال طافةالمتعلقة بالحاشية.

أجلس سـاكنًا على مقعدي كقطعة خشب، ووسامي معلق علـى عنقي. قطعًا ليس لـديَّ ما أقوله عن هـذا الموضوع. أنظر بملل إلى صديقي المحامي، لكنه يتحاشى نظراتي.

ننهـي شـرب الشـاي، ونمضي إلـى صالون ضخـم، لكن موضـوع الحديث لا يتغير. في النهاية يشـرع أحـد المحامين في غنـاء أغنيـة معروفة في هـذا الوقت «التمسـاح الكبيـر يجول في الشوارع»، ويشاركه الجميع في الغناء.

ينشـدونها ما يقرب من خمس أو سـت مـرات، ويضجون بالضحـك. أحـد المحاميـن يلتقط وشـاحًا بيـن أسـنانه حينما تصـل الأغنية إلى كلمة «ويمسـك التمسـاح بين أسـنانه بقطعة من بطانية...»يضجون بالضحك بشـكل غريب، وتبتسم الأميرة

---

(١) استـمر حكـم نيقولاي الثاني لروسـيا من ١٨٩٤ وحتـى ١٩١٧حين تنازل عن العرش لأخيه الدوق الأكبر ميخائيل ألكسندروفيتش.

بلطف. في الساعة السابعة نخرج إلى الشارع. يسألني (ل) إن كان الأمر قد راقني. أهز كتفيَّ.

العروس فافا

وصلت إلى أرخانجيلسك منقبض القلب، شاعرًا بكآبة مفزعة. ومع ذلك – بل وربما يكون هذا هو السبب – طلبوا مني أن أتزوج.

اختاروني لخطبة فافا، وهي ابنة لأحد أغنى تجار السمك.

لم أر هذه الفتاة، ولم ترني هي الأخرى، ولكن تقاليد الزواج هناك كانت على هذا المنوال، فهذا الأمر كان يشغل السيدات هناك اللاتي لم يجدن ما يشغلن أنفسهن به.

رتبوا لقائي بالعروس بطريقة احتفالية، وكان المكان في حديقة شتوية بأحد المنازل الفخمة.

رأيت أمامي فتاة يافعة للغاية شديدة الهدوء.

تركونا وحدنا حتى نستطيع التحدث بحرية.

دائمًا ما كنت متحفظًا في الحديث، ولكن في هذا المساء حدثت – ببساطة – كارثة. حرفيًا لم أعرف ماذا يجب عليَّ أن أقول. كنت أنتزع الكلمات من فمي بصعوبة هائلة حتى أملأ بها فترات الصمت المريعة.

نظرت إليَّ الفتاة بخوف، وظلت هي أيضًا صامتة.

لم أكن أنتظر خلاصًا من هذا الموقف، فقد غادر الجميع

إلى غرف بعيدة، وأغلقوا باب الحديقة الشتوية بإحكام.

حينها بدأت أنشد أبيات الشعر.

أخذت أقرأ لها قصائد فيرا إنبر[1] من كتابها الصادر حديثًا: «النبيذ الحزين». ثم بدأت أقرأ لها قصائد بلوك وماياكوفسكي[2].

أخذت فافا تستمع إليَّ بانتباه دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

عندما دخل الناس إلى غرفة الاستقبال شعرت بالسعادة تقريبًا. سألت فافا ما إن كان قد راق لها ما قرأت لها من قصائد أم لا. قالت بهدوء:

- أنا لا أحب الشعر.
- ولماذا إذن استمعتِ له لساعة كاملة؟

هكذا سألتها بتعجب، وتمتمت قائلا:

- حمقاء!
- لم يكن من الذوق ألا أستمع إلى ما تقوله.

التفت إلى الناحية الأخرى على كعبي حذائي، على الطريقة العسكرية تقريبًا، وابتعدت عن الفتاة في حالة من الغضب الشديد.

قفازات شاموا

عادة ما نذهب إلى (د) في أيام الثلاثاء والسبوت. إنها امرأة

---

(١) شاعرة روسية ١٨٩٠ - ١٩٧٢

(٢) من أشهر الشعراء الروس في هذا الوقت.

شابة، أرملة ضابط بحري.

دائمًا ما نحظى بالسرور لديها. إنها امرأة لعوب حادة الذكاء.

لم أحظ بنجاح يُذكر معها، فقد كانت مولعة بالضابط البحري (ت)، وهو ضابط لطيف عريض المنكبين.

الوقت مساءً... نلعب عندها البوكر. تتدلل (د) على الرجل. تلمس بذراعها أحد ذراعيه. كما لو أن الأمر عفوي، وتنظر إلى عينيه طويلا. بنفس الطريقة تدعوه ألا تقتصر زياراته لها على أيام السبوت والثلاثاء.

مع ذلك فهي تتعامل معي بدماثة أيضًا، ولكن ليس بالدرجة نفسها. تقول لي إني شديد الهمود والحزن وإني لا أبدو مثل بقية الرجال. إنها لا تفضل ذلك النوع المكتئب.

نغادر منزلها في الليل. في الشارع ننخرط في السخرية من الضابط بينما يبتسم بغموض.

في الصباح لا أجد قفازاتي. أشعر بالأسف الشديد عليها. إنها قفازات إنجليزية شاموا. لا بد وأني نسيتها في منزل (د).

أتصل بها تليفونيًا. تجيبني بضحكة طويلة، وتقول لي وسط الضحك:

- آه... أهي قفازاتك؟ لسبب ما ظننت أنها قفازات الضابط البحري.

أعرج عليها في الوقت المحدد. لا تتركني أغادر سريعًا،

ونشرب الشاي سويًا داخل مخدعها.

بعد أن ننهي شرب الشاي تحني رأسها وتسنده إلى صدري. أغادر منزلها بعد ثلاث ساعات. عند الباب تعطيني قفازاتي الشموا وتقول مبتسمة:

- ها هي قفازاتك أيها النذل. إنها طريقة ساذجة أن تترك قفازاتك حتى تعود إلى السيدة مجددًا.

أتمتم باعتذار ما. تضحك وهي تشير لي بالتهديد بإصبعها.

تتنهد ثم تقول:

- كما ترى فقد صفحت عن خدعتك الجميلة. أنت مقدام. لم أتوقع منك هذا.

أقول لها:

- مدام...أؤكد لكِ أني نسيت القفازات بمحض الصدفة. لم تكن لديَّ نية أن...

ندمت على أني قلت لها ذلك، فقد عبس وجهها واصفر، بل وبدا كما لو أنه قد هرم. تمتمت:

- آه.. الأمر كذلك إذن! في هذه الحالة أعتذر لك. سيكون ذلك درسًا لي.

ولم تدعوني ثانية إلى منزلها.

كنت سأفعل الأمر ذاته لو كنت في مكانها.

كل الطرق تؤدي إلى باريس

على المقعد المواجه لي عقيد فرنسي. يقول ضاحكًا:

- يمكنك أن تحصل على جواز سفرك غدًا في الساعة الثانية عشرة ظهرًا. بعد عشرة أيام سوف تكون في باريس. عليك أن تشكر الآنسة (ر)، فهي التي تعهدتك برعايتك.

أجيب العقيد قائلا:

- أنا لم أطلب ذلك من الآنسة (ر).

ضيق العقيد عينيه ونظر إليّ ثم قال:

- آه... هكذا إذن! معذرة إذن، فلم أكن أعرف أن هذا على غير رغبتك.

- أنا لا أنوي الرحيل إلى أي مكان أيها العقيد. هناك سوء تفاهم في الأمر.

يهز كتفيه ويقول:

- يا صديقي... هل أنت على علم بما يحدث في بلدك؟ بادئ ذي بدء لم تعد بلدك آمنة كي تحيا فيها، فهناك الثورة البروليتارية التي اندلعت، ونحن هنا في أرخانجيلسك مازلنا لا نشعر بحجم تأثيرها بعد. عليك أن تفكر جيدًا. سوف أنتظرك غدًا في الثانية عشرة.

أقول له:

- حسنًا... سأفكر في الأمر.

مع أنه ليس هناك شيء لأفكر فيه من الأساس. لا تساورني أي شكوك. لا يمكنني ولا أريد أن أرحل عن روسيا. ليس لديَّ أي شيء في باريس.

في المساء تأتيني الآنسة (ر). إنها فرنسية. ليست بارعة الجمال، لكنها مرحة للغاية. ثمة شيء لا أفهمه فيها. في كل مرة تأخذ عقب سيجارة من منفضة السجائر عندي وتخفيها داخل حقيبتها وتقول لي: "هذه للذكرى!". لا يمكنني أن أجعلها تكف عن هذا السلوك السيئ. ربما هي عادة قروية، لكها تؤكد أنها ولدت في باريس.

تسألني ما إن كنت قد بالعقيد. أقص لها كل ماحدث. تشعر بالضيق وتقول بغضب:

- هذه حماقة! سيرحل الجميع. لن تبقى هنا على أي حال. كل الطرق تؤدي إلى باريس.

ثم تتحدث بحماس عن باريس، وعن الحياة الفاتنة التي سوف نحياها هناك.

أجعلها تهبط من برج أحلامها الشاهق وأقول لها:

- طالما الأمر كذلك لماذا رحلتِ إذن من باريس؟ أنتِ هنا مُربِّية، مُدرِّسة، ولكن هناك أنتِ خياطة.

- لقد جئت هنا من أجل مليونير. إنه أمر شيق، وهناك لن أصير خيَّاطة، بل مومسًا.

نضحك سويًا.

عند البوابة

أصعـد راكضًا إلى الطابق الثالث دون توقف. قلبي ينبض بقـوة. أطـرق باب ناديـا. لا يفتح أحـد. في البداية أطـرق الباب بهدوء، ثم يصل الأمر إلى أن أركله بقدمي.

تفتح الجارة بابها وتسألني العجوز:

- أتريد أسرة السيد (ف). لقد رحلوا جميعًا.
- إلى أين؟
- لا أعرف. اسأل حارس العقار.

أقف عند البوابة. حارس العقار أمامي. إنه يعرفني. يبتسـم لي.

- لقد رحلت الأسرة كلها.

يقولها بفرحة تقريبًا.

- متى؟
- في شهر فبراير.
- ألا تعرف إلى أين ذهبوا؟
- إلـى أين يمكنهـم الذهاب علـى أي حال؟ مـن المؤكد إلى منطقة تحت سـيطرة قوات الحرس الأبيض، فالأب جنرال، وهم يطلقون النار على أمثالك. لقد رحلوا بالطبع.

يتنهد حارس العقار بلطف، ربما بعدما شـاهد الاضطراب على وجهي، ويسألني:

- الأمـر الذي لا أفهمه هو من منهما يحزنك فراقها؟ نادينكا[1] أم كاتينكا؟

- نادينكا.

- إنهـا شـابة لطيفـة جـدًا. أبوهـا جنـرال، وزوجها مـن ملَّاك الأراضي. الأمر واضح. لقد أخذت طفلها الصغير ورحلت.

- هل أنجبت طفلا؟

- هذا ما أقوله. لقد أخذت طفلها ورحلت.

أعود إلى المنزل، وفي الطريق يبدو لي العالم كله باهتًا.

في القبو

أجلـس على طاولـة صغيـرة منخفضة. أضع علـى ركبتي حذاءً مهترئًا طويل الرقبة. أصلح جلد نعله بالمبرد.

أعمـل صانع أحذية. يروق لي هذا العمل. أنا أحتقر العمل الذهنـي، فهـو مجرد عمل تافه لا يمكن أن يؤدي لشـيء سـوى الحزن والكآبة. لن أعود ثانية للماضي. أنا راضٍ بما لديَّ الآن.

يجلـس أمامي علـى الطاولة المتسـخة المنخفضة السيد ألكسـي ألكسـيفيتش، وهـو صانـع أحذيـة سـمين، ويرتـدي نظـارة مطلية بالنيـكل. بجانبه يجلـس ابن أخيه الفتـى المراهق أندريوشكا، وكلاهما يعمل بتركيز شديد.

يدق الفتى على النعل ولا تنقصه الحماسة.

---

(١) تدليل ناديا.

من خلفهما يجلس على الدكة الخشبية ابن السيد ألكسي ذو الشعر الأشقر. إنه مغفل يبلغ من العمر عشرين عامًا. التحق بالكونسير فاتوار لدراسة الكمان، ولهذا السبب لا يعمل. يجلس ممسكًا بالجريدة بين يديه.

يضحك الفتى أندريوشكا، ويقص علينا كيف حدث ذات صيف أن سقط أحد السكان من نافذة الطابق الثاني. شرب الخمر، وغفا مستندًا على حافة النافذة، وبينما يتحرك فى أثناء نومه سقط في الحديقة. أصابته بعض الكسور لكنه لم يمت. منذ ثلاثة أسابيع وأنا أستمع كل يوم إلى هذه القصة. على الرغم من ذلك ينخرطون جميعًا في الضحك. أضحك أنا أيضًا، فلسبب ما الأمر مضحك! في إحدى المرات وبينما نحن منخرطون في الضحك خرجت السيدة من المطبخ ووقفت عند الباب وضحكت هي الأخرى، وهي تمسك فمها وعينيها بمئزرتها من فرط الضحك.

مع ذلك لا يسمح السيد ألكسي بهذه الحكاية، ويغضب ويسب عندما تبدأ، ثم يهتم للغاية بالتقاط كافة تفاصيلها وينخرط في موجة ضحك أكبر من الجميع ممسكًا بطنه بيديه. لديه قرحة في معدته وغير مسموح له بالضحك، ولذلك يحاول منع حكايتها من الأساس.

مع ذلك يقص ابنه أو ابن أخيه المراهق تلك القصة عمدًا. يبدآن الأمر من بعيد، كما لو أنهما يقصان أمورًا بعيدة مثل أن

يتحدثا عن شـرب الخمر أو الكحـول أو عن النائمين، ولكن في كل مرة يتطرق الحديث إلى الحادثة نفسها.

ولكـن هذه المرة يبـدأ المراهق حديثه عن حـارس العقار الذي شعر بالخوف. ويتحدث الابن قليلا بالسوء عن الحارس، وحينهـا يبدأ المراهـق – وهو يكاد يموت من فـرط الضحك – يقـص بالتفصيل كيف ركض هذا الحارس فزعًا عندما ارتطمت بكتفه ومؤخرة رأسه يد الرجل الذي سقط من النافذة.

يتدلى السيد ألسكي على الدكة من الضحك، ويتأوه متألمًا وهو يمسك ببطنه.

في النهاية يخرج مسرعًا صوب المطبخ.

أقول:

- لا يجب أن تُضحكاه. أترىان كيف ساءت حالته؟

يجيبني ابنه قائلا:

- هراء... إنه مصاب بالغثيـان. معروف للجميع أن ذلك يريح الناس.

يعود السيد ألكسـي وهو يمسح فمه بكمه. نعود للعمل في صمت.

يتحدثا عن شـرب الخمر أو الكحـول أو عن النائمين، ولكن في كل مرة يتطرق الحديث إلى الحادثة نفسها.

ولكـن هذه المرة يبـدأ المراهق حديثه عن حـارس العقار الذي شعر بالخوف. ويتحدث الابن قليلا بالسوء عن الحارس، وحينهـا يبدأ المراهـق – وهو يكاد يموت من فـرط الضحك ـ يقـص بالتفصيل كيف ركض هذا الحارس فزعًا عندما ارتطمت بكتفه ومؤخرة رأسه يد الرجل الذي سقط من النافذة.

يتدلى السيد ألسكي على الدكة من الضحك، ويتأوه متألمًا وهو يمسك ببطنه.

في النهاية يخرج مسرعًا صوب المطبخ.

أقول:

- لا يجب أن تُضحكاه. أتريان كيف ساءت حالته؟

يجيبني ابنه قائلا:

- هراء... إنه مصاب بالغثيـان. معروف للجميع أن ذلك يريح الناس.

يعود السيد ألكسـي وهو يمسح فمه بكمه. نعود للعمل في صمت.

الظل الحديدي

تقع ضيعة المالك القديم «مانكوفو» في مقاطعة سمولنسك. الآن تحولت إلى سوفخوز[1].

أديت امتحانات اللجنة التنفيذية الخاصة بتربية الطيور ونلت درجات جيدة، والآن أنا المسئول عن قطاع تربية الطيور بالسوفخوز.

أتجول بين الطيور والكتب بين يديَّ. هناك بعض أنواع الطيور لم أرها إلا وهي مقلية، لذا فالكتب الآن تقدم لي يد العون.

لا أفارق الطيور لأسبوعين كاملين، وأقضي الليل تقريبًا في صحبتها محاولا دراسة طبيعتها وعاداتها.

في الأسبوع الثالث أسمح لنفسي بالتنزه قليلا بالجوار.

أسير في الطرق الجانبية، ومن حين لآخر ألتقي ببعض الفلاحين.

في كل مرة أندهش جدًا إثر هذه اللقاءات. من على بعد خمس عشرة خطوة تقريبًا يخلع الفلاح قبعته وينحني لي بشدة. أرفع له قبعتي احترامًا وأمضي بارتباك.

في البداية أظن أن هذه الانحناءات عرضية، لكني أدرك

---

(١) مزرعة حكومية جماعية، وقد تبنى الاتحاد السوفيتي إنشاء هذه المزارع الجماعية.

بعد ذلـك أن الأمر يتكرر في كل مرة. أيمكن أن يكون الأمر أنهم يظنوني شخصية مهمة؟

أســأل إحـدى العجائز التـي تنحني لي حتى تـكاد تلامس الأرض:

- ياجدتي... لماذا تنحنين لي هكذا؟ ما الأمر؟

تُقبِّل يدي ولا تقول شيئًا، ثم تمضي.

حينها أقترب من أحد الفلاحين، عجوز هو الآخر، يرتدي حـذاءً من اللحاء وثيابًا مهترئة. أسـأله لماذا يخلـع قبعته لي من على بعد عشـر خطـوات وينحني لي إلى هذا الحـد. ينحني لي الفلاح ثانية ويحاول أن يُقبِّل يدي لكنني أبعدها. يسألني:

- هل فعلت شيئًا يغضبك يا سيدي؟

وفجأة أستطيع أن أرى وأسمع كل شيء عبر هذه الكلمات وتلك الانحناءة. لقد رأيت ظل عادات الحياة القديمة، وسمعت صيحة السـيد، وإجابة الفلاح الخفيضة الذليلة. شاهدت الحياة التـي لم يكن لديَّ عنهـا أدنى فكرة. شـعرت بالتأثر أكثر من أي وقت آخر بحياتي.

قلت للفلاح:

- يا أبي... لقد وصل الفلاحون والعمال إلى السـلطة منذ عام كامل، وأنت تحاول أن تلعق يديَّ؟!

يجيبني الفلاح قائلا:

- لم يصل إلينا ذلك. صحيح أن السادة تركوا منازلهم ويعيشون

بعد ذلـك أن الأمر يتكرر في كل مرة. أيمكن أن يكون الأمر أنهم يظنونني شخصية مهمة؟

أسـأل إحـدى العجائز التـي تنحني لي حتى تـكاد تلامس الأرض:

- ياجدتي... لماذا تنحنين لي هكذا؟ ما الأمر؟

تُقبِّل يدي ولا تقول شيئًا، ثم تمضي.

حينها أقترب من أحد الفلاحين، عجوز هو الآخر، يرتدي حـذاءً من اللحاء وثيابًا مهترئة. أسـأله لماذا يخلـع قبعته لي من على بعد عشـر خطـوات وينحني لي إلى هذا الحـد. ينحني لي الفلاح ثانية ويحاول أن يُقبِّل يدي لكنني أبعدها. يسألني:

- هل فعلت شيئًا يغضبك يا سيدي؟

وفجأة أستطيع أن أرى وأسمع كل شيء عبر هذه الكلمات وتلك الانحناءة. لقد رأيت ظل عادات الحياة القديمة، وسمعت صيحة السـيد، وإجابة الفلاح الخفيضة الذليلة. شاهدت الحياة التـي لم يكن لديَّ عنهـا أدنى فكرة. شـعرت بالتأثر أكثر من أي وقت آخر بحياتي.

قلت للفلاح:

- يا أبي... لقد وصل الفلاحون والعمال إلى السـلطة منذ عام كامل، وأنت تحاول أن تلعق يديَّ؟!

يجيبني الفلاح قائلا:

- لم يصل إلينا ذلك. صحيح أن السادة تركوا منازلهم ويعيشون

في أكواخ، ولكن من يعلم ماذا سوف يحدث؟

أمضي بصحبة الفلاح إلى قريته، وأعرج على كوخه. وفي كل خطوة أرى ظل الماضي الحديدي.

شيخ يحتضر

أقف وسط كوخ ريفي. على الطاولة شيخ يحتضر. إنه في مكانه هنا منذ ثلاثة أيام ولم يمت بعد.

اليوم يمسك بشمعة بين يديه. تنصهر وتُطفأ، فيشعلونها له مجددًا.

يقف أقاربه عند رأسه. ينظرون إلى الشيخ دون انقطاع. الفقر المدقع يحيط بنا، وكذلك القذارة والأسمال وعلامات العوز...

يسند الشيخ قدميه على النافذة. وجهه معتم وتنفسه مضطرب. يبدو أحيانًا كما لو أنه قد مات.

أقترب من زوجته العجوز وأقول لها بهدوء:

- سوف أجلب طبيبًا، فليس من الجيد أن يستلقي على الطاولة لثلاثة أيام.

تهز العجوز رأسها رافضة وتقول:

- لا داعي لإزعاجه.

يفتح العجوز عينيه، وينظر بكآبة إلى من حوله. تتمتم شفتاه بشيء ما.

تنحني صوبه إحدى النساء، وهي امرأة شابه مستديرة الوجه، وتستمع بصمت إلى تمتماته.

تسألها الزوجة العجوز:

- ما الأمر؟

- يريد أن يحظى بصدر امرأة.

هكذا تجيبها المرأة، وسرعان ما تحل فتحة قميصها، وتمسك بيد العجوز وتضعها على صدرها العاري.

أرى كيف يُشرق وجه العجوز، ويلوح على وجهه شيء ما يشبه الابتسامة. يتنفس بهدوء واطمئنان.

يظل الجميع واقفين دون أدنى حركة.

فجأة يرتج جسد العجوز، وتتهاوى يده في صمت. يبدو وجهه صارمًا وهادئًا. يتوقف عن التنفس ويموت.

حينها تبدأ العجوز في الانتحاب، ومن خلفها الجميع.

أخرج من الكوخ.

نلعب الورق

مصباح من البارافين على الطاولة أسفل أباجورة وردية جذابة. نلعب بالورق لعبة: «بريفرينس».

شركائي هم كالآتي: السيدة السمينة أولجا بافلوفنا وعجوز ذو أسنان متعفنة بصحبة ابنته وامرأة شابة جميلة تُدعى فيرونيكا.

كلهم مُلَّاك سابقون من المناطق المجاورة. لم يريدوا أن يرحلوا بعيدًا عن ملكياتهم. استأجروا هذا الكوخ من الفلاحين، ويعيشون هنا كمواطنين عاديين.

نجلس على الطاولة منذ أربع ساعات تقريبًا. أشعر بالسأم الشديد من اللعبة. لو كان الأمر منوط بي لاكتفيت بكل سرور، لكني لا أستطيع القيام بذلك فأنا الخاسر، ولن أكتفي حتى أربح.

حظي سيئ بشكل لا يُصدَّق. الحظ من نصيب أولجا بافلوفنا، والتي تزداد مرحًا وصخبًا مع كل مكسب جديد.

عندما وجدت أوراقها رابحة ضربت الطاولة بكفها من فرط الفرة وصاحت:

- أنا سعيدة. أنا محظوظة. كنت دائمًا محظوظة في كل شيء. أنا واثقة أني سأستعيد ضيعتي ثانية في غضون شهرين أو ثلاثة.

حينها يبدأ الشيخ ذو الأسنان المتعفنة في الضحك.

- لعب الورق أمر، وروسيا والسياسة والثورة أمر آخر أيتها المبجلة أولجا بافلوفنا

تصيح أولجا بافلوفنا:

- الأمر سواء! الحياة هي الأخرى عبارة عن لعبة ورق؛ أحدنا يحالفه الحظ والآخر لا، وأنا محظوظة دائمًا في كل شيء، سواء في لعب الورق أم في الحياة. سترى بنفسك كيف سأستعيد كل شيء قريبًا.

ثم تقول وهي تلعب بالورق:

- سوف أستعيد كل شيء وأعاقب الفلاحين الذين لديَّ قليلا، ويعود كل شيء إلى سالف ذكره.

يسألها العجوز ذو الأسنان المتعفنة بعد أن يتوقف عن الضحك.

- بعد هذه الثورة ستكتفين فقط بعقابهم عقابًا بسيطًا؟

توقفت أولجا بافلوفنا عن الانشغال بالأوراق وقالت:

- لست معتوهة حتى ألقي بفلاحيني في السجن. لا أنوي أن أصير بدون قوة عاملة. ضع هذا في اعتبارك.

- لا أيتها المبجلة أولجا بافلوفنا، لست متفقًا معك على الإطلاق، وسوف أعارض سياساتك. سوف أشنق منهما اثنين، وأنا أعرفهما تحديدًا، وسأرسل خمسة منهم إلى الأشغال الشاقة، أما البقية فسوف أعاقبهم وأغرِّمهم بأن يعملوا لديَّ عامًا كاملا.

ألقي بأوراق اللعب بقوة حتى أنها تسقط على الطاولة ثم على الأرض.

تصيح أولجا بافلوفنا بعجرفة:

- آه...

أقول بهدوء:

- أيها الأوغاد المجرمون! كل هذا البلاء بسببكم أنتم، وكل هذا الظلام الذي يُخيِّم على القرى، وهذه العتمة.

وأسحب المال من جيوبي، وألقيه على الطاولة. وتكتنفني حمى.

أهـرع إلى الرواق الخارجي، وأتناول معطفي وأدخل يديَّ داخله.

الهـدوء يُخيِّـم على الغرفـة. لا يهمس أحد حتى بشـيء. أنتظـر أن تخـرج فيرونيكا إلى الـرواق، لكنها لا تخـرج. أنتظر في السـاحة، وأخرج الجواد مـن البوابة، وأجلس على المزلاجة العريضـة. يركض الجواد بكد، فهو يعرف الطريق بنفسـه. تلوح مـن فوق رأسـي السـماء المعتمـة والنجـوم. الثلج مـن حولي والغابات.

لمـاذا جئـت إلى هنـا؟ ما الهـدف من وجودي هنا وسـط الطيور والذئاب؟ غدًا سوف أرحل عن هنا.

في مقر القيادة

أنـا جالـس عنـد الطاولة. أستنسـخ أمـرًا للكتيبـة. كتبت مسودته اليوم بصحبة قائد الفوج ومفوضه.

أنا الضابط المعاون للفـوج الأول النموذجي المكون من مجموعة فقيرة من الفلاحين.

أمامـي خريطة للجزء الشـمالي الغربي من روسـيا، وخط الجبهة مرسـوم عليها بقلم رصاص أحمر، وهو يمتد من شاطئ الخليج الفنلندي مرورًا بنارفا، وصولا إلى يامبروج.

أستنسخ الأمر بخط جميل مقروء.

يمضي القائد والمفوض إلـى مواقعهما. لديَّ قلب عليل، ولذلـك لا يمكنني امتطاء صهـوة جواد، وبالتالي مـن النادر أن يصطحباني معهما.

ينقر أحدهم على النافذة. أرى مدنيًا يرتدي معطفًا متسخًا باليًا. بعد أن ينقر على النافذة ينحني لي.

أطلـب مـن جندي الخدمـة أن يسـمح له بالدخـول. ينفذ الجندي الأمر على مضض.

أسأله:

- ماذا تريد؟

يخلع قبعته، ويستند إلى الباب.

أرى أمامي إنسانًا بائسًـا للغاية، تعيسًا منسيًا متألمًا. أقتاده صـوب المقعـد حتـى أشـجعه، وأربت علـى يده وأطلـب منه الجلوس. يرفض الجلوس. يقول لي وشفتاه بالكاد تتحركان:

- إن رحـل الجيـش الأحمر، فهل سـنرحل معه أم أننا سـنبقى هنا؟

- ومن أنت؟

- لقد جئتك من مستعمرة «جداول الماء المنحدرة». مستعمرة المجذومين الخاصة بنا هناك.

أشعر بقلبي يتهاوى. أمسح يدي في سروالي القطني خفية.

أقول له:

- لا أعرف. لا أستطيع اتخاذ قرار بمفردي بشأن ذلك الأمر. بالإضافة إلى ذلك ليس هناك حديث دائر الآن بشأن انسحابنا من هنا. لا أعتقد أن الجبهة سوف تمتد إلى ما هو أبعد من يامبروج.

ينحني لي ويغادر المكان. أراه من النافذة وهو يكشف عن قرحه لجندي الخدمة. أمضي إلى المستشفى وأغسل يدي بحمض الكربوليك.

لا يصيبني المرض. ربما نشعر بخوف أكثر مما ينبغي صوب هذا المرض.

الخبز

لقد فقدت الوعي، عندما غادرت مقر القيادة في الصباح الباكر كي أنعم قليلا بالهواء النقي.

أعادني جندي الخدمة وجندي الاتصالات إلى الوعي. لسبب ما أخذا يفركان أذني ويحركان ذراعيَّ كما لو أني غريق.

قال لي قائد الفوج:

- خذ عطلة فورًا لتسترح. سوف أمنحك أسبوعين.

رحلت إلى بتروجراد.

لكني لم أشعر بتحسن هناك.

مضيت إلى مستشفى عسكري للفحص. فحصوا حالة قلبي وقالوا لي إني لا أصلح للعمل بالجيش، وأودعوني

بالمستشفى حتى مرور اللجنة المختصة.

مرَّ أسبوعان ولا أزال في المستشفى.

بالإضافة إلى شعوري بالمرض أشعر بالجوع أيضًا. إنه عام ١٩١٩! يعطوننا في المستشفى أربعمائة جرام من الخبز وبعض الحساء. هذه كمية قليلة لفرد يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا.

أحيانًا ما تأتيني أمي ببعض السمك المدخن. أشعر بالذنب عندما تأتيني به، فنحن أسرة كبيرة العدد.

على الفراش المقابل لي سيد شاب يرتدي سرواله الداخلي. أتوه توًا برغيفين من القرية. يقطع الرغيف بالسكين إلى عدة قطع، ويغمسها في الزبدة وسريعًا إلى فمه. يستمر في ذلك إلى الأبد!

يسأله أحد المرضى:

- أعطني قطعة يا سفيديروف.

فيجيبه قائلا:

- دعني أنهي طعامي أولا ثم أعطيك قطعة.

وعندما يشعر بالشبع يلقي بقطع الخبز المتبقية للآخرين، ويسألني:

- وأنت أيها المثقف، ألا تريد؟

أقول له:

- أريد ولكن لا تلقيها. ضعها على طاولتي.

يحزنه ذلك، فقد كان يريد أن يلقي بالقطع، فالأمر شيق

بالنسبة له.

يجلس في صمت، وينظر إليَّ. ثم ينهض ممسكًا بقطع الخبز، ويضعه على طاولتي، منحنيًا بطريقة مسرحية، لاويًا قسمات وجهه. يتعالى الضحك من العنبر بأكمله.

أشعر بشدة أني أريد أن أطرح هذه القطع أرضًا، لكني أكبح جماح نفسي، وأشيح ببصري صوب الحائط.

بينما أنا مستلقٍ على فراشي ليلا أتناول هذه القطع.

تراودني أشد الأفكار مرارة.

جبن بِري[1]

أمضي كل يوم صوب السياج المعلقة عليه جريدة «الجريدة الحمراء».

تحوي الجريدة فصلا بعنوان «صندوق البريد» وفيه إجابات أسرة التحرير على المؤلفين،كتبت قصة قصيرة عن القرية، وأرسلتها إلى أسرة التحرير، وأنتظر الآن الرد باضطراب بقدر من الإثارة.

لم أكتب هذه القصة كي أتقاضى عليها مالا، فلديَّ عملي كعامل هاتف بحرس الحدود، ولديَّ ما يكفيني. كتبت هذه القصة؛ لأنه بدا لي ببساطة أني في حاجة إلى الكتابة عن القرية. وضعت اسمًا مستعارًا على القصة: م م شيركوف.

---

(١) جبن مصنوع في منطقة بِري في فرنسا.

السماء تمطر، والجو شديد البرودة. أبحث في الجريدة عن «صندوق البريد». أرى هذه الإجابة:

- إلى م شيركوف. نحن في حاجة إلى خبز من حبوب الجاودار، لا إلى جبن بِري.

لا أصدق عينيَّ. أنا مشدوه... أيمكن أن أكون قد أسأت الفهم؟

أبدأ الآن في تذكر ما كتبته تحديدًا...

يبدو لي ما كتبته سليمًا وجيدًا تمامًا، متصنعًا بعض الشيء، متكلفًا أيضًا، ويحوي بعض الاقتباسات اللاتينية.... يا إلهي! لمن تراني كتبت ذلك؟ أكان لا بد أن أكتب بهذه الطريقة؟ لقد تلاشت روسيا القديمة، وأمامي الآن عالم جديد، وشعب جديد ولغة جديدة...

مضيت صوب محطة القطار كي أرحل إلى مدينة ستريلنا لتولي نوبة عملي. أدخل القطار ويستغرق مني الأمر ساعة. لا بد وأن الشيطان هو من أغراني للقيام بعمل فكري. سوف تكون المرة الأخيرة ولن تتكرر ثانية. المسئول عن ذلك هو عملي الذي يفرض عليَّ الجلوس الدائم في مكاني، وبالتالي لديَّ وقت طويل للتفكير. سوف أُبدِّل عملي.

سنمسك به

حلَّ الليل، والظلام حالك. أنا واقف وسط إحدى صحاري ليجوفو(١). لديَّ مسدس في جيب معطفي.

يهمس لي المحقق الجنائي (ن) الواقف بجانبي:

- قف هناك عند النافذة بحيث لا تصيبك رصاصاتي إن أطلقت النار. إن قفز من النافذة أطلق عليه النار... أطلق على قدميه.

أكتم أنفاسي وأقترب من النافذة المضاءة. أستند بظهري إلى الجدار. أمعن النظر عبر الستائر.

أرى طاولة مطبخ ومصباحًا يعمل بالكيروسين. هناك رجل وامرأة يجلسان على الطاولة، ويلعبان بالورق. يُوزِّع الرجل الورق البالي المتسخ. يربت على الورق بلطف ويضحك كلاهما. يتكئ (ن) ومعه ثلاثة من المحققين على الباب.

هذا خطأ. كان عليهم أن يجدوا طريقة أخرى لفتح الباب. لن ينفتح الباب سريعًا. يطفئ المجرم المصباح. يسود الظلام. ينفتح الباب إثر ضربات قوية، وتتناهى إلى آذاني أصوات طلقات رصاص. أرفع المسدس إلى مستوى النافذة.

هدوء... نشعل المصباح داخل الكوخ. تجلس المرأة على مقعدها شاحبة ترتعش. ما من وجود لشريكها. لقد هرب من النافذة الأخرى المخبئة خلف ألواح خشبية. نفحص هذه

---

(١) إحدى المناطق بقطاع لينينجراد.

النافذة. كانت الألواح مثبتة بحيث يمكن إزالتها بسهولة.

يقول (ن):

- لا عليكم. سنمسك به.

بحلول الفجر نمسك به على بعد أربعة فرستًا[1]. يطلق علينا النار ثم يطلق على نفسه.

الثاني عشر من يناير

الجو بارد. يتصاعد البخار من الفم.

بقايا طاولتي قابعة في قلب نار الموقد، ومع ذلك لا يزداد دفء الغرفة إلا بصعوبة.

أمي مستلقية على الفراش محمومة. قال الطبيب إنها مصابة بـ «حمى إسبانية»، وهي نوع مريع من الإنفلونزا عادة ما يموت الناس منها في كل بيت.

أقترب من أمي. ترتدي معطفين وتتدفأ بغطائين. أضع يدي على جبهتها. أشعر بشدة السخونة. ينطفئ المصباح الزيتي، فأصلحه، وأجلس بجانب أمي على فراشها. أجلس طويلا. أمعن النظر في وجهها المنهك. الهدوء يُخيِّم على المكان من حولنا. شقيقاتي نائمات، فالساعة قد تجاوزت بالفعل الثانية صباحًا.

تتمتم أمي:

---

(١) مقياس روسي للطول يبلغ تقريبًا ١,١ كم.

- لا... لا... ليس من الضروري أن تقوم بذلك.

أجلب مياه دافئة إلى شفتيها. ترتشف بضع رشفات، وتفتح عينيها للحظة. أنحني صوبها. لا... إنها تهذي ثانية. لكن وجهها يصبح الآن أكثر هدوءًا. التنفس منتظم. هل يمكن أن يكون الأمر مجرد أزمة؟ سوف تتحسن.

أغطي كتفيها بالغطاء الذي انزلق عنهما. يبدو لي كما لو أني أرى ظلا يمر على وجه أمي. أخاف من مجرد التفكير في الأمر، وأرفع يدي ببطء وألمس جبهتها. لقد ماتت. لسبب ما لا تتساقط دمعة واحدة من عيني. أجلس على الفراش دون حركة، ثم أنهض وأوقظ شقيقاتي وأمضي إلى غرفتي.

لا أريد شيئًا

مزلجات خشبية، فوق الألواح تابوت غير ملون. أجذب الحبل وأوجِّه المزلجات صوب المقابر. تسير شقيقاتي من خلفي، وكذلك شقيقي الصغير.

نصل إلى مقابر سمولنسك. نرى عند البوابة توابيت كثيرة فوق الكثير من المزلجات. لا تلوح للأبصار هناك العربات المألوفة التي تجرها الخيول. ربما قد التهم الناس الخيول كما التهموا الشوفان.

يحملون التابوت إلى الكنيسة. أظل في الشارع. أجلس على درجات الكنيسة الخارجية بجانب المتسولين. أنا نفسي

متسول، فليس أمامي أي مستقبل، ولا أريد شيئًا. لا أتمنى شيئًا، وكل ما أشعر به هو الأسى على أمي.

يخرجون بالتابوت من الكنيسة، وأقود المزلجات ثانية عبر الزقاق البعيد. هناك تقبع مقبرة أبي الذي مات منذ أربعة عشر عامًا.

بجانب هذه المقبرة ثمة مقبرة جديدة محفورة.

أرفع غطاء النعش وأُقبِّل يد أمي المتوفاة.

الطريق الجديد

على العربة ثمة مكتب صغير، بالإضافة إلى مقعدين وسجادة وخزانة كتب.

أنقل هذه الأغراض إلى الشقة الجديدة.

هناك تغيير يحدث في حياتي.

لم أستطع أن أظل في الشقة ذاتها التي حدثت فيها الوفاة.

قالت لي امرأة أحبتني:

- لقد ماتت أمك. تعال اسكن معي.

أمضي إلى مكتب الزواج المدني بصحبة هذه المرأة، ونكتب العقد. الآن صارت زوجتي.

آخذ أغراضي إلى شقتها صوب ضواحي بتروجراد.

المسافة بعيدة للغاية. لا يمكنني أن أدفع العربة إلا بصعوبة.

أمامي مرتفع عند جسر توتشكوف.

لـم تعد لديَّ قـوة لأدفع العربة. تضطـرب ضربات قلبي بشكل مريع، وأنظر بحزن إلى العابرين من حولي. قد أجد روحًا طيبة تساعدني في دفع العربة على هذا المرتفع.

لا... ينظـر إلـى العابرون بـلا مبالاة وهم يمـرون بالقرب مني.

عليهـم اللعنة! لا بـد أن أقوم بالأمر بنفسـي. آه لو لم يكن قلبي عليلا! من الحماقة أن يموت المرء فوق الجسـر وهو ينقل طاولة وبعض المقاعد.

أنحني وأدفع بكل قوتي العربة على الجسر منهكًا.

الآن الأمر أسهل!

لو كنت قد صادقت السعادة صدقني
لما كنت أفعل ذلك الآن[١].

بيت الفنون

يقع هذا في زاوية مويكا[٢] ونيفسكي.

أسير جيئة وذهابًا في الرواق في انتظار بدء الأمسية الأدبية.

هـذا لا يعنـي أني هنا محقق جنائـي. لديَّ بالفعـل مقالتان نقديتان وأربع قصص، وجميعها قد لاقت استحسانًا كبيرًا.

أذرع الرواق وأنظر إلى رجال الأدب في المكان.

هـا هو أ. م ريميزوف[٣]. يبدو ضئيل الحجم قبيحًا كالقرد، وبصحبتـه سـكرتيره الخاص، وتلوح قطعة من ثياب السـكرتير مـن تحـت سـترته تبـدو كالذيـل. إنـه رمـز[٤]، فريميـزوف هو المسـئول الأكبر عـن جمعية «العنبر الحر للقـرود». وها هو ي. إ زامياتين[٥]. يلمع وجهه بعض الشـيء. إنه يبتسم، ممسكًا بيده

(١) من قصيدة: خزانة الأسرار لـ: م. شاجينيان.
(٢) مويكا: أحد أفرع نهر النيفا.
(٣) ريميزوف كاتب روسي هاجر من روسيا في عام ١٩٢١.
(٤) في كثير من المواضع يسخر زوشينكو من المدرسة الشكلانية الرمزية.
(٥) كاتب روسـي شـهير كتب الرواية والقصة والمسـرحية، ومن أشـهر أعماله رواية «نحن».

غليونًا في غشائه الطويل الأنيق ويتحدث مع أحدهم بالإنجليزية.

أرى أيضًا شكلوفسكي[1]. يرتدي طربوشًا، وهو صاحب وجه جريء ذكي. أراه يجادل أحدهم بحدة. إنه لا يرى شيئًا الآن سوى نفسه وعدوه القابع أمامه.

ألقي التحية على زامياتين. يلتفت إليّ ويقول:

- بلوك[2] هنا. أعتقد أنك تود أن تلتقيه.

أمضي بصحبة زامياتين صوب الغرفة ذات الإضاءة الباهتة.

هناك عند النافذة يقف أحدهم. اكتسب وجهه لونًا بنيًا من لفحة الشمس، وله جبهة عريضة، وشعر فاتح اللون، مموج، يكاد يكون مجعدًا.

إنه يقف دون أدنى حركة بشكل غريب، يراقب أضواء شارع نيفسكي البرّاقة.

لا يلتفت إلينا عندما ندلف إلى الغرفة. يقول زامياتين:

- ألكسندر ألكسندروفيتش!

يلتفت بلوك ببطء، وينظر إلينا.

لم يحدث لي قبلا أن رأيت مثل هاتين العينين الفارغتين الميتتين. لم أعتقد قبلا أن مثل هذا الحزن وهذه اللامبالاة يمكن

---

(١) كاتب وأديب روسي ينتمي إلى المدرسة الشكلية.

(٢) ألكسندر بلوك: شاعر روسي ويعتبر واحدًا من أقطاب المدرسة الرمزية.

أن ينعكسا على الوجه بهذه الطريقة.

يمد بلوك يده الفاترة والواهنة ليصافحنا.

أشعر بالارتباك بسبب إزعاجي لإنسان في مثل هذه الحالة من الغشية. أتمتم ببعض كلمات الاعتذار.

يسألني بلوك بصوت غامض بعض الشيء:

- هل ستتحدث في أمسية اليوم؟
- لا... لقد أتيت لأستمع للأدباء المشاركين.

أعتذر له مرة أخرى، وأغادر الغرفة سريعًا.

يظل زامياتين بصحبة بلوك.

أذرع الرواق ثانية. أشعر بالاختناق من الاضطراب. الآن أرى تقريبًا مصيري، ومستقبل حياتي. أرى الكآبة التي لا بد وأنها سوف تحطمني.

أسأل أحدهم:

- كم يبلغ بلوك من العمر؟
- حوالي أربعين عامًا.

لم يبلغ الأربعين بعد! ولكن بيرون كان يبلغ من العمر الثلاثين فقط حينما قال:

أهو السأم؟ يتبعني كاللص
في كل مكان. ظلام مدمر في الروح
لم يعد الجمال يسحرني
ولا حتى أنتِ[١]

(١) من قصيدة تشايلد هارولد لبايرون.

كتب بيرون «هو السـأم» ولـم يجعل العبارة اسـتفهامية. أنا الذي جعلتها كذلك عن عمد. أنا الذي أتساءل: «أهو السأم؟».

وتبدأ الأمسية الأدبية.

مقهى الاثني عشر

يقع المقهى عند شارع سادوفايا رقم ١٢. أجلس هناك إلى طاولة بصحبة رفاقي.

تتعالـى صيحات السـكارى من حولنـا، وكذلك الضجيج وأدخنة التبغ.

أحدهم يعزف على الكمان.

أتمتم ببعض أبيات بلوك:

أعود مجددًا لصحبة كمان الحانة
سوف أحتسي الخمر ثانية
ليست لديَّ قوة لبلوغ النهاية
وابتسامة بائسة ترتسم على وجهي
إنه خوف المقابر، وقلق رجل ميت[١].

يقترب من طاولتنا رجل يسـير بخطوات متقلقلة. يرتدي سترة مخملية سوداء، وثمة رباط أبيض كبير على صدره.

تغطي المساحيق وجهه. كما أن شفتيه وحاجبيه مخططان. ترتسـم ابتسامة على وجهه؛ ابتسامة سـكيرة مرتبكة بعض

---

(١) من قصيدة كما يتسلل القلق إلى الليل.

الشيء. يقول أحدهم:

- سيريوجا... اجلس معنا.

الآن يتضح لي أنه يسينين.

يلقي بنفسه على أحد مقاعد طاولتنا. ينظر بغضب إلى أحد السكارى، ويتمتم:

- سوف ألكمك... اذهب بعيدًا عن هنا.

أربت على يدي يسينين، فيهدأ. يبتسم ثانية بنوع من الارتباك والأسى.

يمكنني أن أرى خلف وجهه المطلي بالمساحيق شفتين شاحبتين.

يقترب واحد آخر من طاولتنا.

أحدهم يصيح:

- علينا أن نعيد ترتيب الطاولات.

يبدأون تحريك الطاولات... أخرج إلى الشارع.

عند جوركي

ندخل المطبخ. أواني نحاسية كبيرة على الموقد. نذهب إلى غرفة تناول الطعام مرورًا بالمطبخ.

يأتي جوركي للقائنا.

ثمة شيء فاتن في مشيته الهادئة، وفي حركاته وإيماءاته.

إنه لا يبتسم، كما يُفترض من صاحب المكان، لكن ملامح

وجهه دمثة.

في غرفة الطعام يجلس عند الطاولة، ونجلس نحن على المقاعد وعلى الأريكة التركية المبرقشة. أرى فيدين فسيفولود إيفانوف ترتدي معطفًا عسكريًا، وكذلك أرى سلونيموسكي وجروزديف...

يتنحنح جوركي ثم يتحدث عن الأدب والشعب ومهام الكتّاب.

يتحدث حديثًا ممتعًا آسرًا. لكني لا أستمع تقريبًا إلى ما يقوله. أنظر جيدًا إلى طرقات أصابعه العصبية على الطاولة، وكيف يمكن بالكاد أن تلوح ابتسامته عبر شاربيه. أنظر إلى وجهه المدهش الذكي الفظ، الذي لا يشي أبدًا بالبساطة.

أنظر إلى هذا الإنسان العظيم ذي الكلمات الأسطورية. ربما لا يكون ذلك حسنًا، وربما يكون مقلقًا ومنهِكًا. لا أريد ذلك.

كما لو أن جوركي يجيب عما يجول في أفكاري، أجده يقول إن كثيرين لا يعرفونه. منذ أيام كان يقود سيارته، وأوقفه الحراس. قال لهم إنه «جوركي[1]»، فقال له أحد الجنود: «مر أنت أم حلو فهذا أمر لا يعنيني في شيء. أرنا أوراقك».

يبتسم جوركي ابتسامة بسيطة، ثم يتحدث ثانية عن الأدب والشعب والثقافة.

---

(١) كلمة جوركي تعني بالروسية مُر.

أحدهم يجلس خلفي ويُدوِّن ما يقوله جوركي.

ننهض من أماكننا ونودعه.

يربت بيده على كتفي ويقول لي:

- لماذا أنت مكتئب وحزين هكذا؟

أجيبه متمتمًا بشيء ما عن حالة قلبي. يقول لي:

- هذا أمر سيئ. لا بد أن تخضع للعلاج. مر عليَّ في الأيام المقبلة لنتحدث عن أحوالك.

نمضي ثانية عبر المطبخ، ونخرج إلى السلم. نخرج إلى جادة كرونفيرسكي... إلى شارع جوركي.

لقاء

أصعد وأهبط على هذه السلالم اللانهائية، حاملا في يدي حافظة مليئة بالأوراق والاستمارات. أكتب في هذه الاستمارات بعض المعلومات عن السكان. إنه إحصاء رسمي للسكان.

التحقت بهذه الوظيفة كي أرى كيف يعيش الناس.

لا أصدق سوى عينيَّ. أزور منازل الغرباء مختالا كهارون الرشيدي. أمضي بين الأزقة وأدخل المطابخ، وأمر بالغرف. أرى المصابيح المطفأة، والثياب الرثة وورق الجدران والثياب الداخلية معلقة، وأرى اكتظاظ الشقق المريع، والقمامة والملابس الممزقة. نعم... بالطبع لقد تخلصنا منذ زمن قصير من وطأة هذه الأعوام الصعبة؛ من الجوع والدمار، ومع ذلك لم

أحدهم يجلس خلفي ويُدوِّن ما يقوله جوركي.

ننهض من أماكننا ونودعه.

يربت بيده على كتفي ويقول لي:

- لماذا أنت مكتئب وحزين هكذا؟

أجيبه متمتمًا بشيء ما عن حالة قلبي. يقول لي:

- هـذا أمر سـيئ. لا بد أن تخضـع للعلاج. مر علـيَّ في الأيام المقبلة لنتحدث عن أحوالك.

نمضي ثانيـة عبر المطبخ، ونخرج إلى السـلم. نخرج إلى جادة كرونفيرسكي... إلى شارع جوركي.

لقـاء

أصعد وأهبط على هذه السـلالم اللانهائية، حاملا في يدي حافظة مليئة بالأوراق والاستمارات. أكتب في هذه الاستمارات بعض المعلومات عن السكان. إنه إحصاء رسمي للسكان.

التحقت بهذه الوظيفة كي أرى كيف يعيش الناس.

لا أصدق سوى عينيَّ. أزور منازل الغرباء مختالا كهارون الرشـيدي. أمضي بين الأزقـة وأدخل المطابـخ، وأمر بالغرف. أرى المصابيـح المطفأة، والثياب الرثة وورق الجدران والثياب الداخليـة معلقـة، وأرى اكتظـاظ الشـقق المريـع، والقمامـة والملابس الممزقة. نعم... بالطبـع لقد تخلصنا منذ زمن قصير من وطأة هذه الأعوام الصعبة؛ من الجوع والدمار، ومع ذلك لم

أتوقع أن أشاهد ما شاهدته.

أدلف إلى غرفة مظلمة. أشاهد أحدهم مستلقيًا على فراش مهترئ فوق مرتبة قذرة. يستقبلني ببرود. لا يلتفت حتى إليَّ، ويحدق في السقف.

أسأله:

- أين تعمل؟
- الحمير والجياد هم الذين يعملون، أما أنا فلا أعمل ولا أنوي أن أعمل. اكتب ذلك في أوراقك الحقيرة، ويمكنك أيضًا أن تكتب أني أذهب إلى النوادي وألعب الورق.

إنه غاضب. قد يكون مريضًا. أريد أن أغادر حتى أستقي المعلومات من الجيران. أنظر إليه وأنا أغادر المكان لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما من قبل.

أقول:

- أليوشا!

يجلس على فراشه بوجه غير حليق وواجم.

أرى أمامي أليوشا (ن) صديقي بالمدرسة الثانوية. كان يكبرني بعام دراسي واحد. كان أنيقًا جدًا، ذكيًا، الأول بين الطلاب، من ذلك النوع المثالي الذي تفخر به الأمهات.

أتمتم:

- ماذا حدث يا أليوشا؟
- لم يحدث شيء على الإطلاق.

هكذا يجيبني، بينما أرى الاستياء على وجهه.

- هل يمكنني أن أساعدك بأية طريقة؟
- لا أحتاج إلى شيء على الإطلاق. لكن إن كانت لديك نقود، فأعطني خمسة روبلات لأذهب بها إلى النادي.

أقدم له مبلغًا أكبر بكثير، لكنه لا يأخذ سوى خمسة روبلات.

بمرور عدة دقائق أجلس معه على فراشه، ونتحدث سويًا كما كنا نفعل منذ عشرة أعوام مضت.

يقول:

- الأمر في الحقيقة شديد الابتذال. مضت زوجتي مع أحد الأوغاد. بدأت أشرب الخمر. شربت كل ما أمكنني شربه. فقدت عملي، ثم بدأت ألعب الورق في النادي. أما الآن، فكما ترى لا أريد العودة إلى ما فات. يمكنني فعل هذا لكني لا أريد ذلك. كل شيء محض هراء وتفاهة، كوميديا وحماقة، ودخان.

أجعله يقطع وعدًا بأن يزورني.

في المساء

بعض الخطابات الموجهة إلى محرر «الجريدة الحمراء» مستلقية على وسادتي. إنها شكاوى بشأن الفوضى في الحمامات العامة. أعطوني هذه الخطابات كي أكتب مقالة هزلية قصيرة.

أفحص الخطابات. إنها خطابات بائسة هزلية، وفي الوقت ذاته فهي خطابات جادة... جادة جدًا! إنها تتحدث عن أحد أهم الأمور الحيوية بالنسبة للناس؛ عن الحمامات.

أضع خطتي وأباشر الكتابة. ما إن أكتب السطور الأولى حتى أبدأ في الضحك... أضحك... أضحك بصوت أعلى فأعلى، حتى يسقط القلم وكذلك الأوراق من يدي من فرط الضحك. أعاود الكتابة، ويرتج جسدي من الضحك.

لا... في المستقبل لن أضحك بهذه الطريقة عندما أشرع في كتابة قصة، ولكن دائمًا ما تجعلني المسودة الأولى أنخرط في الضحك. أشعر بألم في بطني من فرط الضحك.

يدق جاري على الحائط. إنه محاسب، وسيتوجب عليه النهوض غدًا في وقت مبكر، وأنا أحول بينه وبين النوم. اليوم يدق على الحائط بقبضتيه. لا بد أني أيقظته. يا للأسف!

أصرخ:

- معذرة يا بيتر ألكسيفيتش.

أمسك بأوراقي ثانية. أضحك ثانية، وأدفن وجهي هذه المرة في الوسادة.

أنتهي من كتابة القصة في غضون عشرين دقيقة. أشعر بالأسف من أني قد انتهيت منها بهذه السرعة.

أمضي صوب مكتبي، وأعيد كتابة القصة بخط واضح جميل. في أثناء عملية إعادة الكتابة أضحك أيضًا ولكن بهدوء.

غـدًا عندما أقـرأ القصة أمام لجنـة التحرير لن أضحك. سـوف أقرأها بعبوس وتجهم. الساعة الآن الثانية صباحًا. أستلقي على فراشي، لكني لا أستطيع النوم لمدة طويلة. أنشغل في التفكير في موضوعات قصص جديدة.

يحل الصباح. أتناول البروم[1] حتى أستطيع النوم.

هراء من جديد

أنا في هيئة تحرير مجلة «سوفريمينيك[2]». كنت قد أرسلت لهذه المجلة بالفعل خمسًا من أفضل قصصي، وقد ذهبت إليهم الآن لأعرف ردهم. أمامي الآن أحد المحررين، وهو الشـاعر م كوزمين. يتسم بأكبر قدر من اللباقة. لكني أقرأ على وجهه أنه لا ينوي أن يخبرني بشيء حسن.

يعبس وجهه فأحاول اختصار الطريق عليه وأقول:

- يبـدو أن قصصـي لـن تدخل خطـة النشـر بالمجلـة، أليس كذلك؟

- كمـا تـرى فنحـن في مجلـة أدبيـة، ولكـن قصصـك... إنها مضحكة ومسلية للغاية، لكنها مكتوبة... أقصد أن...

- هراء؟ تريد أن تقول إنها مجردِ هراء؟

هكـذا أسـأله، ويـبرق في ذهنـي التذييـل المكتـوب على

---

(١) مادة كيميائية.

(٢) الكلمة تعني المعاصر.

مقالاتي بالمدرسة الثانوية: «هراء».

يُلوِّح كوزمين بيديه قائلا:

- لا... لا... عفوًا... ليس هذا ما أريد قوله إطلاقًا. الأمر على النقيض من ذلك. قصصك تفصح عن موهبة شـديدة، لكني أعتقد أنك سوف توافقني على أنها هزلية.

- إنها ليست هزلية.

- حسنًا، ولكن إن نظرت فقط إلى اللغة فسـ...

- اللغة ليسـت هزلية، لكنها لغة أهل الشـارع... لغة الشـعب. ربما أكون قد بالغت قليلا، وذلك حتى يظهر النقد والسخرية.

يقول لي بنعومة:

- حسنًا لن نتجادل حول الأمر. أعطنا عملا عاديًا، سواء كانت قصة أم رواية، وصدقني نحن نقدر تمامًا عملك.

أغادر المكتب. لا أشـعر بالمشـاعر ذاتها التي شـعرت بها سـابقًا عندما كنت في المدرسـة الثانوية، حتى أني لا أشعر بخيبة الأمل. أقول في نفسي: حسـنًا... سأتدبر أموري دون المجلات الأدبية السـميكة. إنهم في حاجة إلى شيء «عادي». إنهم يريدون كتابة تشبه الكتابات الكلاسيكية، فهذا ما يبهرهم، والقيام بذلك أمر سـهل. لكنـي لا أنوي الكتابـة من أجل قرَّاء غيـر موجودين في الحقيقة، فالشـعب لديه وجهة نظر أخرى عن الأدب. لسـت خائب الأمل... أنا أعلم أني على حق.

في الحانة

النهار قائم والشمس ساطعة. أسير في شارع نيفسكي. ألتقي (س) يسينين في طريقي.

يرتدي معطفًا أزرق فاتنًا، ويطوق الحزام خصره، ولا يرتدي قبعة. وجهه شاحب، وعيناه منطفئتان. يسير بروية، ويتمتم بشيء ما. أقترب منه. أجده متجهمًا صموتًا، وتغلب الكآبة على مظهره بالكامل.

أهم بالانصراف لكنه لا يتركني. أسأله:

- هل أنت على ما يرام؟ هل تشعر بالمرض؟

يجيبني بانزعاج:

- ولماذا تعتقد ذلك؟ هل مظهري سيئ؟

ثم يضحك فجأة قائلا:

- الأمر أني أهرم يا صديقي العزيز. سوف أبلغ الثلاثين قريبًا.

نصل إلى الفندق الأوروبي.

يتوقف يسينين عند المدخل لدقيقة من الوقت، ثم يقول:

- دعنا نذهب للجهة المقابلة؛ إلى الحانة. لن يطول بنا الوقت هناك.

ندخل الحانة، نجد الشاعر ف فوينوف جالسًا على إحدى الطاولات بصحبة أصدقائه. يهب للقائنا فرحًا. نجلس معه على طاولته، ويصب لنا أحدهم الجعة في الكؤوس. يقول يسينين

شيئًا ما للنادل، فيأتيه الأخير بكأس من الخمر. يغلق يسينين عينيه ويرتشف من كأسه. أراقب كيف تعود إليه الحياة مع كل رشفة. تعاود الحيوية وجنتيه، ويلوح الاطمئنان في إيماءاته، وتشرق نظرة عينيه.

يريد أن يستدعي النادل ثانية. كي أتمكن من إلهائه عن فعل ذلك أطلب منه أن ينشد لنا من شعره.

لسبب ما يوافق على ذلك سريعًا، بل ويشعر أيضًا بالفرحة.

ينهض من على الطاولة، ويبدأ في قراءة قصيدة: «الإنسان الأسود».

يحتشد الناس حول الطاولة، ويقول أحدهم: «إنه يسينين».

يحتشد حول الطاولة كل من بالحانة تقريبًا.

تمر دقيقة ثم يقف يسينين فوق مقعده ويقرأ من قصائده القصيرة ملوحًا بيديه.

يقدم لنا قراءة فاتنة بإحساس مرهف، وألم مضن يهز قلوب جميع الحاضرين. لقد حضرت أمسيات شعرية لشعراء كثيرين، ورأيت نجاحًا ساحقًا، ورأيت الاحتفاء الكبير بهم، وبهجة كل الحضور، لكني لم أر أبدًا من قبل مثل هذه المشاعر ومثل هذه الحرارة التي يشعر بها الناس صوب يسينين عندما يلقي الشعر.

تحمله عشرات الأيدي من فوق مقعده لتضعه فوق الطاولة. الكل يريد أن يشرب نخبه. الجميع يريدون أن يلمسوه ويحتضنوه ويقبلوه. يشكل الناس حول الطاولة التي يجلس

عليها حلقة ضيقة.

أغادر الحانة.

أنا المذنب

المساء. أسير في شارع نيفسكي بصحبة (ك).

تعرفت عليها في كيسلوفودسك.

إنها جميلة وذكية ومرحة. تتقد بداخلها بهجة الحياة التي أفتقدها أنا. قد يكون ذلك هو أكثر ما يجذبني إليها.

نسير على مهل، نمسك أيدي بعضنا. نصل إلى ضفة النيفا. نسير على رصيف الميناء المظلم. لا ينتهي حديث (ك) أبدًا، لكني لا أدرك فحوى حديثها بالضبط. أستمع إلى كلماتها كما أستمع إلى الموسيقى. ثم أشعر بنغمة استياء وسط هذه الموسيقى، فأنصت السمع.

- منذ أسبوعين ونحن نسير في الشوارع. لقد طفنا بكل هذه الضفاف والحدائق الحمقاء. أريد ببساطة أن أجلس معك في غرفة ما، نتبادل الحديث ونشرب الشاي.
- تعالي نجلس في أحد المقاهي.
- لا... هناك قد يروننا.

آه... لقد نسيت تمامًا. إنها تمر بظروف معقدة في الحياة. لديها زوج غيور جدًا، وعاشق شديد الغيرة. كثير من الأعداء سيقولون إنهم شاهدونا سويًا. نتوقف عند ضفة النهر. نحتضن

بعضنا ونتبادل القبلات. تتمتم:

- يا للحماقة! إننا في الشارع.

نسير ثانية ونتبادل القبـلات مجددًا. تغطـي عينيها بيدها. تشعر بالدوار من هذه القبلات الطويلة.

نصل إلى مدخل منزل ما. تتمتم (ك):

- علـيَّ أن أعرج علـى الخيَّاطة هنا. انتظرني هنا. سـوف أقيس فقط فستانًا ثم أعود إليك سريعًا.

أتجـول حول المنـزل من عشـر لخمس عشـرة دقيقة، ثم تظهر أخيرًا، وتبدو مرحة، وتلوح الضحكة على وجهها.

تقول لي:

- الأمـور علـى مايـرام. الفسـتان لطيـف للغاية، وهو شـديد البساطة دون أي تكلف.

تمسـك بيـدي. أصحبهـا حتـى منزلهـا. ألتقيهـا ثانية بعد خمسة أيام. تقول لي:

- لو تحب يمكننا أن نلتقي اليوم في منزل واحدة من معارفي.

نذهب إلى أحـد المنازل .أعرف هذا المنزل. انتظرتها عند مدخل البيت ما يقرب من عشرين دقيقة. إنه المنزل الذي تعيش فيـه الخياطة التـي تتعامل معها. نصعد إلى الطابـق الرابع. تفتح باب الشـقة بالمفتاح، وندخل. أرى غرفـة مرتبة. لا تبدو كغرفة تعيش فيها خيَّاطة.

بحكـم العـادة أتصفـح الكتـب الموجـودة علـى الطاولة

السوداء. أرى رسالة باسم مألوف لديَّ. إنه اسم عشيق (ك).

تضحك وتقول:

- نعـم... نحـن في غرفتـه ولكـن لاتقلـق. سـيقضي يومين في كرنشتات.

- (ك)! ما يقلقني هو شـيء آخر. هل ذلك يعني أنك كنتِ معه في ذلك الوقت؟

- متى؟

- عندما انتظرتك عند المدخل عشرين دقيقة.

تبتسم، وتنهي حديثي بقبلة وتقول:

- أنت المذنب!

الثالث والعشرين من سبتمبر[1]

تطـل نافـذة غرفتي علـى زاوية مويكا وشـارع نيفسـكي. أطل من النافذة، وأرى مشـهدًا خلابًا. لقد تضخم النهر واكتسى بالأسود. نصف متر آخر وستتجاوز المياه ضفافها.

أخرج إلى الشـارع راكضًا. ريح... ريح غير مسـبوقة تهب من ناحية البحر.

أسـير في شارع نيفسكي. أشـعر بالاضطراب والانفعال. أصـل إلى فانتانكا[2]. المياه هناك قد وصلت تقريبًا إلى مسـتوى

---

(١) حدث هذا الفيضان الموصوف في هذا المقطع في عام ١٩٢٤.
(٢) فرع آخر من النيفا.

الرصيف، وتصل المياه هنا وهناك إلى الرصيف. أقفز إلى عربة الترام وأذهب إلى نواحي بتروجراد. أسرتي تعيش هناك، زوجتي وابني الصغير. يعيشون لدى أقاربهم. لقد انتقلت إلى بيت الفنون حتى لا تحول صرخات الطفل بيني وبين عملي.

الآن أسرع إليهما. إنهما يقطنان الطابق الأول بشارع بوشكارسكايا. ربما سيتوجب عليهما أن ينتقلا إلى الطابق الثاني. يمضي الترام عبر حي ألكسندروفسكي. نسير وسط المياه. نتوقف. يستحيل أن يتحرك الترام مجددًا، فقد طفت ألواح من الخشب فوق المياه وعاقت حركة الترام.

يقفز الركاب في قلب المياه، وتصل المياه حتى مستوى الركب تقريبًا. أمضي وسط المياه حتى أصل إلى حي بولشوي. لم تصل إليه المياه.

أركض حتى شارع بوشكارسكايا. لم تصل إليه المياه. يشعر أقاربي بالانفعال والاضطراب. إنهم سعداء للغاية بوصولي إليهم.

أبدِّل ثيابي وأمضي مجددًا إلى الشارع. أريد أن أعرف ما إن كانت المياه قد وصلت إلى هنا أم لا.

أمضي صوب حي بولشوي. أشتري الخبز. أمضي صوب شارع ففيدينسكايا. المكان جاف.

فجأة أرى مشهدًا مذهلا: المياه تنهمر من كافة الفتحات وتغمر الرصيف بقوة. أشق طريقي مجددًا إلى منزلي عبر المياه.

تغطي المياه بالفعل درجات السلم. نصعد إلى الطابق الثاني ونأخذ معنا أغراضنا.

أضع علامات بالطباشير على درجات السلم حتى أراقب حجم ارتفاع المياه. في الساعة الخامسة بعد الظهر تصل المياه بالفعل إلى الأبواب. يسود الظلام... أطل من النافذة منصتًا إلى عواء الريح.

الآن تغطي المياه المدينة بأكملها تقريبًا. لقد وصلت المياه إلى ارتفاع ٢ ساجن[١] تقريبًا.

يلوح للأبصار وهج بعض الحرائق وسط هذه السماء المظلمة.

تشرق الشمس، وأرى من النافذة كيف تنحسر المياه تدريجيًا. أخرج إلى الشارع. المشهد مريع. سفينة خشبية وحطب وجذوع أشجار. قوارب ومركب ملقى على أحد الجوانب مع صاريه. حطام وفوضى ودمار في كل مكان...!

تأخر القطار

وصلتني آليا متقطعة الأنفاس. قالت:

- لم يسمح لي بالانصراف إلا بصعوبة. قلت لزوجي: حسنًا.. تفهم يا نيكولاي الأمر. كان عليَّ أن أصحب أفضل صديقاتي.

---

(١) مقياس روسي قديم يساوي تقريبًا ٧ قدم، أي أن المياه وصلت إلى ارتفاع ١٤ قدم.

سوف تسافر إلى موسكو، ولا تعلم متى ستعود تحديدًا.

- متى سوف يغادر قطار صديقتك؟

ضحكت وصفقت بيدها قائلة:

- لقد صدقت الأمر! لا أحد سيرحل. لقد اختلقت ذلك حتى أتمكن من الإتيان إليك.

- قطار موسكو يغادر في العاشرة والنصف. هذا يعني أنكِ يجب أن تكوني في المنزل في حوالي الحادية عشرة.

كانت الساعة قد بلغت بالفعل الثانية عشرة عندما نظرت إلى ساعتها. صاحت وهرعت إلى الهاتف دون أن ترتدي حتى حذاءها.

رفعت السماعة وجلست على المقعد. كانت ترتعش من فرط البرودة والاضطراب. ألقيت إليها بمعطف، فغطت به قدميها.

بدت فاتنة الجمال، كما لو أنها شخصية في لوحة لرينوار.

سألتها:

- ما الهدف من الاتصال؟ الأفضل أن ترتدي ثيابك وتمضي سريعًا.

لوَّحت بيدها تجاهي في انزعاج وقالت في الهاتف:

- نيكولاشا[1]... لقد تأخر القطار. سوف أصل البيت في غضون عشرة دقائق.

---

(١) تدليل لنيقولاي.

أنا لا أعرف ماذا قال لها زوجها لكنها أجابته قائلة:

- كلامي واضح! أتحدث بالروسية لا بلغة غريبة. لقد تأخر القطار، وسوف أصل البيت حالا.

لا بد أن زوجها قد قال إن الساعة قد بلغت الآن الثانية عشرة.

قالت:

- حقًا؟ لا أعرف كيف هو الوقت على ساعتك، ولكن هنا في المحطة الـ....

ورفعت رأسها إلى أعلى ونظرت إلى السقف. ثم كررت:

- أقول لك إن الساعة هنا في المحطة تبلغ الحادية عشرة بالضبط، بل إنها حتى الحادية عشرة إلا دقيقتين. ساعتك مثل ساعة الأسقف[1].

وأغلقت السماعة وضحكت. كانت من الممكن أن تصبح هذه الدمية الصغيرة المليئة بنشارة الخشب أكثر الضيوف الذين أرغب في استقبالهم، لكني شعرت وقتها بالغضب منها. قلت لها:

- لماذا تكذبين بهذه الطريقة الفاحشة؟ بإمكانه بالطبع أن يعرف الساعة، وسيدرك كذبك.

قالت وهي تطلي شفتيها:

---

(١) الأسقف هو رئيس كنائس منطقة معينة، وقد اعتاد الروس على تأخر الأسقف عن مواعيد الصلاة حتى صارت دعابة كناية عن التأخير.

- لكنه يصدق أني في المحطة.

ثم أضافت:

- وفِّر محاضراتك لنفسك. لا أريد أن أستمع إليها أنا أعرف تمامًا كيف أسلك. إنه يركض بمسدسه متوعدًا بقتلي أنا وأصدقائي... بالمناسبة... إنه لا يراعي أنك كاتب... أنا على ثقة أنه سوف يطلق عليك النار بشكل رائع. تمتمت بشيء ما مجيبًا إياها.

بعد انتهائها من ارتداء ثيابها قالت:

- هل غضبت مني؟ ربما عليّ ألا آتي إليك مجددًا.

غادرت المكان وهي تومئ برأسها بغرور. قامت بذلك بشكل رائع مقارنة بعمرها الذي لم يتخط التاسعة عشرة.

يا إلهي! كم بكيت حينها! لكنني الآن راضٍ، فعلى الرغم مما حدث فقد عاودت الإتيان إليَّ بعد مرور شهر.

على الطاولة

موسكو. جالس على الطاولة في أحد النوادي المسرحية. جالس على طاولة لفردين. إنه عشاء مع ماياكوفسكي. لقد طلب العشاء ومضى ليلعب البلياردو. سيعود حالا.

أنا لا أعرف ماياكوفسكي معرفة جيدة. التقينا فقط في بعض الأمسيات وفي المسرح وعند بعض المعارف. ها هو يقترب من الطاولة. يتنفس بصعوبة. يبدو وجهه حزينًا. يمسح

جبهته بمنديل. لقد ربح في اللعب، لكن هذا لم يبعث السرور في قلبه. إنه جالس على الطاولة منقبض القلب وحزين.

كلانا صامت، لا نتحدث تقريبًا. أصب له الجعة. يرتشف رشفة واحدة ثم يترك الكأس.

أشعر أنا أيضًا بالكآبة. ولا أود أن أفتعل حوارًا مصطنعًا. لكن ماياكوفسكي بالنسبة لي أستاذ في الأدب. أنا لا أزال مبتدئًا تقريبًا في الأدب، أعمل في المجال منذ خمسة أعوام فقط. أشعر بالخزي نوعًا ما من صمتي. لذلك أتمتم بشيء ما عن البلياردو وعن الأدب.

لسبب ما لا أشعر بالراحة على الإطلاق في حضوره.

أتحدث حديثًا أخرق بليدًا، ثم أصمت فجأة دون أن أكمل.

أرى ماياكوفسكي يبتسم على نحو مفاجئ. يقول لي:

- لا... اسمع. هذا ببساطة يروق لي. لقد ظننت أنك ستحاول أن تبدو ذكيًا، وستحاول اصطناع المرح والهزل، لكن... لكن ما فعلته كان ببساطة رائعًا... ببساطة مدهشًا!

- ولماذا يتوجب عليَّ أن أبدو ذكيًا؟

- لأنك تكتب كتابة ساخرة، فيفترض أن تبدو.... لكنك بدوت....

ينظر إليَّ نظرات ثقيلة بعض الشيء. لديه عينان حزينتان بشكل غريب. يا لها من كآبة تضطرم فيهما!

يسألني:

- ولماذا تبدو كذلك؟
- لا أعرف. أنا نفسي أبحث عن السبب.

يسألني بحذر:

- حقًا؟ أتبحث فعلا عن السبب؟ هل هو المرض؟

ثم نبدأ في التحدث عن الأمراض. يحصي مياكوفسكي الأمراض التي يعاني منها. لديه مشكلة ما في الرئتين، وكذلك في المعدة والكبد. لا يستطيع الشرب، ويريد أيضًا أن يتوقف عن التدخين.

ألاحظ شيئًا آخر فيما يخص مرض ماياكوفسكي. لديه وسواس بالمرض أكثر مني أنا شخصيًا. يمسح مثلا شوكته بالفوطة مرتين، ثم يمسحها الخبز، وفي النهاية يقوم بالأمر نفسه بمنديله الخاص. يمسح أيضًا حافة كأسه بمنديله.

يقترب أحد الممثلين المعروفين من طاولتنا، فينقطع حوارنا. يقول ماياكوفسكي لي:

- سوف أتصل بك في لينينجراد.

أعطيه رقم هاتفي.

قراءة أدبية

أوافق على المشاركة في عدة أمسيات قراءة أدبية. كان يومًا بائسًا. المرة الأولى كانت في خاركوف، وبعدها في روستوف. ارتبكت فقد وجدت المشاركين ينهالون عليَّ بعاصفة من

التصفيـق، في حيـن أني بالـكاد كان يمكننـي أن أنـال مثـل هـذا التصفيق. هذا يعني أني لم أقدم شيئًا حقيقيًا لهذا الجمهور، وأني خدعته بطريقة ما، ولكن بمَ خدعته؟

هـذا حقيقي. أنا لا أقرأ بطريقـة أدائية جيدة، بل بنبرة ثابتة، وأحيانًا بفتور. ولكن هل يمكن أن يحضر الناس أمسـياتي مثلما يحضـرون أمسـية لأحـد الكوميديانـات؟ في حقيقـة الأمر ربما يقولون في أنفسـهم: «إذا كان الممثلون قادرين على القراءة بهذا الشكل المضحك، فلا بد أن أداء المؤلف سيكون أفضل».

كل أمسـية تتحـول بالنسـبة لي لنـوع من العـذاب. أعتلي المنصة بصعوبة بالغة. أقول في نفسـي إني أخدع الجمهور ثانية، وإني أفسد مزاجي أكثر فأكثر. أفتح الكتاب وأقرأ قصة ما.

يصرخ أحدهم من أعلى:

- هيـا اقرأ لنا قصة «الحمَّام العام» - «الأرسـتقراطية». هراء ما تقرأه الآن.

أقول في نفسي:

- يـا إلهـي! لماذا وافقـت على المشـاركة في أمسـيات القراءة هذه؟

أنظر بكآبة إلى الساعة.

تنهـال أوراق الملاحظات على المنصة. إنها فرصة للراحة بالنسبة لي. أغلق الكتاب.

أفض الورقة الأولى، وأقرأها على الحضور:

- إذا كنت مؤلف هذه القصص فلماذا تقرأها؟

أشعر بغضب سافر. أصرخ مجيبًا على السؤال:

- وإذا كنت قد قرأت هذه القصص، فلماذا تستمع إليها؟

ينفجر الجمهور ضحكًا، ويتعالى التصفيق.

أقرأ الورقة الثانية:

- بدلا من أن تقرأ لنا ما نعرفه بالفعل قُص علينا بطريقة كوميدية كيف وصلت إلى هنا.

أصرخ بصوت مسعور:

- ركبت القطار، وبكى الأقرباء، وتوسلوا إلـيَّ كي لا أرحل. قالوا لي: سوف يعذبونك هناك بأسئلتهم الحمقاء.

عاصفة أخرى من الضحك والتصفيق! آه... إن كنت قد سرت على يدي فوق المنصة أو على دراجة بعجلة واحدة، لمضت الأمسية على ما يرام.

يهمس لي منظم أمسياتي الأدبية من خلف الكواليس:

- احكِ لهم شيئًا عن نفسك. الجمهور يحب ذلك.

أبدأ بإذعان أقص لهم عن حياتي.

تتطاير الأوراق ثانية على المنصة.

«هل أنت متزوج؟ - كم لديك من أطفال؟ - هل أنت على علاقة وثيقة بيسينين؟»

الساعة الآن العاشرة وخمس وأربعون دقيقة. يمكنني إنهاء الأمسية.

أنهض بحزن، وأغادر المنصة وسط تصفيق حاد. ما يواسيني هو أن هؤلاء ليسوا قرائي... ما يواسيني أن هؤلاء مجرد متفرجين كانوا ليشاركوا بالحماسة ذاتها في أي عرض لأي مهرج أو كوميديان.

لا ألتزم بالاتفاق حتى نهايته، وأغادر إلى لينينجراد.

الوحوش

أتجول عبر ممرات حديقة الحيوان بلينينجراد.

داخل القفص نمر ضخم رائع، وبجواره كلبة سلوقية بيضاء صغيرة. أرضعت الكلبة النمر سابقًا، لذلك تعيش معه الآن في نفس القفص بدافع من إحساسها بالأمومة.

ينظر النمر إلى الكلبة بود.

مشهد بديع، فجأة أسمع من خلفي صرخة مريعة. الناس جميعًا يركضون صوب القفص الذي يحوي الدببة البنية.

نرى مشهدًا مرعبًا هناك، بجانب قفص الدببة البنية ثمة قفص يحوي دببة صغيرة. بالإضافة إلى القضبان الحديدية هناك أيضًا ألواح خشبية تفصل بين القفصين. يصعد أحد الدببة الصغيرة فوق هذه الألواح لكن أحد أقدامه تنحشر داخل أحد الصدوع. نهض دب بني وأمسك هذه القدم وأخذ يمزقها بضراوة. أخذ الدب الصغير يصرخ ويحاول الخلاص، وفي أثناء ذلك انحشرت قدمه الأخرى داخل صدع آخر. الآن يمسك دب

بني آخر بهذه القدم.

الاثنان منهمكان في تمزيق القدمين حتى إن أحد الحضور يفقد الوعي من هول المنظر. نحاول إبعاد الدبين برميهما بالرمل والحجر، لكنهما يزدادان وحشية. تتمزق فعلا أحد القدمين بمخالبها وتتمرغ على أرض القفص. أتناول عصا طويلة وأضرب بها أحد الدبين. يأتينا الحراس والموظفون ركضًا إثر سماعهم للصراخ المريع والزئير المرعب للدببة. يخلصون الدب الصغير من بين ألواح الخشب. تذرع الدببة البنية قفصها بغضب شديد. أعينها دامية للغاية، والدماء تغطي فكاكها. تتعالى قهقهة أحد ذكور الدببة ويعتلي إحدى إناث الدببة.

أما الدب الصغير المسكين فيحملونه إلى المكتب. تمزقت أحد كفوفه الأمامية.

إنه لا يصرخ الآن. من المحتمل أنهم سوف يطلقون عليه النار. حينها أبدأ في فهم حقيقة الوحوش، والفارق بينها وبين البشر.

أعداء

يوم الأحد. أمضي في الشارع. أحدهم يصيح: «ميشا![1]»

أرى امرأة ترتدي ثيابًا بسيطة، تمسك بحقيبة مليئة بالمؤن.

تكرر ثانية: «ميشا!» وتنهمر الدموع من عينيها.

---

(١) تدليل ميخائيل.

أرى أمامي الآن كاتيا شقيقة ناديا. تتمتم:

- يا إلهي! إنه أنت... إنه أنت!

ينبض قلبي بقوة شديدة. أسألها:

- ألم ترحلوا عن هنا؟ أين ناديا؟ وأين أسرتك؟

- ناديا وماروسيا في باريس. تعال معي إلى المنزل وسأحكي لك كل شيء، ولكن لا تتعجب، فأنا أعيش حياة متواضعة. زوجي إنسان لطيف جدًا. يكن لي كل احترام وشفقة. إنه عامل بسيط.

ندخل غرفة صغيرة.

ينهض أحدهم من خلف الطاولة. يبدو أنه يقارب الأربعين من العمر. نُحيِّي بعضنا، وسرعان ما يرتدي معطفه ويغادر المكان.

تقول كاتيا:

- كما ترى: إنه لطيف ومهذب جدًا. سرعان ما فهم أننا نريد أن نتحدث سويًا.

نجلس على الأريكة، ويغمرنا انفعال هائل. تبدأ كاتيا في البكاء. تبكي بشدة حتى إن أحدهم يفتح الباب ويسأل: ما الأمر؟

تصيح كاتيا بحدة:

- لا شيء.

يهتز جسدها ثانية من فرط البكاء. ربما تبكي بسبب ما حدث في الماضي. ربما رؤيتها لي جعلتها ترى الماضي؛ شبابها

وأعـوام طفولتهـا. أحـاول مواسـاتها. تذهب صـوب الحوض وتغسل وجهها وتجفف دموعها وهي تلهث بشدة.

بعدهـا تقص عليَّ ما حدث. في عـام ١٩١٧ رحلوا صوب الجنوب كي يشـقوا طريقهم صوب القوقـاز ومن هناك يمكنهم أن يعـبروا الحدود. لكـن أباها أصيب بالتيفوس في روسـتوف. كان الانتظار مسـتحيلا. تبقت لهم أيام قليلـة للغاية[١]. اقترعت الشـقيقات فيمـا بينهن كي تبقى واحدة منهن مـع الوالد. وقعت القرعـة علـى كاتيـا. عندما مـات الأب عانـت الفقـر المدقع. عملـت خادمة، ثم مدبرة منزل. اسـتطاعت بعدها أن ترحل إلى لينينجـراد، لكن الأمور هناك لم تكن أفضـل، فلم يكن لديها لا شقة ولا أصدقاء.

أسألها:

- لماذا لم تتوجهي إليَّ؟ لابد وأنك سمعتِ عني.
- نعم، ولكني لم أظن أبدًا أنك أنت هو ذلك الكاتب الشهير.

أخذت تقص لي عن شـقيقتيها. الكبرى تراسلها، أما ناديا فلا... تشعر ناديا بالكراهية لكل ما تبقى بروسيا.

أسألها:

- وإن كتبت لها؟

---

(١) المقصود أن المدينة ستبقى في يد قوات الحرس الأبيض لأيام قليلة، وسيسـتولى عليها البلاشفة سريعًا، وحين يحدث ذلك سيكون عبور الحدود مستحيلا.

تقول كاتيا:

- لا بد وأنك تذكر كوليا (م) وكيف كان يحبها. لقد أرسل لها خطابًا. أرسلت له بطاقة بريدية مكتوب عليها ثلاث كلمات فقط: «الآن نحن أعداء».

انصرفت من منزل كاتيا، ووعدتها أن أزورها مجددًا.

هذا أمر فظيع!

وصلت آليا. يبدو وجهها شاحبًا والكآبة تلوح في عينيها. تفك وشاحها المبرقش من حول عنقها. تحني رأسها قليلا.

أرى على عنقها آثارًا زرقاء لخمس أصابع. ربما حاول أحد أن يخنقها. أصيح:

- آليا... ماذا حدث؟

تقول باضطراب:

- لقد عرف نيكولاي كل شيء. أراد أن يخنقني، لكني صرخت حتى ينقذني الناس.

انخرطت في البكاء، وقالت وهي تبكي:

- آه... لماذا أتيت إليك؟ ها قد انتهت حياتي الهادئة. لن أعود إليه. سوف أذهب إلى ماما، وسوف أزورك من حين للآخر.

أضع كمادة دافئة على عنقها، وآخذ السيارة وأُوصِّلها إلى والدتها.

كنت مضطربًا بشكل لا يوصف. لا أذكر فيما فكرت

تحديـدًا، لكني ذهبت في هذا المسـاء إلى زوجها. الأمر الغريب أنه استقبلني بهدوء.

قلت له:

- لـم أكن أنتظـر منك هذه الوحشـية. كان بإمكانك أن تنفصل عنها، ولكن أن تخنق هذه الفتاة الصغيرة فهذا أمر فظيع!

ظننت أنه سـوف يصرخ فيَّ، أو حتى سـوف يطردني، لكنه لم يتحرك من مكانه. ظل جالسًا على مقعده محنيًا رأسه.

قال بهدوء:

- لقد أوشَكَت على الوصول بي إلى الجنون. راودتني الشكوك حول خيانتها لي، ولكن بالأمس وجدت في حقيبتها الصغيرة هذه الرسالة:

ألقى بالورقة على الطاولة. كانت مرسلة إلى عنوان الممثل (ن) الذي رأيته بصحبتها عدة مرات في الشارع.

لـم تترك الرسـالة أي مجـال للشـك. كانـت حميمية إلى أقصى حد ممكن. شـعرت بالمفاجأة، بل إني صُعِقت، والسبب أني لم أتصور أن زوجها لا يعرف شيئًا عني، وأن الأمر كله يدور حول الممثل.

نظرت بحيرة إلى الزوج، وبادلني هو الآخر نظرات لا تقل حيرة عن نظراتي. ثم سألني:

- ولكن ما دخلك بالأمر؟

- ألم ترها اليوم؟ ألم تكن معك؟ هل سبق وأن كانت معك؟

ثم رأيت الشك يلوح في عينيه فجأة.

غطيت عيني بيدي. أما هو فصاح:

- يا إلهي! هذا يعني أنها... أنكما....

وتملكه فجأة شعور بالسخرية فأخذ يضحك. ثم قال بهدوء تقريبًا:

- هذا يعني أنها خدعتك أنت أيضًا! هذا مدهش!

افترقنا ببرود، وتقريبًا لم نُحيِّي بعضنا بكلمة.

عدت إلى المنزل والعالم يدور من حولي. فوضى من الأفكار تدور داخل رأسي. أردت أن أعرف لماذا جاءتني أنا تحديدًا لتريني هذه الرضوض. شعرت بالعزاء عندما تذكرت أنها أصيبت بهذه الرضوض من الممثل قبل أن تأتيني.

حسنًا

أحاول أن أعمل لكني لا أستطيع. أستلقي على الأريكة، وما إن تمر دقيقة حتى أنهض سريعًا. أعاني من اضطراب عصبي لا يجعلني حتى أهنأ بدقيقة واحدة من الراحة والهدوء.

أجلس ثانية على الطاولة. أجبر نفسي على العمل مع أن هذا قد يكلفني حياتي. أمسك بالقلم وأنخرط في الكتابة لكن الأفكار تعاندني وأشعر بالبلادة، الخيال معدوم، والعبارات ركيكة. شيء ما قد أصاب نفسي. لقد فقدت شيئًا ما. فقدت الوهج الذي بداخلي. توقفت الموسيقى التي كانت تُحفِّز حياتي

وعملي بأكمله.

أجلس على الطاولة ورأسي بين يديَّ.

تراود ذهني بعض أبيات بيرون[1]:

وذبلت موهبتي كورقة الخريف
ولم تعد أجنحة الخيال تحلق
والحقيقة البائسة هي أن تحولت
رومانسيتي إلى فكاهة شريرة

أكسر القلم بغضب وأمزق الورقة، وأخرج إلى الشارع. إنه خريف فاتن. الأوراق صفراء، والسماء زرقاء، عسى أن تُعيد إليَّ نزهة قصيرة توازني.

أمر بالقرب من منزل خشبي، وأرى شيخًا مقعدًا يجلس على درجات المنزل. إنه ينعم بضوء الشمس في هدوء عجيب. عيناه مغلقتان، وأرى ابتسامة هادئة تشع بالبهجة على وجهه المتغضن.

لا يقل عمره عن ثمانين عامًا! ربما كل ما تبقى له من الحياة عام واحد فقط، ورغم ذلك فهو يجلس في هدوء وسعادة. لماذا إذن أرتعش وأضطرب وأقلق وأهرع هنا وهناك وأنا ما زلت شابًا مقارنة به؟ أريد أن أحظى بهذا الهدوء، وأجلس على هذا المقعد بهذه النفس الصافية السعيدة. لماذا لا أحظى بهذه السعادة الصغيرة؟

---

(١) شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي.

يفتح الشيخ عينيه، وينظر إليَّ.

يقول:

- حسنًا!

أكمل سيري ببلادة!

جنون

أحدهم يدخل غرفتي. يجلس على المقعد. يجلس لدقيقة صامتًا، ينصت السمع، ثم ينهض ويغلق الباب بإحكام.

يقترب من الحائط، ويلصق أذنه به وينصت السمع. الآن أبدأ في فهم الأمر؛ إنه مجنون. بعد أن ينصت السمع يجلس ثانية على المقعد، ويغطي وجهه بيديه الاثنتين. أرى ملامح اليأس ترتسم عليه... أسأله:

- ماذا بك؟

يجيبني:

- إنهم يطاردونني. فور أن ركبت الترام سمعت أصواتهم: ها هو! أمسكوا به! أوقفوه!

ويغطي وجهه بيديه الاثنتين مرة أخرى، ثم يقول بهدوء:

- أنت وحدك من يمكنه أن ينقذني.

- كيف؟

- سوف نبدل أسماء عائلاتنا. ستكون أنت: جورشكوف، وأنا: الشاعر زوشينكو. (هكذا قالها: شاعر).

- حسنًا... موافق.

يندفع صوبي ويضغط بامتنان على يدي. أسأله:

- ومن يطاردك؟

- لا أستطيع أن أقول لك.

- لكن عليَّ أن أعرف ذلك طالما سآخذ اسم عائلتك.

يلوي يديه قائلا:

- أنا شخصيًا لا أعرف. أسمع أصواتهم وحسب، وفي الليل أرى أياديهم. أنا أعرف أنهم يريدون الإمساك بي وخنقي.

انتقلت عدوى قشعريرته العصبية إليَّ. أشعر أني لم أعد على ما يرام. رأسي يدور، والرؤية تزداد ضبابًا. إن لم يفارقني الآن فمن المحتمل أن أفقد الوعي. إن تأثيره عليَّ قاتل.

أستجمع قواي وأقول له:

- هيا امض. لديك الآن اسمي. يمكنك أن تهدأ.

تلوح الراحة على وجهه ويرحل.

أستلقي على الفراش وأشعر بنوبة مريعة من الاكتئاب تكتنفني.

في الفندق

توابسي[1]. في غرفة فندق صغيرة. لسبب ما أستلقي على الأرض، ممددًا ذراعيَّ، وأصابع يدي مغموسة في الماء. إنها مياه

---

(١) مدينة على الساحل الشرقي للبحر الأسود لا تبعد كثيرًا عن سوشي.

أمطار. الآن بدأت العاصفة الرعدية. لم أرد أن أنهض حتى أغلق النافذة. سقطت قطرات المطر داخل الغرفة.

أغلق عينيَّ مجددًا، وأظل حتى المساء في حالة الانشداه ذاتها. ربما يتوجب عليَّ أن أنتقل إلى الفراش، فهو أريح، وهناك وسادة، لكنني لا أريد أن أنهض من على الأرض. أمد ذراعي دون أن أنهض من مكاني صوب الحقيبة وأمسك بتفاحة. لم أتناول شيئًا نهائيًا اليوم.

أقضم التفاحة، وأمضغ القطعة كما لو أنها قطعة من القش، ثم ألفظها. طعمها رديء. أظل مستلقيًا حتى الصباح.

في الصباح يطرق أحدهم الباب. الباب مغلق بالمفتاح. لا أفتح. إنها عاملة التنظيف. تريد أن تُرتِّب الحجرة، ولو مرة واحدة خلال هذه الأيام الثلاثة. أقول:

- لست في حاجة إلى شيء. اذهبي.

أنهض في الظهيرة بصعوبة. أجلس إلى الطاولة. أدرك أن الأمر لا يمكنه أن يستمر بهذه الطريقة. سأموت في هذه الغرفة البائسة إن لم أرحل سريعًا من هنا.

أفتح الحقيبة، وأرتب أغراضي محمومًا ثم أستدعي العاملة. أقول لها:

- أنا مريض. أريد أن يرافقني أحد إلى محطة القطار ويشتري لي تذكرة... أسرعي.

تستدعي الإدارة والطبيب. يربت الطبيب على يدي قائلا:

- إنها الأعصاب... الأعصاب فقط... سوف أكتب لك بعض البروميد و....

فأتمتم:

- أنا في حاجة إلى الرحيل سريعًا.

يقول مدير الفندق:

- سوف ترحل اليوم.

خاتمة

انتهت ذكرياتي...

لقد وصلت إلى عام ١٩٢٦، وتحديدًا إلى ذلك الوقت الذي توقفت فيه عن تناول الطعام وكدت أن أموت.

أمامي ثلاث وستون قصة.... ثلاثة وستون حادثة أربكتني في هذه الفترة.

أخذت أتأمل في كل قصة منهم. أملت أن أجد في إحداها سببًا لكآبتي وأحزاني وأمراضي.

لكني لم أجد شيئًا وسط كل هذه القصص...

نعم.... بعضها قطعًا ثقيل الوطأة، لكنها ليست أثقل وطأة مما تعود الناس على مواجهته. الجميع لديهم أم تموت، وكذلك يفارق كل إنسان منزله يومًا ما، ويفترق عن محبوبته، ويحارب على الجبهة...

لا... لم أجد ما أبحث عنه في أي من هذه القصص.

عندما جمعت كل هذه القصص سويًا، أردت أن أرى الصورة العامة، والعامل المشترك بينها الذي من شأنه أن ينبهني بقوة، كما يحدث مع السمكة حينما يخرجونها من المياه ويرمونها في القارب.

نعم... بالطبع أصابت حياتي صدمات عنيفة، وتغيَّر المصير ومات العالم القديم، وولد عالم جديد وبشر مختلفون

وبلد جديد.

لكني لا أرى كارثة محققة في كل ما سبق! رغم كل شيء أنا نفسي أردت أن أرى كل ما هو مشرق فيها قبل أن تطاردني الكآبة في كل هـذه الأحـداث. هـذا يعني أنها ليسـت العامل الحاسـم. إذن لـم أعرف السـبب بعد. الأمـر على النقيض مـن ذلك، فقد سـاعدتني هذه القصص على أن أرى العالـم ثانية، وأيضًا بلدي وشـعبي الذيـن أعمل مـن أجلهما. لا يجب أن تكـون هناك أي كآبة في قلبي على الإطلاق، ولكن الأمر أنها موجودة.

كنت مثبط العزيمة. يبدو أن البحث عن سبب كآبتي لغز لا يمكنني فك أغواره، وأنني لا أستطيع أن أجد حادثة بائسة بعينها جعلتني ذرة غبار في مهب الريح.

أتكون هذه الحادثة قد جرت في عمر مبكر عما تذكرته؟ قد تكون أعـوام الطفولة قد أعدت تلك التربـة المتقلقلة التي أتعثر فيها الآن.

بالطبـع! لمـاذا اسـتبعدت سـنوات الطفولـة؟ إنهـا لحظة التعـرف الأولى بالعالـم، ومحل الانطباعات الأولـى، وبالتالي فإنهـا محل الانطباعات الأعمق على الإنسـان. كيف أمكنني ألا أضع ذلك في الاعتبار؟

لا يتوجـب علـيَّ هنا أيضًا أن أتذكر كل شـيء، يكفي فقط أن أتذكـر أوضـح الذكريـات وأقواهـا، والتي لها علاقـة بحالة اضطرابي النفسي.

أخذت أتذكر بسرعة محمومة حوادث الطفولة، ورأيت أن الاضطراب النفسي الذي حدث في أعوام الطفولة يلقي ضوءًا ناصعًا على ما حدث لي.

مرة ثانية أتذكر ومضات لحظية قد بقيت في ذاكرتي بقوة مبهرة.

بينما أتذكر هذه الحوادث التي جرت إبان الطفولة أدركت أنها تسببت لي في اضطراب أعظم من ذلك الذي خلفته فيَّ أعوام البلوغ والنضج. أدركت أنها تسببت في اضطراب أعظم حتى من الاضطراب الذي تسببت فيه رغبتي في الوصول إلى سبب تعاستي.

٤

عالم مريع

في القصص وحدها يعود الابن الضال
إلى حضن أبيه.

هكذا أخذت أتذكر أوضح المشاهد من أعوام الطفولة.

أمُلْت أن أجد بين هذه المشاهد المرتبطة بحالة اضطرابي النفسي حادثة تعيسة بعينها تكشف لي عن سبب وتفسير لحالة كآبتي المريعة.

من أي عمر يتوجب عليَّ أن أبدأ؟

سيكون أمرًا هزليًا أن أبدأ من العام الأول، أو أن أتذكر ما جرى عندما كنت أبلغ من العمر عامين أو ثلاثة، وحتى أربعة. تخيل أيها القارئ حجم الأحداث الخطيرة التي حدثت في هذا العمر الصغير! أحداث من قبيل: انتزعوا منك خشخيشة الأطفال – سقوط حلمة زجاجة الإرضاع في الوعاء أمامك – خوفك من الديك – ماما تضربك على مؤخرتك.... لا جدوى من تذكر هذه التفاصيل التافهة التي غالبًا ما يقول عنها المرء: لا أتذكر منها شيئًا تقريبًا.

قلت في نفسي: لابد وأن أبدأ من العام الخامس.

حينها أخذت أقلب في ذاكرتي ماذا حدث في حياتي من عمر الخامسة وحتى الخامسة عشرة.

بينما أتأمل هذه القصص، شعرت فجأة بالخوف، بل واجتاحتني رعشة. قلت في نفسي: هذا يعني أني على الطريق الصحيح. هذا يعني أني قريب من الجرح، وأني سأجد هذه الحادثة التعيسة التي أفسدت حياتي.

من الخامسة وحتى الخامسة عشرة ...سريعًا ما سوف أتخلص من الذكرى... الصعبة خارج كهف ذكرياتي الباقية[1].

لن أفعلها مجددًا... طبق على الطاولة يحوي بعض ثمار التين، أمضغ التين باستمتاع. تحوي الثمار بذورًا كثيرة. أشعر بحلاوته بين أسناني. يعطوننا ثمرتين فقط على الغداء. إنها كمية قليلة جدًا بالنسبة لطفل.

أصعد على المقعد. أجذب الطبق صوبي بتصميم، وأتناول من ثمرة أخرى. هكذا هو الأمر... بذور كثيرة. سيكون من الممتع أن يعرف المرء ما إن كانت كل الثمار هكذا أم أنها هذه فقط.

أُقلِّب بين الثمار وأقضم من كل واحدة منها... نعم... يبدو أن جميعها هكذا.

بالطبع هذا ليس أمرًا حسنًا، ولا يجب أن أفعل هذا، لكني أتناول من الثمار كافة. أقضم من كل واحدة منها قطعة صغيرة. تظل كل ثمرة تقريبًا تحت تصرف الكبار.

بعد أن أقضم قطعة من كل ثمرة أهبط من على المقعد،

(١) ريتشارد الثالث - شكسبير - الفصل الرابع - المشهد الرابع.

وأسير حول الطاولة. يصل أبي وأمي... أقول لهما على الفور:

- لم أتناول التين. لقد قضمت فقط قطعة صغيرة من كل ثمرة.

تنظر أمي إلى الطبق وتشيح بذراعيها، أما أبي فيبتسم، لكنه يعبس بوجهه حينما تلتقي نظراتنا. تقول أمي:

- سوف أضربك قليلا حتى تتذكر جيدًا أنك لا يجب أن تفعل ذلك.

وتشدني صوب الفراش، وتحضر حزامًا صغيرًا.

أصيح وسط نحيبي:

- لن أفعلها مجددًا.

لا يجب أن تقف في الشارع

أقف عند مدخل البيت، ليس عند المدخل تحديدًا، ولكن عند حافة درجات الرصيف.

لن أتجاوز الرصيف. هذا مستحيل، فقد تدهسني عربة. فجأة أرى أحدهم يتوجه صوبي فوق دراجة ذات عجلات مزدوجة ويرتدي قبعة. لماذا لا يرن الجرس؟ على سائقي الدراجات أن يرنوا جرس الدراجة عندما يسيرون بدراجاتهم وسط الناس، أتنحى جانبًا، لكن الدراجة تتوجه صوبي مرة أخرى. تمر لحظة أخرى ويسقط الرجل من فوق دراجته، وأسقط أنا الآخر، وتسقط عليَّ الدراجة.

تسيل الدماء من أنفي...! ما إن أرى الدماء حتى أصرخ،

فيحتشد الناس من حولي سريعًا، وحتى صبي الجرائد ذو القدم الواحدة الذي يقف في زاوية شارعنا يهرع نحوي. تقترب مني أمي سريعًا وهي تفسح لها مكانًا بين الناس.

عندما تراني قد سقطت على الأرض، تلطم وجه سائق الدراجة بقوة حتى إن قبعته تسقط. ثم تمسكني بيديها، وتحملني صاعدة بي درجات السلم. تتفحصني جيدًا وهي تصعد بي. كل شيء على ما يرام. كل ما في الأمر بعض الدماء تتساقط من أنفي وبعض الخدوش على قدمي.

تقول أمي:

- للأسف لم أدرك أنه قد أذى قدمك أيضًا. لو كنت قد عرفت ذلك وقتها لكنت قد قطعت رقبته.

أما أبي فيقول لي:

- أنت المذنب. لا يجب أن تقف في الشارع.

أسماك ذهبية

ثمة إناء على حافة النافذة يحوي سمكًا ذهبيًا.

سمكتان صغيرتان تسبحان داخل الإناء.

ألقي لهما قطع خبز ناشف صغيرة لعلهما يتناولان بعض الطعام، لكن السمكتين تعومان بلامبالاة بالقرب منها.

لابد وأن صحتهما ليست على ما يرام حتى إنهما لا تستطيعان تناول الطعام. لا عجب فالسمك يقضي أيامًا كاملة في

الماء. لو أنهما تستلقيان ببساطة على إطار النافذة، حينها يمكن أن تشعرا بالشهية.

أدخل يدي داخل الإناء، وأمسك بالسمكتين وأخرجهما لأضعهما على إطار النافذة. لا... لا تشعران هكذا أيضًا أنهما على ما يرام. يتخبطان بشدة، ويرفضان تناول الطعام أيضًا.

ألقي بالسمكتين في الماء مجددًا، لكن حالتهما في الماء تزداد سوءًا. يحاولان الصعود إلى أعلى بجسديهما. لابد وأنهما يطلبان الخروج من الإناء.

أخرج السمكتين مرة أخرى وأضعهما داخل صندوق السجائر. بعد مرور نصف ساعة أفتح الصندوق، وأجد السمكتين قد تيبستا.

تقول لي ماما بغضب:

- لماذا فعلت ذلك؟
- أردت أن تكونا في حال أفضل.
- لا تتظاهر بأنك أحمق. السمك مفطور على العيش داخل المياه.

أبكي بمرارة من فعلتي. أنا أعرف أن السمك مفطور على الحياة داخل الماء، لكني أردت أن أُخلِّصه من هذا المصير البائس.

في حديقة الحيوان

تمسكني أمي من يدي. نسير في الطريق.

تقول أمي:

- سنرى الوحوش لاحقًا، أما الآن فسنذهب إلى مسابقة الأطفال.

نمضي عبر الساحة، ونجد عددًا كبيرًا من الأطفال.

يعطون لكل طفل شوالًا، وعليه أن يدخله ويربطه على صدره.

الآن قد ربط الأطفال الأشولة، ورصوا الأطفال أمام خط أبيض.

أحدهم يلوح براية ويصرخ:

- اركضوا!

نحاول أن نركض ونحن عالقون داخل هذه الأشولة. يسقط أطفال كثيرون ويصرخون. يُحمل بعضهم من الكتف كي ينهضوا ثم يركضون ثانية.

أكاد أسقط لكني أتدبر أمري وأُعدِّل من وضعي داخل الشوال. أصل أولا إلى الطاولة. تعلو الموسيقى، ويصفق الجميع. يمنحونني عبوة من أقراص الحلوى، وعلمًا صغيرًا وكتابًا مصورًا.

أقترب من أمي حاملا الهدايا، وأسندها على صدري.

تعيد أمي ترتيب هندامي فوق إحدى الدكك. تُصفف لي شعري وتمسح وجهي المتسخ بمنديل. بعد ذلك نمضي سويًا لنرى القرود، هل تأكل القرود أقراص الحلوى؟ لابد أن أعطيها، أريد أن أمنح القرود أقراص الحلوى، لكنني لا أجد العبوة فجأة بين يديَّ.

تقول لي ماما:

- لابد أننا نسيناها على الدكة.

أركض صوب الدكة، لكنني لا أجد العبوة هنا.

أبكي بشدة حتى أني ألفت نظر القرود.

تقول ماما:

- لابد أن أحدًا سرق عبوتك. لا عليك. سوف أشتري لك واحدة أخرى.

- لكنني أريد هذه العبوة!

هكذا أصرخ عاليًا حتى أن النمر يرتعد، والفيل يرفع خرطومه.

على الشاطئ

في المنزل الريفي. نلعب على الشاطئ.

فجأة تصرخ شقيقتي الكبرى ليليا:

- يوليا تغرق!

أنظر حولي، فلا أجد أثرًا لشقيقتي الصغرى يوليا.

تصرخ ليليا:

- ها هي! قبعتها تطفو فوق المياه.

فعلا تطفو قبعتها الكتانية فوق مياه النهر.

أركض بكل قوتي صوب المنزل الصيفي صائحًا:

- ماما، لقد غرقت يوليا.

تركض ماما صوب النهر بسرعة شديدة حتى أني بالكاد أستطيع اللحاق بها.

ما إن ترى قبعة يوليا تطفو فوق مياه النهر حتى تفقد الوعي.

في هذه اللحظة تصيح ليليا:

- لا، يوليا لم تغرق. إنها على متن القارب. لقد أرادت أن تلحق بقبعتها.

نرى فعلا يوليا فوق القارب تتدحرج بمرح وتُسيِّر القارب صوب القبعة، لكن التيار سريع والقبعة بعيدة.

أقول:

- ماما، عودي إلى رشدك. يوليا لم تغرق.

وعندما تراها فوق القارب تصيح:

- يوليا! عودي إلى هنا. التيار يجرفك صوب منتصف النهر.

تقول ليليا:

- إنها تتمنى لو كان بإمكانها أن تعودِ لكنها لا يمكنها ذلك. لا يمكنها أن تُجدِّف، لقد جرفها التيار!

ونرى أن يوليا قد انجرفت بعيدًا عن الشاطئ.

نسمع صوتها تصيح بخوف:

- النجدة!

وما إن تسمع ماما صرختها حتى تفقد الوعي مجددًا.

وهنا نجد رجلا على مركبته يسبح صوبها.

أقول لماما:

- لا تخافي يا ماما. سينقذون يوليا حالا. لقد ربط الرجل قارب يوليا بقاربه.

وسرعان ما تعود يوليا إلى الشاطئ.

تبكي أمي وتقبلها وتحملها إلى المنزل.

الأبقار تسير

أُصوِّب المقلاع على أحد الطيور. يطير مبتعدًا، ويحط على شجرة بعيدة نسبيًا عن المنزل. ليس مسموحًا لي بمغادرة الحديقة، لكن الموقف الآن استثنائي. من المسموح لي إذن بمغادرتها.

أركض خلف الطائر على الطريق.

أسمع فجأة من خلفي صوت خوار.

ألتفت. يا إلهي! من خلفي يسير قطيع من البقر.

لم يعد من الممكن أن أتراجع. لن أستطيع الوصول إلى البيت.

الأبقار قريبة للغاية. أتلفت من حولي ثم أتسلق إحدى الأشجار.

الأبقار الآن تحت الشجرة.

من المثير للاهتمام ملاحظة أنها لا تبتعد.

لقد توقفت بالقرب من الشجرة كما لو أنها متعمدة، لتتغذى على بعض الحشائش، وهي تتظاهر كما لو أنها لا تلاحظني.

أنتظر هبوطي من على الشجرة ثم تنطحني؟ لكني لست بهذا الغباء كما تعتقد. لن أهبط من على الشجرة إلا عندما يبتعد القطيع بأكمله.

كل ما أتمناه ألا ينكسر الغصن الذي أجلس عليه، فإذا انكسر ستسوء الأمور حقًا. حينها سوف أسقط بين بقرتين من السرب، وستنطحانني بقرونها.

ها قد ظهر راعي القطيع. يُلوِّح بسوطه.

أعرف الراعي جيدًا. إنه أندريوشكا. يمكنني أن أتفاهم معه. أصيح فيه:

- أندريوشكا... أبعد هذه الأبقار من تحت الشجرة. لقد استقرت هنا وانغمست في تناول طعامها.

يُلوِّح أندريوشكا بسوطه، لكن الأبقار لا تبتعد.

الآن أشعر بالهلع، حتى أني قد صوَّبت المقلاع وأطلقت منه على الأبقار التي بدأت تبتعد.

بعدها نزلت من على الشجرة، ومضيت إلى الحديقة وشعور بالذنب يكتنفني.

العاصفة الرعدية

أمضي إلى الحقل بصحبة شقيقتي ليليا وأجمع الزهور. أجمع الصفراء، بينما تجمع ليليا الزرقاء. أما شقيقتنا الصغرى يوليا فتتبعنا. إنها تجمع الزهور البيضاء. نجمع هذه الألوان عن اتفاق حتى يصير الأمر شيقًا. فجأة تقول ليليا:

- أنظروا أيها السادة... يا لها من سحابة!

نرفع أعيننا نحو السماء. نرى سحابة هائلة تتحرك بهدوء. إنها سحابة سوداء، حتى إن الظلام يغطي كل ما حولنا. تسير ببطء كوحش وتغطي صفحة السماء. تقول ليليا:

- لنسرع إلى البيت. سوف تبدأ الآن عاصفة رعدية رهيبة.

- نركض صوب البيت، لكننا نجد أنفسنا نركض صوب السحابة كما لو أننا نركض صوب فك الوحش.

تهب الرياح فجأة، وتُدوِّم كل ما حولنا. يتصاعد الغبار، ويتطاير العشب الجاف وتلتوي الشجيرات والأشجار. نركض صوب البيت بكل ما لدينا من قوة، تتساقط قطرات ضخمة من المطر على رؤوسنا.

برق مريع، ورعد أشد رعبًا يهزان أجسادنا. أسقط على الأرض، ثم أنهض وأعاود الركض. أركض كما لو أن نمرًا يطاردني من الخلف. ها قد اقترب البيت. أنظر إلى الخلف، فأجد ليليا تمسك بيد يوليا وتجذبها. أصل إلى الرواق الخارجي

بينما تبقت مائة خطوة فقط ليوليا حتى تصل. تؤنبني ليليا بقوة في الـرواق الخارجي؛ لأني فقدت أزهاري الصفـراء، لكن الحقيقة أني لم أفقدها بل ألقيتها.

أقول لها:

- ما حاجتنا إلى الأزهار وسط عاصفة رعدية كهذه؟

نجلس على الفراش وتتلاصق أجسادنا.

عاصفة رعدية مريعة تهز بيتنا.

يتعالى صوت المطر على الأفاريز وعلى سـطح البيت. لا يمكننا رؤية شيء تقريبًا من كثافة المطر.

كلب مسعور

نركض إلى المنزل ونغلق الباب من خلفنا بإحكام. أركض صوب النافذة وأغلق الإطار بالخطَّاف. ننظر من النافذة إلى فناء البيت.

بالخارج تسـير كاتيا ابنة صاحبة المنزل في الفناء. نقرع لها على زجاج النافذة ونصرخ فيها:

- كاتكا[١]... أيتها الحمقاء... اركضي سريعًا للمنزل. اختبئي! هناك كلب مسعور في الشارع.

وبـدلا من أن تركض كاتكا إلـى منزلها اقتربت من نافذتنا، وبدأت تتحدث معنا كما لو أن الأمر ليس خطيرًا.

---

(١) تدليل كاتيا.

- وأين رأيتم هذا الكلب؟ قد لا يكون مسعورًا.

أبدأ في الغضب منها. أصرخ فيها:

- لقد عض شخصين. إذا عضّك فلسنا المذنبين. لقد حذّرناكِ بالفعل.

تسير كاتيا ببطء صوب منزلها. يركض الكلب المسعور في الفناء الخارجي. إنه كلب أسود مخيف. ذيله إلى أسفل وفكه مفتوح يسيل منه اللعاب.

تمسك كاتيا بالمِدَمَّة وتُلوِّح بها. يهرب منها الكلب، فتبتسم كاتيا.

هذا غير معقول! لقد خاف الكلب المسعور من كاتيا! كنت أعتقد أن هذه الكلاب لا تخاف شيئًا، وتعض الجميع. ها هم الناس يركضون بالعصي يريدون أن يقتلوا الكلب، لكن الكلب يهرب منهم. يركض الناس من خلفه ويصيحون ويصرخون. تعود إلينا الطمأنينة ونفتح النافذة، ثم نخرج إلى الحديقة.

بالطبع الوضع خطير في الحديقة، فقد يعود الكلب في أي لحظة. من يدري؟ لكن إن جلسنا في الرواق الخارجي فلا خوف من الأمر. سنتمكن من الهروب في الوقت المناسب. إلا أن الكلب لم يعد. لقد قتلوه في فناء المنزل المجاور.

ناموا الآن

الظـلام يُخيِّم على الغرفة. ثمة مصبـاح صغير فقط مضاء.

تجلس المربية عند فراشنا وتحكي لنا قصة.

تحكي لنا برتابة وهي تتأرجح على مقعدها:

«وضعـت الجنيـة الطيبـة يدهـا أسـفل الوسـادة، وكانت الأفعـى هناك. وضعت يدها أسـفل حشـية الفـراش وكان هناك ثعبانان وأفعى. نظرت الجنية أسفل الفراش فرأت أربعة ثعابين، وثلاثة أفاعٍ سامة وقنفذاً واحداً».

لـم تقل الجنية الطيبة شـيئًا عن ذلـك، ووضعت قدميها في الحـذاء، وفي كل فـردة كانت هنـاك ضفدعتـان. التقطت الجنية معطفها القرنفلي كي ترتديه وتغادر هذه الأماكن. نظرت فإذا في كل كم من أكمام المعطف ستة أفاع سامة وأربع ضفادع.

جمعت الجنية كل هذه الأرواح الشريرة وقالت:

- هـذا ما سـوف أفعله بكـم. لن ألحـق بكم الضرر شـرط ألا تحولوا بيني وبين مغادرة هذه الأماكن.

وهذا ما قالته الأرواح الشريرة للجنية:

- لن نلحق بك شرًا أيتها السيدة الجنية الطيبة. نشكرك أنك لم تقتلينا.

ولكـن حينهـا تعالى الرعـد، وانطلقـت النيران مـن باطن الأرض، وظهرت جنية شريرة أمام الجنية الطيبة وقالت لها:

- أنا التي وضعت لكِ هذه الأرواح الشريرة، لكنك تصادقتِ معها، وهذا ما أثار دهشتي. لذلك سوف أسحرك وأُحوِّلك إلى بقرة عادية.

ثم تعالى الرعد ثانية، وإذ بالجنية الطيبة قد تحولت إلى بقرة عادية.»

تصمت المربية. نرتعش من فرط الخوف. تقول شقيقتي يوليا:

- وماذا حدث لبقية الأرواح الشريرة؟

تجيب المربية:

- لا أعرف. ربما اختبأت في أماكنها فور أن رأين الجنية الشريرة.

أسألها مبتعدًا عن الوسادة:

- أسفل حشية الفراش وأسفل الوسادة؟

تنهض المربية من على مقعدها، وتقول بينما تغادر:

- يكفي هذا. ناموا الآن.

نستلقي على أسرتنا بلا أدنى حركة من فرط الخوف. تطلق ليليا صوتًا مخيفًا: «عووووو»...!

أصيح أنا ويوليا من فرط الخوف، ونتوسل إلى ليليا ألا تخيفنا، لكننا نجدها قد نامت بالفعل. أستلقي طويلا على الفراش دون أن أجرؤ على الاستناد إلى الوسادة. في الصباح لا أتناول اللبن لأنه من الجنية المسحورة.

بهذه البساطة

نجلس داخـل العربة. يعدو جواد ريفي أحمر على الطريق المغبَّر بنشاط.

يقود فاسـيوتكا الجواد، وهو ابن مالك الأراضي. يُمسـك الزمام بلا مبالاة، ومن حين لآخر يصيح في الجواد:

- هيا... هيا... هل غفوت؟

لـم يغف الجواد. إنه يعدو جيدًا، ولكـن ربما كان الصياح ضروريًا.

تلتهب يدي شـوقًا... تود لو تمسـك بالزمام لأقود الجواد وأصيح فيه، لكنني لا أجرؤ على طلب ذلك من فاسيوتكا.

فجأة يقول فاسيوتكا:

- هيا... هيا... أمسك الزمام. أريد أن أدخن.

تقول شقيقتي ليليا له:

- لا.... لا تعطه الزمام. لا يمكنه القيادة.

يقول فاسيوتكا:

- ماذا تعنين بـ «لا يستطيع»؟ الأمر شديد البساطة.

وها هو الزمام في يدي. أمسكه بيديَّ الممدودتين.

تقول ليليا وهي تتشبث بالعربة بقوة:

- سترى.... سوف يقلب العربة قطعًا.

في تلك اللحظـة تقفز العربة فوق إحـدى التلال الصغيرة.

تصيح ليليا:

- من الواضح أن العربة سوف تنقلب.

يـراودني أنا أيضًا الشـك في أن العربة سـوف تنقلب طالما الزام في يديّ غير الماهرتين. ولكن لا... بعد أن تعبر العربة التلة تعود إلى السير بشكل طبيعي.

أصفـق الجـواد بالزمـام علـى جانبيـه شـاعرًا بالفخر من نجاحي صائحًا:

- هيا... هيا... لا تنم.

فجأة يلوح منعطف مام عيني.

أسأل فاسيوتكا بسرعة:

- أسحب أي زمام حتى يعدو الجواد إلى اليمين؟

يقول فاسيوتكا بهدوء:

- الأيمن.

- كم مرة؟

يهز كتفيه قائلا:

- مرة واحدة.

أجـذب الزمـام إلى اليميـن، وفجـأة ينعطف الجـواد إلى اليمين كما يحدث في الحكايات. لكنني لسـبب ما أشـعر بالكدر والانزعاج. بهذه البسـاطة؟! كنت أعتقد أن قيادة الجواد أصعب مـن ذلك. كنـت أعتقد أنهـا علم كامـل يجب أن يدرسـه المرء لأعوام، وهكذا أكتشـف أن كل ذلك محض هراء. أسـلّم الزمام

لفاسيوتكا، الأمر غير ممتع.

عالم مريع

المنزل مشتعل. ألسنة اللهب تجتاز بسرور الجدران صعودًا صوب السطح.

الآن تشتعل ألواح الخشب بالسقف.

يأتي رجال الإطفاء بخراطيم الماء، ويبدأ أحدهم في صب المياه على المنزل، وتتساقط قطرات المياه على النيران. لا... لا يستطيع رجل الإطفاء أن يُخمد الحريق.

تمسكني أمي من يدي. إنها تخشى أن أركض صوب النيران. الأمر خطير، واللُهب تتناثر وتنهال على الحشد الواقف، أحد الواقفين ينخرط في البكاء. إنه شخص سمين ذو لحية. يبكي كما يفعل الصغار، ويُجفِّف دموعه بيديه. أتكون إحدى شرارات اللهب قد أصابت عينه؟

أسأل ماما:

- لماذا يبكي؟ هل أصابه اللهيب؟

تقول لي أمي:

- لا.. إنه يبكي لأن منزله يحترق.

- يمكنه أن يبني لنفسه منزلًا آخر. لو كنت مكانه لما بكيت من أمر كهذا.

- تلزمك النقود حتى تبني منزلا آخر.

- فليعمل إذن من أجل كسب المال.

- حتى إذا عمل لن يكسب ما يكفي.

- كيف تُشيِّد المنازل إذن؟

تجيبني ماما بهدوء:

- لا أعرف. ربما يسرق الناس المال.

إنه أمر جديد يدخل إلى وعيي. أنظر باهتمام إلى الرجل الملتحي الذي سرق المال وشيَّد منزلا، وها هو المنزل يحترق.

أسأل أمي:

- أتعنين أنه يلزم أن نسرق؟

- لا... مستحيل. إنهم يلقون بالسارق في السجن.

الأمر الآن غير مفهوم بالمرة! أسألها:

- وما الحل إذن؟

لكن أمي تُلوِّح بذراعها في حزن حتى أصمت.

أصمتُ...! سوف أكبر وأعرف كيف يجري الأمر في هذا العالم. لابد أن الكبار قد تورطوا بطريقة ما ولا يريدون أن يحكوا للصغار عن ذلك.

أحدهم قد غرق

أصنع قاربًا. القارب عبارة عن لوح خشبي وأنبوب وسارية.مازال يتبقى أن أصنع دفة القيادة والعلم.

تركض ليليا وهي تلوح بقبعتها صائحة:

- مينكا... أسرع! فلنركض... أحدهم قد غرق.

أركض خلف ليليا، وأصيح فيها في أثناء الركض:

- لا أريد أن أركض. أنا خائف.

تقول لي ليليا:

- لكنك لست أنت الغارق، إنه شخص آخر، فلماذا تخاف إذن؟

نركض صوب الضفة. نجد جمعًا من الناس عند رصيف الميناء.

تمر ليليا عبر الحشد وهي توسِّع لنفسها مكانًا. أنسل خلفها.

يقول أحدهم:

- لم يستطع العوم. كان التيار شديدًا. لقد غرق.

ثمة شاب مستلق على الضفة الرملية. يبلغ عمره الثامنة عشر. جسده أبيض كالورقة. عيناه مغلقتان. ذراعاه ممدوان كل إلى جانب، والأغصان الخضراء تغطي جسده.

بجانبة ثمة امرأة جالسة على ركبتيها. تنظر إلى وجهه الميت بثبات. يقول أحدهم:

- إنها أمه. إنها حزينة جدًا حتى إنها لا تستطيع البكاء.

أنظر بارتياب إلى الغارق. أرغب لو ينهض من مكانه فجأة ويقول:

- لقد خدعتكم... لم أغرق! ها أنا سليم معافى.

لكنه يستلقي بلا حركة، وأشعر بالهلع حتى أني أغلق عينيَّ.

أنا لست مذنبًا

نجلس على الطاولة ونتناول بعض الفطائر.

فجأة يمسك أبي بطبقي ويبدأ في تناول فطائري. أصيح باكيًا.

يرتدي أبي نظارة. تلوح على وجهه نظرة جادة، وله لحية. على الرغم من ذلك أراه يبتسم. يقول لي:

- أترون كم هو طمَّاع! لا يريد أن يعطي أباه حتى فطيرة واحدة.

أقول له:

- إن كانت فطيرة واحدة فتفضل كلها. لقد ظننت أنك سوف تأكلها جميعًا.

يجلبون الحساء. أقول له:

- بابا... أتريد تناول حسائي؟

- لا. سوف أنتظر أن يأتوا بالحلو. إن تنازلت لي عن نصيبك من الحلو، فحينها تكون فعلا صبيًا صالحًا.

أفكر في نفسي في أنهم سوف يأتون بجيلي التوت بالحليب، فأقول له:

- حسنًا... يمكنك تناول نصيبي من الحلوى.

فجأة يأتون بالكريمة التي لا يمكنني مقاومتها.

أحرِّك الطبق صوب أبي قائلا:

الحد.
- تفضل كُل إذا كنت طماعًا إلى هذا الحد.
يعبس وجه أبي وينهض من على الطاولة. تقول أمي لي:
- امض إلى أبيك واطلب منه أن يصفح عنك.
أقول لها:
- لن أذهب. أنا لست مذنبًا.
أنهض من على الطاولة دون أن ألمس الحلوى.
في المساء عندما أستلقي على الفراش يقترب مني أبي ممسكًا في يده طبقي من الكريمة. يقول:
- لماذا لم تأكلها؟
- بابا، دعنا نتناولها سويًا. لماذا يجب أن نتشاجر بسبب ذلك؟
يُقبِّلني أبي ويناولني الكريمة بالملعقة.

في الماء

يعوم الصبية في الماء. أسبح على الشاطئ.
يصيحون فيَّ:
- هيا تعال. تشجع وتعال. سوف نعلمك العوم.
أخوض في المياه ببطء. أشعر بالبرودة. يكتنف الخدر جلدي.
يصيح الصبية:
- والآن اغطس سبع مرات أيها الغبي.
أهبط حتى تصل المياه إلى مستوى كتفي، فيصيح الصبية:

- حتى مستوى رأسك أيها الأخرق.

لا... لن أجعل المياه تصل إلى مستوى رأسي. حينها ستدخل المياه إلى عيني وأذني، وهو أمر كريه.

يصيح الصبية:

- تعال هنا. لا تجبن!

ومع أن العمق كبير هناك إلا أني أمضي إلى الأمام. لا أريد أن أكون جبانًا.

أمضي فعلا إلى الأمام وأجد نفسي فجأة قد سقطت في هوة. تغطيني المياه الخضراء وتعلو رأسي. هل غرقت فعلا؟ ولكن لا، أسبح صوب الأعلى، وأتخبط مثل كلب صغير إلا أني أعوم.

مرحى... يبدو أني قد علَّمت نفسي العوم. فجأة يمسك شيء أو شخص ما بقدميَّ. أصرخ وأجد نفسي أغوص إلى العمق.

الآن لا شك أني أغرق فعلا. أغلق عينيَّ! يجذبني الصبية إلى أعلى، ويقول أحدهم:

- لقد جذبته من قدميه. كنت أمزح معه، أما هو فكان مستعدًا للموت.

ويقول آخر:

- لم يكن يتوجب علينا أن نخرجه بهذه السرعة. لو كنا قد تركناه قليلا لاستسلم تمامًا.

أستلقي على الشاطئ وأبصق المياه. يبدو الغضب على الصبية من حولي، فهم منزعجون أن الأمر اقتصر على أن أبتلع كمية قليلة من الماء.

أغلقوا الأبواب

المساء. نشرب اللبن ونستلقي لننام. أقترب من النافذة، الظلام يلوح من خلفها. الظلام دامس حتى إن حوض الزهور لا يظهر منه شيء، أمعن النظر من النافذة.

شقيقتاي تمرحان في الغرفة. تضحكان وترميان بعضهما بالوسائد. تطير إحدى الوسائد صوبي. ألقي بها بغضب جانبًا. الوقت غير مناسب إطلاقًا لمثل هذا المزاح.

تود ليليا لو تضايقني فتقول لي:

- اعلم جيدًا أن لصوصًا سوف يأتون اليوم.

حتى وإن افترضنا ذلك، فلابد أنهم لن يستطيعوا الدخول إن أغلقنا الأبواب.

أصيح في الراشدين الجالسين في الشرفة:

- لا تنسوا إغلاق الأبواب.

تظهر ماما عند الباب وتسأل:

- ماذا حدث؟

أقول لها:

- لم يحدث شيء، لكن ليليا تعتقد أن لصوصًا سوف يأتون

الليلة.

تبتسم أمي وتُقبِّلنا ثم تغادر الغرفة.

أستلقي على الفراش وأغطي رأسي بالغطاء.

الهدوء يُخيِّم على المنزل. الجميع نائمون لكني لا أستطيع النوم، الأبواب مغلقة بالطبع. فقد سمعت بنفسي صوت المزلاج وهم يغلقونه، ولكن ماذا عن النوافذ؟ أهي مغلقة؟ أنهض من على فراشي وأقترب من النافذة وأتأكد من إغلاق المزلاج. حسنًا... إنه مغلق. أيمكن أن يكونوا قد نسوا إغلاق النافذة في الغرفة الأخرى؟ أخطو حذرًا إلى الغرفة المجاورة متخبطًا، وأجد مزلاج النافذة. فجأة يسقط شيء ما على الأرض مُصدرًا صوت رنين وتحطم.

أسمع صوت أمي الخائف:

- ماذا؟ من هناك؟ لصوص!

فأصرخ في أمي:

- أين هم؟ أين هم هؤلاء اللصوص؟

يعم الاضطراب المنزل. الجميع يركضون. يضيئون المصباح.

على الأرض ثمة زهرية من الورد محطمة.

تُهدئ أمي من روعي. أستلقي ثانية على الفراش، وأغطي رأسي بالغطاء.

عند جدتي

نحن في ضيافة جدتي. نجلس على الطاولة. يقدمون الغداء.

تجلس جدتي بجوار جدي. جدي سمين وضخم، يشبه الأسد، وجدتي تشبه اللبؤة.

يجلس الأسد واللبؤة إلى الطاولة.

أنظر إلى جدتي دون انقطاع. إنها والدة أمي. لديها شعر شائب، ووجه أسمر جميل مدهش. قالت ماما عنها إنها كانت في شبابها فاتنة الجمال.

يأتون بإناء الحساء.

الأمر لا يروقني، حتى أني ربما لن أذوقه.

وها هم يأتون بالفطائر. حسنًا... ليست سيئة.

يغرف جدي لنا الحساء بنفسه.

أقول لجدي بينما أناوله طبقي:

- أريد قطرة واحدة فقط[1].

يتوقف الجد قبل أن يصب لي الحساء، ثم يصب قطرة واحدة فقط.

أنظر إلى القطرة شاعرًا بالإحراج.

يضحك الجميع.

يقول جدي:

(١) غير مقصود المعنى الحرفي، المقصود أنه يريد القليل فقط لكني آثرت ترجمتها هكذا كي يُفهم مزاح الجد بعد ذلك.

- هو الذي طلب قطرة واحدة فقط، وها قد لبيت طلبه.

لم أكـن أريد الحسـاء، لكني لسـبب ما أشـعر بالإسـاءة. أوشك تقريبًا على البكاء.

تقول جدتي:

- جدك كان يمزح معك. هات طبقك وسأملؤه أنا لك.

لا أعطيها طبقي، ولا ألمس حتى الفطائر.

يقول جدي لأمي:

- إنه طفل سيئ. لا يفهم المزاح.

تقول لي أمي:

- حسنًا... ابتسم لجدك. قُل له شيئًا.

أنظر إلى جدي بغضب، وأقول له بهدوء:

- لن آتي عندك مجددًا.

لم أزر جدتي بعد ذلك إلا عندما مات جدي. لم يكن جدي القريب على أي حال. لا أشعر بالأسف على موته.

ماما تبكي

ماما مستلقية على الأريكة منخرطة في البكاء. أقترب منها فتمـد لـي بطاقة ملونة وعليها صـورة امرأة جميلـة ترتدي لفاعًا طويلا من الفرو وقبعة.

ماما تسألني:

- هل أشبه حقًا هذه المرأة؟

أود أن أواسيها فأقول لها:

- نعم.. تشبهينها بعض الشيء.

رغم أني لا أجد أي شبه بينهما. تقول ماما:

- في هـذه الحالة إذن اذهب إلى أبيك وأرِه هذا المظروف وقُل له: «بابا... انظر كم تشبه هذه المرأة أمي!».

أسألها متجهمًا:

- لماذا؟

- افعل هكذا. لا يمكنني أن أوضِّح لك. ما زلت صغيرًا جدًا.

- لا... أخبريني وإلا لن أذهب.

ماما تقول:

- ولكن كيف أوضح لك هذا؟ سوف ينظر بابا إلى هذه البطاقة ويقول لك: «آه... والدتك جميلة جدًا» وسيعاملني معاملة حسنة.

لا أفهم شيئًا من هذا التفسير؛ بل على العكس؛ يبدو لي أن أبي سوف يرى جليًا عدم التشابه بينهما، وقد يزداد غضبه من ماما. أذهب إلى غرفة عمل أبي دون رغبة على الإطلاق. أبي رسَّام. أمامه حامل اللوحات، وأجده منهمكًا في رسم بورتريه لشقيقتي يوليا.

أقترب من أبي، وأمد له البطاقة وأقول متجهمًا:

- يبدو أن هناك شبهًا بينها وبين ماما، أليس كذلك؟

ينظر بارتياب إلى المظروف ثم يقول:

- لا تزعجني. امض بعيدًا.

حسنًا. لم نخرج بشيء من ذلك. كنت أعرف هذا.

أعود إلى أمي.

- ماذا قال لك؟

- قال لي: « لا تزعجني. امض بعيدًا».

تغطي وجهها بيديها وتنخرط في البكاء.

يتمزق قلبي من فرط شعوري بالشفقة عليها. إني حتى على استعداد لأن أعود إلى أبي بهذه البطاقة الغبية ثانية، لكن أمي لا تسمح لي بذلك.

ماما وجدت التذاكر

ماما تخبط بيدها على الطاولة بغضب. تقول لجدتي:

- هذا يعني أننا بينما كنا في المنزل الصيفي كان هو يمرح. كل هذه التذاكر وجدتها في جيب معطفه الصيفي.

أنا أعرف هذا المعطف الذي تتحدث عنه. إنه مُعلَّق على الشماعة. فاتح اللون تمامًا وقصير.

تضع ماما على الطاولة بعض التذاكر.

يكاد الفضول أن يأكلني. أود لو أعرف ماذا تعني هذه التذاكر تحديدًا.

أقترب من الطاولة وأنظر إلى التذاكر وأقرأ: «مسرح بوف».

تقول جدتي:

- قد يكون قد ذهب إلى مسرح بوف برفقة صديقه. لماذا نحن متيقنون من الاحتمال الآخر؟

ماما تقول:

- لا، إنها تذاكر الصف الأول. أنا أعرف من كان بصحبته. لقد كان في صحبة آنا. كنت أشك منذ مدة طويلة أنها قد تفقد عقلها.

فجأة ينفتح الباب ويدخل بابا.

بابا يرتدي معطفًا خريفيًا أسود وقبعة. يبدو شديد الرشاقة والجمال، وحتى منظر اللحية الشعثاء لا يفسد من هيئته.

يقول مبتسمًا لأمي:

- أريد أن أتحدث معك.

ويمضي كلاهما إلى غرفة المعيشة.

تقترب ليليا من الباب وتتصنت، ثم تقول:

- لا... كل شيء على ما يرام. لن يحدث أي مكروه. يمكنني ضمان ذلك.

أسأل ليليا:

- وماذا حدث؟

- النساء جميعًا يفقدن عقولهن بسبب بابا. هذا ما يزعج أمي للغاية.

سرعان ما يخرجان من غرفة المعيشة.

لا أرى الرضا الكامل مرتسمًا على وجه ماما، ولكن الأمر

على ما يرام.

قبل أن ينصرف يُقبِّل يد ماما، ويمضي ليبيت ليلته في مرسمه. إنه على بعد ثلاثة منازل.

في المرسم

لم يأت أبي إلى المنزل منذ مدة طويلة. ماما تساعدني في ارتداء ثيابي، كي نمضي إلى أبي في المرسم. ماما تمضي مسرعة، وتشدني من يدي حتى أني بالكاد يمكنني ملاحقتها، نصعد إلى الطابق السابع. نطرق الباب فيفتح بابا. ما إن يرانا حتى يعبس وجهه في البداية، لكنه بعد ذلك يأخذني من يدي ويقذف بي إلى أعلى حتى أكاد ألامس السقف. يبتسم بابا ويُقبِّلني.

تبتسم ماما، وتجلس بجانب بابا على الأريكة، ويبدأ بينهما حوار غامض. أمضي في المرسم جيئة وذهابًا. ثمة لوحات على الحاملات، وهناك أيضًا لوحات معلقة على الحوائط. النوافذ ضخمة، والفوضى تعم المكان. أتفحص صناديق وفرش الألوان ومختلف أنواع القوارير.

ألقيت نظرة بالفعل على كل شيء، لكن بابا وماما ما زالا يتحدثان. من الجيد جدًا انهما يتحدثان بهدوء، بدون صيحات ولا شجار. لا أزعجهما، وأمضي لأتفحص ثانية اللوحات والصناديق.

أخيرًا يقول بابا لماما:

- حسنًا أنا سعيد. كل الأمور على ما يرام.

يُقبِّل ماما عند الوداع، وكذلك تُقبِّله ماما، بل إنهما يتعانقان... نرتدي معاطفنا ونمضي... في الطريق تبدأ ماما فجأة في الانهيال بالتقريع عليَّ. تقول:

- آه... لماذا جئت معي؟

أسمع كلماتها هذه بهلع. لست أنا الذي قررت الذهاب معها على الإطلاق. هي التي أخذتني معها إلى المرسم، والآن غير راضية عن ذلك!

ماما تقول:

- آه... كم أشعر بالندم على أني قد أحضرتك معي إلى المرسم. لو لم تكن موجودًا لكنا قد تصالحنا تمامًا.

أبكي بمرارة، ولكني أبكي بمرارة لأني لا أعرف ما ذنبي. حافظت على هدوئي هناك، بل إني حتى لم أركض في المرسم. هذا تصرف ظالم.

- لا، لن آخذك معي ثانية.

أريد أن أسألها عما حدث، لكني لا أقوم بذلك. أصمت. سوف أكبر وحينها سوف أفهم كل شيء. سأفهم لماذا يمكن أن يحمل الناس ذنبًا وهم غير مذنبين تمامًا.

عند البوابة

أقف عند بوابة الحديقة الصغيرة. أنظر بثبات إلى الطريق

الذي يؤدي إلى حوض السفن.

سافرت ماما إلى المدينة، وهي غائبة منذ الصباح. تناولنا بالفعل غداءنا، وسرعان ما يحل المساء. آه... يا إلهي! أين هي؟

أنظر إلى بعيد مجددًا. بعض الناس يلوحون من على بعد، لكنها ليست بينهم. لابد أن شيئًا قد حدث.

ولكن ما الذي يمكن أن يحدث لها؟ إنها ليست طفلا صغيرًا، بل إنسان بالغ. إنها تبلغ من العمر ثلاثين عامًا.

ما الذي يعنيه ذلك؟ كافة أنواع المصائب تصيب البالغين أيضًا، وفي كل خطوة يخطونها يواجهون المخاطر.

ربما تكون ماما قد سافرت في مركبة، وانفصل الجواد عن العربة. الحق أن جياد المركبات هادئة جدًا، بالكاد تتقدم. من الصعب جدًا أن تنفصل عن العربة، وإذا فعلت ذلك فيمكن دائمًا للمرء أن يقفز من العربة.

ولكن إذا كانت ماما قد استقلت الباخرة، فلا يسعها أن تقفز عن الباخرة إذا بدأت تغرق. بالطبع لديهم عوامات النجاة، ويمكن دائمًا للمرء أن يتعلق بإحداها وينجو. لكن عوامات النجاة لا تفيد شيئًا إن اندلع حريق مثلا في شقتنا الصغيرة بالمدينة. لكن منزلنا مصنوع من الحجر، ولا يمكن أن يشتعل كعود ثقاب.

ربما عرجت ماما على أحد المقاهي، وتناولت شيئًا هناك أصابها بالمرض، ويجري لها الطبيب الآن عملية ما.

آه... لا... ها هي ماما قد ظهرت.

أصيح وأركض للقائها. ترتدي قبعة كبيرة. على كتفيها وشاح أبيض من الريش، وحزام يُطوِّق خصرها. لا يروق لي منظر ماما بهذه الثياب. لم أكن لأرتدي مثل هذا الريش ولو منحوني كل كنوز العالم. سوف أكبر وسأطلب من ماما ألا ترتدي ثيابًا على هذه الشاكلة. سأشعر بالإحراج عندما أسير معها وهي كذلك، فالجميع سوف يلتفتون صوبنا.

تسألني ماما:

- يبدو أنك غير مسرور بعودتي، أليس كذلك؟

أجيبها بلا مبالاة:

- لا، بل أنا سعيد.

سوء فهم

يجلس بجانبي على نفس الدكة طالب المرحلة الابتدائية كوستيا باليتسين. يحفر على الدكة حرفًا ما بسكين الجيب. ألاحظ كيف يفعل ذلك بذكاء خفية عن المعلم. أنهمك تمامًا في المراقبة حتى أني لا أسمع اسمي عندما يُنادون عليَّ.

أحدهم يدفعني من جانبي، وحينها أنهض من مكاني وأنظر بارتباك إلى معلم الفصل الذي يدرسنا اللغة الروسية والحساب في صفنا التمهيدي. يبدو أن المُدرِّس أرادني لسبب ما أن أقرأ له قصيدة: «يتألق القمر بمرح فوق القرية». أتلو البيت

الأول بحيوية لأني سمعته للتو من المعلم، لكني لا أذكر الأبيات التالية. ببساطة أنا لا أعرف هذه القصيدة، وهي المرة الأولى التي أسمعها.

يهمسون لي من كل الجوانب بالبيت التالي: «والثلج الأبيض يتلألأ».

أردد متلعثمًا ما يلقنونني إياه، فيبتسم المعلم وهو ينظر إليَّ.

يتنافس الطلبة على تلقيني القصيدة. تتوالى الهمسات من مختلف الاتجاهات، حتى أني لا أعود أتبين ما يهمسون إليَّ به وبدلا من أقول: «والصليب يتوهج كشمعة أسفل السحاب»، أتلعثم قائلا: «والصدع يتعالى أسفل الحذاء»[1]. يتعالى الضحك في الفصل، وحتى المعلم نفسه يضحك، ويضع درجة واحدة[2] في كشكولي.

ليس ذلك حسنًا. أذهب إلى المدرسة كل يوم من أيام الدراسة الخمسة، وفي النهاية أنال درجة واحدة!

أقول لكوستيا باليتسين:

- إن أعطوني درجة واحدة على كل شيء لا أتذكره، فهذا يعني أني سأنال درجة واحدة في كثير من المرات.
- هذه القصيدة في المنهج، لذا كان عليك أن تحفظها.

(١) في الأصل الروسي هناك تشابه في الكلمات بين البيت الصحيح والخاطئ لذلك يخلط الراوي بينهما مع الارتباك.

(٢) تراوح مقياس الدرجات في روسيا بين ١ (أدنى درجة) و ٥ (أعلى درجة).

- أحقًا في المنهج؟ لم أكن أعرف ذلك. في هذه الحالة هناك سوء فهم إذن.

وشعرت بالراحة من أن هناك سوء فهم.

خيبة أمل من جديد

أرتدي المعطف الخاص بطلبة المرحلة الابتدائية ذا الأزرار النحاسية، حاملا الحقيبة على ظهري.

في جيب المعطف ثمة ورقة وضعتها ماما مكتوب عليها عنوان المدرسة.

أقول لها:

- ماما... لا تقلقي. أنا أعرف الطريق جيدًا، ويمكنني أن أصل إلى هناك بعينين مغمضتين.

- أرجوك فقط ألا تفكر في السير بعينين مغمضتين. كفاك.

أخرج إلى الشارع.

لا... بالطبع لن أسير بعينين مغمضتين، فالأمر خطير. الشارع مكتظ بالجياد والعربات، لكن لابد أني سأسير بعينين مغمضتين من عند زاوية شارع بولشوى وحتى المدرسة. المسافة كلها مجرد مائتين وعشر خطوة. إنها مسافة تافهة.

أصل إلى شارع بولشوي، وأغمض عيني وأسير كالأعمى، مصطدمًا بالناس والجدران وأحواض الزهور. في أثناء ذلك أنشغل بحساب عدد الخطوات: مائتان... مائتان وعشر...

أقول بصوت عال: «مائتان وعشر»، وحينها أصطدم بعنف بأحدهم. أفتح عينيَّ، وأتوقف أمام باب المدرسة، أما الرجل الذي اصطدمت به فهو معلم الفصل.

أقول له:

- آه.. معذرة. لم أنتبه.

يقول بغضب:

- عليك أن تنتبه جيدًا. لديك عينان لتستعملهما.
- لقد كانتا مغلقتين.
- ولماذا تغلق عينيك أيها الصبي الأحمق؟

أصمت. أولا هذه مسألة يطول شرحها، وثانيًا لن يفهم الأمر على الأرجح.

- أجب!
- هكذا... بسبب الرياح.

ينظر إليَّ بتجهم ويقول بغضب:

- حسنًا... لماذا تقف هكذا مثل جذع الشجرة؟ هيا امض بعيدًا.

أقف على هذه الوضعية لأني مهذب. كنت أريد أن أفسح له هو كي يمضي أولا.

يتقدم كلانا في اللحظة ذاتها إلى البوابة، فاصطدمنا مجددًا.

ينظر إليَّ بغضب أشد هذه المرة.

بود[1] من الصلب

أنـا مشـغول بالمقلمة. أنتقـي الأقلام الرصـاص والحبر. أشعر بالإعجاب بسكين الجيب الصغير.

يستدعيني المعلم. يقول لي:

- أجب بسرعة: أيهما أثقل: بود من الريش أم بود من الصلب؟

لا أكتشف الخدعة، وأجيب سريعًا دون تفكير:

- بود من الصلب.

يتعالى الضحك من حولي.

يقول المعلم:

- قُل لوالدتك أن تعرج عليَّ غدًا. أريد أن أتحدث معها.

في اليـوم التالـي تأتي أمي إلـى المعلم، وتعـود إلى المنزل حزينة. تقول لي:

- المعلـم غيـر راضٍ عنك. يقـول إنك دائمًا شـارد الفكر ولا تسـتمع لشـيء، ولا تفهم شـيئًا وإنك تجلس على دكتك بلا مبالاة كما لو أن ما يحدث في الفصل لا يخصك في شيء.

- وماذا قال أيضًا؟

يلوح الحزن تمامًا على وجه أمي. تضمني إليها وتقول:

- أنـا اعتقدت أنك صبي شـديد الذكاء، لكنه يرى أن مسـتوى ذكائك متدنٍ.

---

(١) وحدة وزن روسية تساوي ما يقرب من ٦٣ رطلاً.

أصرخ بغضب:

- هو الأحمق لا أنا. أعتقد أن مستوى ذكائه منخفض. الإجابة على الأسئلة الغبية أصعب من الإجابة على الذكية.

تبكي بينما تُقبِّلني.

- آه... سوف تواجه المصاعب في هذا العالم!

- لماذا تقولين ذلك؟

- أنت تشبه أباك. لا أعتقد أنك سوف تصير سعيدًا.

ثم تُقبِّلني ثانية وتعانقني، لكني أتملص منها.

أنا لا أحب البكاء والدموع.

قلب مغلق

وصل جدي لأبي من بولتافا. اعتقدت أني سأرى عجوزًا باليًا بشارب طويل، مرتديًا قميصًا أوكرانيًا، وأنه سوف يغني ويرقص ويحكي لنا حكايات. على العكس من توقعاتي وصل رجل قوي ممشوق القوام، لا يبدو عجوزًا، ولم يغط الشيب رأسه تمامًا بعد، بالإضافة إلى أنه بدا جميلا بشكل لا يصدق. وجهه أملس، ويرتدي سترة فراك سوداء، يمسك في يده كتاب صلوات صغير ناعم، ومسبحة عظمية حمراء.

شعرت بالدهشة من أن لدينا جدًّا كهذا. أردت أن أتحدث معه عن أي شيء، لكنه لم يكن يتحدث معنا نحن الأطفال. تحدث قليلا مع أبي فقط، وقال لأمي بغضب:

- أنتِ المذنبة يا سيدتي. لقد أنجبتِ أطفالا كثيرين.

حينها بكت أمي وذهبت إلى غرفتها.

شعرت بمزيد من الدهشة من أن لدينا جدًّا غير مسرور من أن أمي أنجبت أطفالا ومنهم أنا.

بالطبع أردت أن أعرف ماذا يفعل جدي في غرفته التي لا يفارقها تقريبًا، ولا يسمح لأحد بالدخول إليها. لا بد أنه يقوم بشيء هام للغاية بداخلها.

أفتح الباب بكل هدوء وأدلف إلى الغرفة.

لا يفعل جدي ذو الجسد الممشوق شيئًا. إنه جالس على مقعده، بلا حركة. ينظر بثبات إلى الحائط ويدخن غليونًا طويلا.

ما إن يراني حتى يسألني:

- ماذا تريد؟ ولماذا دخلت الغرفة دون أن تطرق الباب؟

حينها شعرت بالغضب منه وقلت له:

- إنها شقتنا على أي حال، وليكن في علمك أن هذه غرفتي، وقد نقلوني إليها أنا وإخوتي، فلماذا سأطرق باب غرفتي؟

قذفني جدي بمسبحته وصرخ فيَّ ثم مضى ليشكوني لأبي.

لكن أمي لم تؤنبني بشيء، وقالت:

- آه... سوف يغادر سريعًا. إنه لا يحب أحدًا. إنه مثل أبيك؛ لديه قلب مغلق.

- وهل لديَّ أنا أيضًا قلب مغلق؟

- نعم... أعتقد أن قلبك أنت أيضًا مغلق.

- أهذا يعني أني سوف أصبح مثل جدي؟

تقول أمي وهي تقبلني من وسط دموعها:

- نعم... ربما سوف تصبح كذلك. إنها بلية عظيمة ألا تحب أحدًا.

ممنوع الصياح

فوضى تعم الشوارع. ضربوا الشرطي عند زاوية الشارع، وها هم العساكر يهبون فوق جيادهم. أمر غير عادي يجري الآن. حتى في مدرستنا تبدو الأمور غريبة. يجتمع الطلبة الكبار في مجموعات ويتحدثون سويًا بهدوء، بينما يقفز الصغار مرحًا أكثر من المعتاد.

وقت الراحة. نركض عبر الفناء. يركض طلبة الصف الثاني وهم يصرخون: «تمرد!». أنضم لهم أنا أيضًا وأصرخ معهم ملوحًا بيدي: «تمرد!».

يمسكني أحدهم من يدي. إنه معلم الفصل.

يهزني قويًا من كتفيَّ ويقول:

- ماذا قلت؟ كرِّر!

أتمتم:

- لقد قلت: «تمرد!».

يتجمد وجه المعلم كالحجر، ويقول:

- قف قبالة الحائط أسفل الساعة حتى نهاية الراحة، وقُل

لو الدتك أن تمر عليّ غدًا.

أقف تحت الساعة. إنه أمر جديد. ماذا حدث؟ لماذا صار الصياح ممنوعًا. لقد صاح الجميع، بينما هبط عليَّ فجأة كالحدأة وأمسكني من كتفيَّ.

في اليوم التالي تعود أمي من عند المعلم منزعجة. تمضي إلى بابا ويتحدثان طويلا.

بعدها يستدعيانني إلى غرفتهما. أبي مستلقٍ على فراشه بالسروال والسترة. يبدو متجهمًا حزينًا. يقول لي:

- لا بد أنك لا تعرف ماذا تعني هذه الكلمة. أليس كذلك؟

أجيبه قائلا:

- لا، بل أعرف. إنها مشتقة من كلمة «تمرد» لكنني لم أكن أعرف أنه من الممنوع الصياح بها.

يبتسم بابا ويقول لماما:

- اذهبي للمعلم وقولي له إن ابننا أحمق، ذو مستوى ذكاء متدنٍ، وإنهم سوف يودعونه السجن.

ما إن أسمع كلمة السجن حتى أنخرط في البكاء.

تقول ماما:

- لقد تحدثت سابقًا عن ذلك مع المعلم، لكنني هذه المرة سوف أقول له إنه على حق.

يبتسم بابا ويقول:

- كما ترين، لقد أفادنا هذا الرأي السيئ.

يلتفت بابا صوب الحائط ولا يود أن يتحدث ثانية.

أخرج أنا وماما من الغرفة.

أزمة قلبية

أفتح الباب بهدوء، وأدلف إلى غرفة بابا.

عادة ما يكون بابا على فراشـه، لكني أجده هذه المرة على غير العادة واقفًا عند النافذة.

يبدو فـارع القامـة كئيبًا وهو واقـف عند النافذة، منشـغلا بالتفكير في شـيء ما. يشبه بطرس الأكبر. الفارق الوحيد أن لديه لحية.

أقول بهدوء:

- بابا... سوف آخذ سكينك الصغيرة لسن القلم الرصاص.

يقول لي دون أن يلتفت:

- خذها.

أقترب من مكتبه وأبدأ في سن قلمي الرصاص.

ثمة منضدة صغيرة مسـتديرة عند النافـذة في زاوية الغرفة، وعليهـا إبريـق ملـيء بالماء. يصـب بابا لنفسـه بعـض الماء في الكأس، ويشـرب، وفجأة يتهاوى على الأرض، ويسقط المقعد أيضًـا الذي كان يمسـك به! أصرخ من فرط الهلـع، فتأتيني أمي وشـقيقاتي راكضات. عندما تـرى ماما بابا سـاقطًا على الأرض تركـض نحـوه صارخة. ترفعه مـن كتفيه وتُقبِّـل وجهه. أركض

خارج الغرفة وأستلقي على فراشي.

لقد حدث أمر مريع. لكن ربما ينتهي كل شـيء على خير.

ربما الأمر كله مجرد إغماءة بسيطة.

أمضي إلى غرفة بابا ثانية.

إنه مستلقٍ على الفراش، وماما واقفة عند الباب، وبجانبها يقف الطبيب.

تصيح ماما:

- لابد أنك مخطئ.

فيجيبها الطبيب:

- لا يمكننا أن نخطئ في هذا الأمر. لقد مات يا سيدتي.

- كيف يموت هكذا فجأة؟ مستحيل!

- إنها أزمة قلبية.

هكذا يجيبها الطبيب ويغادر الغرفة.

أستلقي على فراشي وأبكي.

نعم... لقد مات

آه.. كـم هـو أمـر غير محتمـل أن أنظر لمامـا! إنها تبكي طـوال الوقت. ها هي واقفـة عند الطاولة الجاثـم فوقها جثمان بابا. لقـد أحنت وجهها حتى لاصق وجه بابا، وها هي مسـتمرة في البكاء.

أقـف عند باب الغرفة أنظر إلى هذا المشـهد المريع. لا،

لـم يكن يمكننـي أبدًا أن أبكي بهـذه الطريقة. لا بـد أن لديَّ قلبًا مغلقًا.

أريد أن أواسي ماما، وألهيها عن هذا الحزن. أسألها بهدوء:

- ماما... كم يبلغ بابا من العمر؟

تقول لي وهي تجفف دمعها:

- آاه يا ميشنكا[1]، ما زال صغيرًا. لم يتجاوز التاسعة والأربعين.

لا... لا يمكن أن يكون قد مات.

وتمسك بابا من كتفيه ثانية وتتمتم:

- ربما هي إغماءة طويلة... نوم ثقيل.

تحل ماما دبوسًا من ثوبها وترفع يد أبي، وتريد أن تخز اليد بالدبوس.

أصرخ من الهلع. تقول أمي:

- لا تصرخ. أريد أن أتأكد فقط فربما لم يمت.

تخز يد بابا بالدبوس، فأصرخ ثانية. تنتزع أمي الدبوس من راحة يده.

- أترى؟ ما من قطرة دماء واحدة. لقد مات فعلا.

تتهاوي أمي على صدر أبي وتبكي ثانية. أخرج من الغرفة، والحمى تهز جسدي كله.

---

(١) تدليل ميخائيل.

في المقابر

إنها المرة الأولى التي أزور فيها المقابر. لا أشعر بالخوف هناك على الإطلاق. كل ما في الأمر أنها غير لطيفة.

المكان غير لطيف تمامًا حتى أني لا أستطيع أن أقف في الكنيسة إلا بصعوبة. أتمنى أن تنتهي الصلاة على الجثمان سريعًا. أحاول عدم النظر إلى الجثامين الستة المستلقية داخل صناديقها، لكن عينيَّ تنظر إليها بثبات رغمًا عنها.

تبدو الجثامين شاحبة ثابتة كما لو أنها دُمى من الشمع. سيدتان عجوزان ترتديان قبعتين، وبابا، ووالد شخص آخر، وفتاة شابة ميتة، بالإضافة إلى إنسان آخر سمين. يبدو شديد السمنة إلى حد أن الصندوق قد لا ينغلق من فوقه. مع ذلك حتمًا سوف يضغط غطاء الصندوق على بطنه حتى ينغلق. لن يقيموا الطقوس، وعلى أي حال الأمر سيان بالنسبة له فهو ميت لا يشعر بشيء ولا يري شيئًا. لا أعرف هل سأتمكن من الاقتراب من جثمان بابا لأقبّله أم لا. ها هم الجميع يقتربون منه ويُقبّلونه. أحبس أنفاسي وأقترب وألامس يده الميتة بشفتيَّ ملامسة بسيطة، ثم أخرج من الكنيسة راكضًا.

يحمل بعض الفنانين من أصدقاء بابا النعش. يحمل أحدهم الوسام الذي حصل عليه بابا مكافأة على لوحته: «رحيل سوفوروف» على وسادة ناعمة التي تستند رأسه عليها. هذه

اللوحة معلقة في متحف سوفوروف. إنها من الموزاييك. ثمة شكل شجرة صنوبر صغيرة في الزاوية اليسرى للوحة. أنا الذي صنعت الغصن السفلي لهذه الشجرة على اللوحة. بدا الغصن مقوسًا قليلا، لكن بابا كان راضيًا عن عملي.

تتصاعد أصوات جوقة المرنمين، وينزلون الصندوق داخل حفرته. تصرخ ماما. يردمون الحفرة. ينتهي كل شيء. لم يعد هذا القلب الحجري حيًا، لكني ما زلت حيًا.

أيامه معدودة

أصيب خالي بالسُل. حصلوا له على غرفة بضواحي المدينة، وانتقل إلى هناك.

ولكن الطبيب قال لماما:

- حالته سيئة جدًا. أيامه معدودة.

- ذهبت إليه يوم الأحد، وأخذت معي بعض الفطائر والقشدة.

كان خالي جيورجي مستلقيًا على الفراش محاطًا بالوسائد. كان يتنفس بصعوبة ويشخر.

وضعت على المقعد ما أحضرته له، وأردت أن أغادر، لكنه قال لي:

- أنا وحدي تمامًا منذ أيام عديدة. أشعر بوحدة مريعة. دعنا نلعب الورق سويًا لبعض الوقت.

أخرج خالي جيورجي الورق من تحت وسادته، وبدأنا

نلعب لعبة ٦٦. كان حظي في اللعب رائعًا، بينما هو على النقيض من ذلك. خسر دورين أمامي، وطلب مني أن ألعب معه دورًا ثالثًا.

بدأنا دورنا الثالث، لكن حظه بدا أشد تعثرًا، وحينها بدأ يغضب مني. أخذ يصيح ويلقي بالورق. لقد حزن جدًا من خسارته، مع أننا لم نلعب على المال، بل لمجرد التسلية.

شعرت بالدهشة من غضبه هكذا بينما أيامه معدودة وسيموت سريعًا. وزَّع عليَّ الورق. كان الورق كله ممتازًا. عندما رأي خالي ذلك اشتعل غضبًا، وانخرط في السعال، وبدأ أنينه، وصارت حالته سيئة حتى إنه التقط أنبوب الأكسجين ووضعه على فمه. كان يشعر بالاختناق وخشي أن يلقى حتفه مختنقًا. بعد أن شعر بالتحسن واصلنا اللعب. لكني بدأت في التخلص عمدًا من ورقي الممتاز، ولم أستخدمه كما يجب. أردت أن أجعله يربح حتى لا يغضب. بدأت أخسر فعلا، وقد جعل ذلك خالي يبتهج أشد ابتهاج، حتى إنه أخذ يضحك ويلقي النكات، وضربني ضربة خفيفة على جبهتي بورقه قائلا إني لا زلت صغيرًا على اللعب مع الكبار. لم ألعب معه دورًا رابعًا مع أنه أراد ذلك بشدة. فارقته وقد نويت ألا أزوره ثانية. لم أره ثانية، فقد لقي حتفه في يوم الأحد التالي.

موزا[1]

في ضيافة أحدهم. أجلس على الأريكة، وتريني فتاة تُدعى «موزا» كتبها.

تسألني فجأة بينما تريني كتبها:

- أتريد أن تصبح عريسي؟

أجيبها بهدوء:

- نعم. المشكلة فقط أني أقصر منك. لا أعرف هل يمكن أن يكون العريس أقصر طولا؟

نمضي إلى مرآة الحائط حتى نرى فارق الطول.

هي من أترابي. كلانا يبلغ من العمر أحد عشر عامًا وثلاثة أشهر. لكن موزا أطول مني قليلا.

تقول لي:

- هذا غير مهم. بعض العرسان ذوو قامة قصيرة، وبعضهم أيضًا ذوو ظهر محدودب. المهم أن يكون العريس قويًا. دعنا نتعارك. أنا متيقنة أنك أقوى مني.

بدأنا التدافع. موزا أقوى مني. أنسل بعيدًا عنها كالقطة لتجنب الهزيمة. ثم نتدافع ثانية ونسقط على السجادة.

لفترة من الوقت نظل على الأرض مخدرين وشيء ما يبدو غير مفهوم لنا.

---

(١) الاسم يعني ربة الشعر أو مصدر الوحي.

ثم تقول موزا:

- نعم، أنا أقوى منك. ولكن هذا لا يهم. هناك بعض العرسان ضعاف بل ومرضى أيضًا. المهم أن يكونوا أذكياء. كم مادة حصلت فيها على الدرجة النهائية (٥) في الربع الأول من العام؟

يا إلهي! يا له من سؤال بائس! إذا قاسوا العقل بالدرجات فأنا في وضع سيئ إذن. لقد حصلت على (٢) في ثلاث مواد، وبقية المواد حصلت فيها على (٣).

- لا تشغل بالك. سوف تصير أذكى في المستقبل. هناك كثير من العرسان ينالون (٢) في أربع مواد وربما أكثر.

- لا أعرف.

نمسك أيدي بعضنا ونسير في غرفة المعيشة ثم ينادينا الكبار إلى غرفة تناول الطعام حتى نشرب الشاي.

تحيط موزا بعنقي وتُقبِّلني على خدي.

أسألها هلعًا من تصرفها هذا:

- لماذا فعلتِ ذلك؟

- القبلة تختم العقد. الآن نحن عريس وعروس.

ونمضي إلى غرفة تناول الطعام.

معلم التاريخ

يستدعيني معلم التاريخ بطريقة غير اعتيادية. إنه ينطق

اسمي بنبرة لا تبشر بخير. ينطقه بصياح وانزعاج عن عمد، وحينها يبدأ بقية الطلبة هم أيضًا في الصياح ساخرين من المعلم.

لا أشعر أني على ما يرام عندما ينادون اسمي بهذه الطريقة، لكني لا أعرف ما الذي يتوجب عليَّ فعله حتى يتوقف ذلك. أقف خلف دكتي وأجيب عن أسئلة الدرس بشكل ممتاز إلى حد كبير، ولكن الدرس يحتوي على كلمة «مأدبة».

يسألني المعلم:

- وما المأدبة؟

أنا أعرف تمامًا ما المأدبة. إنها غداء وطعام ولقاء احتفالي على الطاولة أو في مطعم. لكني لا أعرف هل يمكن أن نُعرِّف الكلمة بهذه الطريقة عندما تتعلق الأحداث بشخصيات تاريخية عظيمة أم لا. أهو تفسير تافه عندما يتعلق بالأحداث التاريخية أم لا.

أصمت.

- ها؟ ها؟

هكذا يسألني المعلم، وعندما يطلق هذه الهمهمات تتهادى إلى أذني أصوات السخرية والازدراء من الطلبة صوبي. ثم يسخر الطلبة من المعلم حينما يسمعون همهمته. يُلوِّح لي المعلم بيده ويعطيني درجتين فقط. بنهاية الحصة أركض خلف المعلم على السلم. من فرط الاضطراب لا يمكنني حتى أن أنطق بكلمة واحدة. تكتنفني الحمى.

عندما يراني المعلم في هذه الحالة يسألني:

- سوف أسألك ثانية في نهاية الربع الدراسي. سنعمل على أن تنال ثلاث درجات.
- ليس هذا ما أريد أن أتحدث عنه، ولكن إن استدعيتني ثانية هكذا فأنا سوف... أنا...
- أنت ماذا؟
- سوف أبصق عليك.

يصرخ المعلم:

- ماذا قلت؟

يمسكني من يدي ويجرَّني إلى المدير، لكنه يتركني فجأة في الطريق ويقول:

- عُد إلى الفصل.

أعود إلى الفصل وأنتظر. لا بد أن المدير سوف يأتي الآن ويطردني من المدرسة، لكن المدير لا يظهر.

بعد بضعة أيام يستدعيني المعلم إلى مكتبه.

ينطق اسمي بهدوء، وعندما يبدأ الطلبة في السخرية كعادتهم يطرق المعلم بقبضته على الطاولة بعنف ويصيح فيهم:

- صمتًا! يسود الصمت التام في الفصل. أجيب عن شيء وأفكر في شيء آخر. أفكر في ذلك المعلم الذي لم يشكني إلى المدير، والذي ناداني هذه المرة بطريقة مختلفة. أنظر إليه، والدموع تترقرق في عينيَّ.

يقول المعلم:

- لا تضطرب. ستنال في كل الأحوال درجاتك الثلاث.

لقد ظن أنني أبكي لأني لا أعرف الدرس جيدًا.

الكلوروفيل

مادتـان فقط هما ما يثيران اهتمامي: علم الحيوانات وعلم النباتات، أما بقية المواد فلا.

بالإضافة إلى ما سبق فإني أهتم أيضًا بالتاريخ، ولكن ليس ذلك التاريخ المكتوب في الكتاب الذي ندرسه. أشعر بالحزن الشديد من سوء مستواي الدراسي، لكني لا أعرف ماذا كان عليَّ أن أفعل حتى يتغير الوضع. حتى في مادة النباتات لديَّ ثلاث درجات فقط، مع أني أعرف هذه المادة بامتياز. قرأت عن هذا الموضوع كتبًا كثيرة وأعددت مجموعة من نماذج الأعشاب في ألبوم وضعت فيه نماذج من زهور وأعشاب وأغصان. يثرثر معلم مادة النباتات عن شيء ما في الفصل، ثم يقول:

- لماذا أوراق الشجر خضراء؟ من يعرف؟

الصمت يلف الفصل تمامًا.

- سوف أمنح من يعرف إجابة هذا السؤال الدرجة النهائية (خمس درجات).

أعرف سبب اللون الأخضر لكني أصمت. لا أريد أن أتباهى. فليجب التلاميذ المتفوقون. وبالإضافة إلى ذلك فلست

في حاجـة إلى الخمـس درجات، فماذا سـتفعل وسـط كل هذه المـواد التي حصلت فيها على درجتين أو ثلاث؟ سـيبدو الأمر هزليًا. ينادي المعلم على أكثرنا تفوقًا، لكنه لا يعرف الإجابة.

حينها أرفع يدي بإهمال. يقول المعلم:

- آه... حسنًا... إن كنت تعرف فقل.

أقول:

- الأوراق خضـراء لأنهـا تحتـوي علـى عصـارة الكلوروفيل الخضراء.

يقول المعلم:

- قبل أن أعطيك الدرجات الخمس، أريد أن أعرف أولا لماذا لم ترفع يدك من البداية؟

أصمت. يصعب الإجابة على هذا السؤال.

يسألني المعلم:

- هل السبب هو أنك لم تتذكر الإجابة فورًا؟

أصمت. يهز المعلم رأسه بإشـارة تشي بالتوبيخ ويعطيني الخمس درجات.

انتهى كل شيء

الريح قوية للغاية حتى أنه يستحيل لعب الكروكيت.
نجلس على العشب خلف المنزل ونتحدث.
بالإضافة إليَّ أنا وشـقيقاتي هناك توليا ذو الحس الواقعي،

وشقيقته كسينيا.

تحاول شقيقتاي مضايقتي بالمزاح. تعتقدان أني معجب بكسينيا، وأني أنظر لها طوال الوقت، وأرتِّب لها ضربات جيدة في لعب الكروكيت.

تبتسم كسينيا، فهي تعرف أني أفعل ذلك عن عمد من أجلها.

تشعر بالثقة كاملا من شعورها ذلك وتقول لي:

- أيمكنك أن تذهب مساءً إلى المقابر من أجلي وتقطف لي زهرة من هناك؟

أسألها:

- لماذا؟

- هكذا بدون سبب. من أجل أن تحقق طلبي فحسب.

أقول بصوت خفيض حتى لا تسمع شقيقتاي:

- من أجلك يمكنني أن أفعل ذلك.

فجأة نرى جمعًا من الناس يركض من خلف السياج. نخرج من الحديقة. يا إلهي! الماء يملأ الطريق. لقد غطى الماء بالفعل جزيرة يلاجين. لن يمر وقت طويل قبل أن تغمر المياه الطريق الذي نحن فيه الآن.

نركض سريعًا إلى نادي اليخت. الريح قوية جدًا حتى إننا نكاد نسقط من فرط قوتها.

أمسك بيد كسينيا ونركض في المقدمة.

فجأة أسمع صوت ماما:

- عودوا إلى المنزل.

نلتفت إلـى الخلف. غمرت المياه حديقتنا، وتدفقت على الأرض لتغمر المساحة من خلفنا.

أركـض إلى المنـزل. المصـارف مغمورة بالميـاه وألواح الخشب والشجيرات تطفو فوق المياه.

الماء يصل إلى ركبتيَّ، وأركض صوب الشرفة الأمامية.

ولكن أين كسينيا وشقيقتاي وتوليا؟

لقـد خلعـوا أحذيتهـم وهـا هـم يخوضـون الطريـق عبر الحديقة.

عند وصول كسينيا إليَّ تقول:

- تركض وحدك وتتركنا جميعًا! لقد انتهى كل شيء بيننا.

أمضـي إلى غرفتـي بالطابـق الثـاني صامتًا. أسـتلقي على الفراش وكآبة مريعة تتملكني.

الطلقة

الصباح، نجلس في الشرفة الخارجية. نشرب الشاي. فجأة نسـمع صوت صرخة مريعة. ثم صوت طلقـة. نقفز من أماكننا، ثمة امرأة تركض صوب شرفتنا الخارجية. إنها جارتنا آنا بتروفنا، تبدو شـعثاء تمامًا. تـكاد تكون عارية، وقد ارتـدت مبذلها فوق كتفها على عجل. تصيح:

- أنقذوني... أتوسل إليكم. سوف يقتلني. لقد قتل سيرجي لفوفيتش.

تشيح ماما بيديها قائلة:

- أهو ذلك الطالب الأشقر الذي كان في ضيافتكم؟

ما إن تجيب آنا بتروفنا بالإيجاب حتى تتهاوى على الأريكة وتكتنفها نوبة هستيرية. أركض إلى منزل جارتنا صوب النافذة. ابتعدت عن النافذة عندما رأيت الغرفة. ثمة قتيل مستلق على الفراش، والدماء تنهمر من الملاءة على الأرض. لكن أحدًا آخر لم يكن في الغرفة.

حينها ركضت إلى حديقتهم رأيت جمعًا من الناس. أمسكوا بزوج آنا بتروفنا. لم يقاوم ولا حتى حاول الهروب. لم ينبس بشفة. أتي رجل الشرطة وأراد أن يصطحبه معه، لكن زوج آنا بتروفنا قال:

- نادوا زوجتي. أريد أن أودِّعها.

حينها ركضت إلى منزلنا وقلت لآنا بتروفنا:

- آنا بتروفنا، إنه يريد أن يودِّعك. اذهبي إليه ولا تخافي. رجل الشرطة هناك.

قالت أنا بتروفنا:

- لم أعتد توديع القتلة. لن أمضي إليه.

ركضت إلى الحديقة كي أخبرهم أنها لن تأتي، لكنهم كانوا قد أخذوه بالفعل.

ملاحظة

كنت في ضيافة بعض المعارف إبان احتفالات عيد الميلاد. كنت في منزل صديقي. والداه شديدا الثراء. نال كل الضيوف هدايا ومفاجئات وتذكارات. أنا شخصيًا حصلت على كتابين لتوماس ماين ريد[1] وزلاجات صغيرة. بالإضافة إلى ذلك أهدتني شقيقة صديقي مارجريتا ألبومًا من أجل الطوابع، وسكينًا صغيرًا صدفي اللون وسلسلة ذات قلب ذهبي من أجل حزام الساعة. في وقت متأخر من الليل بدأ الضيوف يغادرون. رافقتني مارجريتا لتودعني بصحبة خادمتها. ها أنا أتقدم قليلا بصحبة مارجريتا، والخادمة تسير من خلفنا. نثرثر بمرح، وإذ بنا قد وصلنا إلى المنزل.

تطلب مني مارجريتا وهي تودعني أن ألتقيها غدًا عندما تعود من المدرسة، أودعها وأربت على يدها، ثم أودِّع أنوشكا الخادمة وأربت على يدها هي أيضًا. لكن بينما كنت أودِّع أنوشكا، غضبت مارجريتا، وهزت كتفيها. في اليوم التالي ألتقي بمارجريتا. تقول:

- لابد وأنك ترعرت في بيت ديمقراطي حيث من المقبول أن يصافح المرء خادمه. هذه المصافحة ليست مقبولة عندنا.

لم أفكر يومًا في مثل هذه الأمور. احمر وجهي وارتبكت.

---

(١) كاتب أمريكي من أصل أيرلندي اسكوتلندي.

لم أعرف بم أجيب. ثم قلت:

- لا أرى أي شيء مسيء في مصافحتي لأنوشكا.

قالت مارجريتا:

- لا ينقصني إلا أن تودعها هي أولا ثم تودعني أنا! أتتصرف هكذا وأنت من أصل نبيل؟!

مضينا عبر شارعين صامتين تمامًا. ثم شعرت بالضيق. خلعت قبعتي وودَّعت مارجريتا.

بينما أفارقها قالت لي:

- لا يجب أن تغضب مني. أنا أكبر منك بعام، وقد وجَّهت إليك هذه الملاحظة بحسن نية.

صديقي

كل يوم أذهب إلى ساشا ب. إنه صبي ذكي. أحب أن أكون معه. صرنا صديقين. إنه صديقي الوحيد. قالت لي ماما إني غير قادر على عقد صداقات مع أحد، وإني وحيد بطبيعتي مثل أبي، الأمر ليس كذلك على الإطلاق. أشعر بالوحدة إن لم أر صديقي ليوم واحد. لديَّ ببساطة احتياج للقائه.

أُلمِّع حذائي وأسرع إليه. منزله على ضفة المياه على بعد ثلاثة شوارع. أمضي بمحاذاة المياه وأغني بصوت خافت: «أمضي دون وعي إلى هذه الشواطئ الحزينة....».

أدخل الحديقة. الأسرة كلها جالسة في الشرفة الأمامية: هو

ووالدته وشـقيقتاه أوليا وجاليا. أوليا في الرابعة عشرة من العمر، وجاليا في السادسة عشرة، وأنا في الخامسة عشرة.

الجميع سعداء بقدومي. يقول لي ساشا:

- لـو ترغب يمكننا أن نمضي اليوم إلى الشـاطئ، ونتحدث في بعض الأمور الفلسفية.

الفتاتان غير راضيتين عن هذا الاقتراح. لقد أرادتا أن ألعب معهما الكروكيت، ونمكث في الحديقة.

يقول ساشا:

- ثرثر إذن مع الفتاتين ساعة بينما أنهي كتابي.

أمضي مع الفتاتين إلـى الحديقة. نجلس في حديقة المنزل ونتحدث حول أمور متنوعة.

تـروق لـي أوليا أكثر من جاليا، لكنـي أروق لجاليا أكثر. إنها عقدة دراماتيكية. كل شـيء من حولنا يبدو رائعًا للغاية. إنها الحيـاة! نجلس طويـلا في عريش الحديقـة وبعدها نجلس على الشـاطيء، وأخيرًا نعود لنجلس في عريـش الحديقة ثانية. يُخيِّم الظلام. أودع الفتاتين. تهمس جاليا بشـيء ما في أذني. لا أتمكن من سـماعها بوضـوح، لكنهـا لا تريد أن تُكـرِّر ما قالتـه. كلانا يبتسم.

في النهاية أودعهما وأعود إلى البيت في حالة مزاجية رائعة. فجأة، أتذكر وأنا في طريق العودة أني نسـيت أن أودِّع ساشا، وأني كنت سـأذهب معه إلى الشـاطئ. أشعر بضيق شـديد. أعود إلى

منزلهم. أجتاز السياج، فأجد ساشا واقفًا هناك.

يقول لي:

- اليوم فهمت تمامًا أنك تأتي إلى هنا لا لرؤيتي بل لرؤية شقيقتيَّ.

أحزن جدًا، وأحاول أن أثبت له أني آتي إلى هنا من أجله هو شخصيًا، لكنه يصير فجأة على قناعة تامة أني لا أزور منزله من أجل رؤيته هو شخصيًا.

يقول:

- صداقتنا مشَّيدة على الرمال. أنا على قناعة بذلك.

نودِّع بعضنا ببرود.

طالب مع العصا

على مبعدة منزلين من منزلنا تعيش فتاة تُدعى إيرينا. كانت حمراء الشعر لكنها جميلة للغاية. حتى إنه يمكنك أن تظل تنظر إليها لساعات بإعجاب.

كنا نحن الصبية كثيرًا ما نمضي إلى سياج منزلها، وننظر إليها وهي مستلقية فوق أرجوحتها الشبكية.

تظل فوق أرجوحتها طوال الوقت تقريبًا، لكنها لم تكن تقرأ. إما أن يكون الكتاب على العشب أو فوق ركبتيها. في المساء مضت إيرينا لتتنزه بصحبة أوليج. إنه طالب ويعمل في السكك الحديدية. يرتدي نظارات تشبك بالأنف، ويمسك

عصا في يده. عندما يقترب من منزلها، نصيح نحن الصبية:

- إيريشا[1]. أوليج قادم.

يحمر وجهها للغاية، وتركض للقائه. لا أعرف ماذا حدث لهما تحديدًا، ولكن في نهاية الصيف رمت نفسها من المرسى وغرقت، ولم يجدوا جثمانها!

شعر كل أصحاب المنازل الريفية القريبة بالحزن الشديد عليها، بل وبكى بعضهم. أما هذا الطالب المدعو أوليج فتعامل بمنتهى الخفة مع خبر موتها. حافظ على عادته على الذهاب إلى رصيف الميناء ومعه العصا. وكان مبتسمًا دائمًا ويمزح مع أصدقائه، بل وبدأ في التودد إلى إحدى الطالبات وتُدعى سيموتشكا. أما نحن الصبية فقد شعرنا بالاستياء الشديد من سلوكه. كرهنا هذا الطالب الممسك بالعصا من أعماق قلوبنا. ذات مرة بينما هو جالس على المرسى أخذنا نطلق عليه قذائف المقلاع. شعر بغضب رهيب، وأخذ يصيح فينا ويطاردنا، لكن بينما يطارد واحدًا منا يطلق عليه الآخرون ثانية من المقلاع.

أخذنا نطلق عليه حتى اضطر في النهاية إلى الركض عائدًا إلى منزله، وهو يغطي رأسه بيديه.

لثلاثة أيام متواصلة ظللنا نطلق على منزله قذائف المقلاع. أطلقنا قذائفنا كل من حاول الخروج من المنزل، حتى أمه نفسها والطاهية والضيوف والكلب، بل وحتى القطة

---

(١) تدليل إيرينا.

الصغيـرة التي حاولت الخروج للتشـمس قليـلا، حطمنا بعض الألـواح الزجاجيـة بالشـرفة الأماميـة وأرغمنـاه في النهاية على الرحيل، رحل بأنف مكسـور بسـبب واحدة مـن قذائفنا أصابته وهو يتوجه إلى المرفأ ومعه أغراضه.

الدرس الأول

لـديَّ طالب. إنـه كاتـب بهيئـة الأركان العامة، وأنـا أعده لاجتياز الامتحانات.

في غضون شـهرين سـوف يـؤدي اختباره الـذي يجب أن يؤهله لنيل الرتبة الأولى.

لدينا اتفاق: إذا استطاع اجتياز الامتحان فسوف يُحضر لي دراجة.

إنـه اتفـاق رائع، لذا كنـت أمضي ثلاث سـاعات يوميًا مع هذا الأحمق الذي لا يفقه شـيئًا في العلـوم. حاولت أن أنقل كل المعارف التي لديَّ إلى هذا العقل المضبب. أجبرته على الكتابة والتفكيـر والحسـاب. لـم أكن أنهـي الدرس إلا عندما يشـتكي بشدة من أن رأسه تؤلمه.

هـا هو قد اجتـاز الامتحان بامتياز، وجاء إليَّ مبتهجًا أشـد الابتهاج. أخذ ينظر إليَّ بدهشـة قائلا إنه لم يتوقع ذلك. مضيت بصحبتـه إلى شـقته، ها هي اللحظـة المنتظرة. يُخـرج الدراجة إلـى الرواق. تغيم الرؤية عندمـا أرى الدراجة. إنها دراجة صدئة

باليـة ذات مقود ملتوٍ، خالية من الإطارات، انهمرت الدموع من عيني، لكنني شعرت بالخزي من أن أقول إني غير موافق على هذه الدراجة، أما فهو فقال لي وهو يكاد يختنق من فرط الضحك:

- لا تقلـق. بعـض الزيت وإطـارات جديدة، وسـتجد أمامك دراجة ممتازة.

أوصلـت الدراجـة بصعوبـة كبيـرة إلـى ورشـة الإصلاح لمعالجة الصدأ. لوَّح لي صاحب الورشة بيده قائلا:

- ما الذي جرى لعقلك؟ كيف يمكن إصلاح خرده كهذه؟

بعت الدراجة لجامع الخـردة بروبل واحد، ولم يكن يريد حتى أن يدفع الروبل. أعطاني في البداية خمسـة وثمانين كوبيك، لكنه هدأ ووافق على دفع الروبل عندما رأى جرسًـا على المقود الصدئ.

إلـى الآن، وحتى بعد مـرور ثلاثين عامًا على هذه الحادثة مـا زلت أتذكر هذا الكاتب بكل تقزز، هو وأنفه التي تشـبه أنف البطة وأسـنانه الصفراء وجمجمته المفلطحة التي بذلت جهدي من أجل أن أحشر فيها بعض المعارف.

كان هـذا الدرس الأول الـذي جعلني أعرف بعض الأمور عن الحياة.

خاتمة

ها قد انتهت ذكرياتي عن زمن الطفولة.

أمامي الآن ثمانٍ وثلاثون حكاية أصابتني بالاضطراب والانزعاج فيما مضى، أخذت أتأمل في كل هذه الحكايات وأحللها. آملت أن أجد فيها مصدر كل معاناتي. لكني لم أر شيئًا فريدًا في هذه الحكايات.

بالطبع بعض الحكايات المليئة بالأحزان، لكنها ليست أشد قوة من الأحزان المعتادة. الجميع يمر بموت الأب، ويشاهدون دموع الأم، يتعرض الجميع لمواقف بائسة في فترة الدراسة، ويتعرض الناس للإساءات والاضطرابات والخداع. لابد أن الجميع قد جرَّب الشعور بالهلع من العاصفة الرعدية والفيضانات وعواصف الهواء، لا... لا أجد في أي من هذه الحكايات حادثًا بائسًا أفسد حياتي برمتها، وجعلني مكتئبًا وحزينًا، حينها أخذت أجمع كل هذه الحكايات سويًا. أردت أن أُكوِّن صورة عامة عن طفولتي وأدرك الطابع العام فيها الذي يمكن أن يكون قد صعقني، بينما كنت أخطو خطوات الطفولة الأولى المترددة في هذا الممر الضيق لحياتي.

لكن هذا الطابع العام لم يكشف عن أي شيء استثنائي. إنها طفولة عادية.... طفل صعب المراس بعض الشيء، مضطرب شديد الحساسية وسريع التأثر، يركِّز اهتمامه على ما

هو سيئ أكثر مما هو حسن، وربما جبان بعض الشيء بسبب ذلك. لكنه ليس ضعيفًا على الإطلاق، بل هو قوي في حقيقة الأمر.

لا... لا يمكن أن تكون أعوام الطفولة هي التي أفسدت حياتي بعد ذلك.

تثبط عزيمتي ثانية. يبدو أن اكتشاف سبب كآبتي أمر شاق.... أمر شاق أن أتخلص من ذلك السبب، وأن أصير سعيدًا ومسرورًا ومبتهجًا وأن يكون لديَّ قلب مفتوح على العالم كما يجب أن يكون الأمر مع كل إنسان عادي. يبدو أن الابن الضال لا يعود إلى منزل أبيه إلا في الحكايات فقط[1]! أيمكن أن أكون قد أخطأت من البداية؟ أيمكن ألا يكون هناك من الأساس ذلك الحادث المؤسف الذي أبحث عنه؟ أم يكون قد وقع في مرحلة عمرية مبكرة أكثر من ذلك؟

في حقيقة الأمر لماذا قررت استبعاد أعوام الطفولة المبكرة؟ لا بد أن الانطباعات الأولية للإنسان لا تنطبع بداخله في عمر السادسة أو السابعة. التعرف الأول على العالم يحدث في مرحلة قبل ذلك. تتكون المفاهيم الأولى لدى الإنسان عندما يبلغ من العمر عامين أو ثلاثة، بل ويمكن حتى عندما يكون عمره عامًا واحدًا.

حينها أخذت أفكر: ما الذي يمكن أن يكون قد حدث في

(١) الإشارة إلى مثل الابن الضال الوارد في إنجيل لوقا إصحاح ١٥.

هذه المرحلة العمرية التافهة؟

أجهـدت ذاكـرتي محـاولا أن أتذكر نفسـي بينما كنت لا أزال طفـلا صغيرًا للغاية. ولكن حينهـا أصبحت على قناعة أني لا أتذكر تقريبًا شـيئًا عن ذلك؛ لا يمكنني استدعاء ذكرى واحدة كاملة من هذه المرحلة المبكرة... كل ما أتذكره بعض الومضات والنتف، ولحظات منفصلة من هنا وهناك غرقت في قلب ضباب كثيف. أخـذت أعيد تذكر هذه الومضـات، وعندما فعلت ذلك شـعرت بخوف مريع أكثر مما شـعرت به عندمـا تذكرت أعوام طفولتي غير المبكرة.

قلت في نفسي: هذا يعني أني على الطريق الصحيح.... هذا يعني أني اقتربت بشدة من الجرح.

٥

قبل شروق الشمس

لقـــد كـــان عالمًـا مخيفًـا
بلا سـماء أو ضـوء أو نجوم[1]

هكذا قررت تذكر أعوامي المبكرة، وقد افترضت أن حادثًا ما بائسًا قد حدث في هذه المرحلة تحديدًا.

إلا أن تذكـر هذه المرحلة المبكرة لم يكن سـهلا. اكتنفها ضباب باهت من كل جانب.

أخـذت أجهـد ذاكـرتي محاولا سـبر أغوار هـذا الضباب الباهـت. حاولت تذكر نفسـي، وأنا ما زلت طفـلا في الثالثة من عمري جالسًا على مقعد مرتفع أو على ركبتي أمي.

عـبر غياهـب النسـيان بـدأت تبرق فجـأة في عقلـي بعض اللحظـات المنفصلة والومضـات، وبعض المشـاهد الممزقة، وقد كشف عنها ضوء غريب.

مـا الـذي كشـف عـن هـذه المشـاهد؟ أيمكـن أن يكون الخوف؟ أم اضطراب نفسـي لطفل؟ نعم... ربما يكون الخوف والاضطراب النفسي اللذان اكتنفاني وأنا طفل هما اللذان اخترقا هذه الغشاوة الباهتة التي أحاطت بأعوام طفولتي المبكرة.

---

(١) من قصيدة سجين تشيلون لبايرون.

لكنها كانت لحظات قصيرة للغاية... كان ضوءًا عابرًا، وغرق بعدها كل شيء في الظلام ثانية.

بينما أتذكر هذه الومضات أدركت أنها تخص العامين الثالث والرابع من حياتي. قليل منها كان لعامي الثاني.

حينها بدأت أتذكر ما حدث لي بين الثانية والخامسة من العمر.

من الثانية وحتى الخامسة من العمر، ما يبدو حلوًا للساننا ،ينتج مرارة في بطوننا.

افتح فمك

علبة فارغة من أعواد الثقاب على غطاء الفراش. الأعواد في فمي.

أحدهم يصرخ: «افتح فمك!».

أفتح فمي. ألفظ الأعواد خارج فمي.

أصابع ما تتسلل داخل فمي، وتخرج المزيد من أعواد الثقاب. أحدهم يبكي. أبكي بصوت أعلى من مرارة الأعواد، وبسبب أنهم انتزعوها من فمي.

أحذية تمضي

أحذية صغيرة مطلية. أحذية صغيرة لامعة جميلة بشكل لا يُوصف. إنها تمضي صوب مكان ما.

إنهـا في قدمي. وقدمي على المقعـد، والمقعد أزرق. لا بد أننا داخل عربة.

الأحذية الصغيرة المطلية ذاهبة إلى مكان ما مستقلة العربة.

أنظر إلى الأحذية دون أن أسقط.

ولا أذكر شيئًا بعد ذلك.

بنفسي

طبق من الكاشـا[1]. ملعقة تتجه صوب فمي. يد ما تمسك بالملعقة.

أبعد الملعقة عني. سوف أتناول الطعام بنفسي.

أبتلع الكاشا. أجدها ساخنة جدًا. أصرخ. أضرب الملعقة بالطبق بغضب. تتطاير بعض الكاشا على وجهي وعينيَّ.

تتعالى صرخة عالية. إنه أنا الذي يصيح.

طائر في اليد

أحدهم يغطي نفسه بوشاح أسود، وآخر يمسك بطائر بين يديه. الطائر كبير. أقف فوق مقعد وأنظر إلى الطائر.

ثـم يرفـع الرجل الطائر بيـن يديه. ترى لماذا؟ أسـيجعله يطير؟ إنه لا يمكنه الطيران. إنه ميت. إنه مستند إلى عصا.

أحدهم يقول: استعدوا!

---

(١) عصيدة من الحبوب المطبوخة.

لا زالت أحتفظ بهذه الصورة التي أظهر فيها طفلا صغيرًا يحملق بدهشة فيما أمامه. كان عمري وقتها عامان وثلاثة أشهر.

لقد تهت

أريكة مقلمة ناعمة. فوق الأريكة ثمة نافذة صغيرة مستديرة. تلوح المياه من خلف هذه النافذة. أهبط من فوق الأريكة. أفتح باب القمرة، لكني لا أجد المياه.

أمشي عبر الرواق، ثم أعود.

أين هو باب قمرتنا؟ ما من أبواب. لقد تهت. أصرخ وأبكي.

ماما تفتح الباب وتقول:

- اجلس هنا ولا تذهب إلى أي مكان.

الديك

الساحة. الشمس مشرقة. ذباب كبير يطير حولي. أجلس على درجات الشرفة الخارجية. أتناول شيئًا ما. لا بد أنه رغيف من الخبز. ألقي بقطع من الرغيف للدجاج. يقترب مني ديك. ينظر إليَّ وهو يحرك رأسه. ألوِّح له بيدي حتى يبتعد، لكنه لا يبتعد. يقترب مني. فجأة يقفز نحوي ويقضم رغيفي.

أركض بعيدًا صارخًا من الفزع.

اطرده بعيدًا!

زهور على حافة النافذة. ثمة قطة بين الزهور. القطة تُحدِّق فيَّ. أحدِّق أنا أيضًا في القطة، وأجلس على مقعد مرتفع، وأتناول الكاشا، فجأة يقترب كلب ضخم، ويرفع قدميه فوق الطاولة.

أصرخ بيأس.

أحدهم يصيح قائلا:

- إنه يخاف من الكلاب. اطرده بعيدًا.

يطردون الكلب.

أنظر إلى القطة وأتناول الكاشا.

عن عمد

أقف عند السياج. أحدهم يسندني من الخلف.

فجأة يمر بنا متسول يحمل شوالا.

أحدهم يقول له:

- خذ هذا الولد.

يمد المتسول يده.

أصرخ بفزع شديد.

يقول أحدهم:

- لن أعطيك له... لن أعطيك له. أنا معك.

يبتعد المتسول بشواله.

المطر يتساقط

تحملني أمي وتركض. أضغط نفسي على صدرها.

المطر يتساقط فوق رأسي. تتسلل المياه من ياقة قميصي إلى جسدي، فأصيح.

تغطي أمي رأسي بمنديل، وتركض أسرع.

ها قد وصلنا فعلا المنزل. نحن في الغرفة... تضعني أمي فوق الفراش، فجأة يلمع البرق، ويتعالى صوت الرعد. أنسل من الفراش وأصيح عاليًا كي أوقف هذا الرعد.

أنا خائف

تمسكني أمي، وننظر إلى الحيوانات داخل أقفاصها. هذا فيل ضخم. يحمل بخرطومه رغيفًا فرنسيًا، ويبتلعه.

أخاف الأفيال. نبتعد عن القفص.

هذا نمر ضخم. يُمزِّق اللحم بأسنانه ومخالبه ويأكلها.

أخاف النمور وأبكي.

نعود للمنزل وتقول أمي لأبي:

- إنه يخاف الوحوش.

الخال ساشا يحتضر

أجلس فوق مقعد مرتفع. أشرب اللبن. تدخل بعض القشدة إلى فمي. ألفظها، وأصيح. أُلطِّخ الطاولة بالقشدة.

أحدهم يصرخ صرخة مريعة من خلف الباب.

تظهر ماما. تبكي وتُقبِّلني قائلة:

- الخال ساشا يحتضر.

ألطخ الطاولة ثانية بالقشدة وأعود لشرب اللبن.

تتعالى صرخة مفزعة ثانية من خلف الباب.

ليلاً

الليل. الظلام حالك. أصيح... تحملني أمي.

أصرخ بصوت أعلى. أنظر إلى الحائط. لونه بني، وثمة منشفة معلقة عليه.

تهدئ أمي من روعي وتقول:

- أتخاف من المنشفة؟ حسنًا سوف أبعدها.

تنزع أمي المنشفة من مكانها وتخفيها عني، ثم تضعني ثانية على فراشي، لكني أصيح ثانية.

حينها يضعون فراشي الصغير بجانب فراش أمي.

أنام باكيًا.

خاتمة

أمامي الآن إذن اثنتا عشرة قصة من طفولتي المبكرة.

فحصت بعناية هذه القصص، لكني لم أر شـيئًا استثنائيًا في أي منها.

كل طفل يدفع إلى فمه كل ما تتحصل عليه يداه.

كل الأطفـال تقريبًـا يخافـون مـن الوحـوش والـكلاب، ويلفظون القشـدة التـي تتعلق بأفواههم من اللبـن. كل الأطفال يلسعون أفواههم بطعام ساخن، ويصرخون في الظلام.

لا... إنها طفولة عادية، وسلوك طبيعي بالنسبة لطفل.

حتى بعد جمع كل هذه المشاهد سويًا لا يمكنني الوصول إلـى حـل للغز. بـدا لـي أني عبثًا قد اسـترجعت كل هـذا الهراء الطفولـي. لا بـد أن سـبب بليتـي غيـر موجـود وسـط كل هذه الانطباعـات القويـة. ولكن أيمكـن أن تكون هـذه الانطباعات القوية نتاجًا لبليتي، لا سببًا لها؟ أيمكن أن تكون حادثة بائسة قد حدثت لي قبل أن أبلغ عامين من العمر؟ قلت في نفسـي إن هذا أمر غير مؤكد. في حقيقة الأمر فإن اللقاءات الأولى مع الأشـياء، والتعـرف الأول إلى العالم الذي مـن حول المرء لا يتم في العام الثالـث أو الرابـع مِـن حياة الإنسـان، بل في فجر حياتـه، أو قبل شـروق الشـمس. لا بد أن هذا اللقاء كان غير عادي، وأن ذلك التعارف لم يكن طبيعيًا. كائن حيواني صغير لا يمكنه أن يتحدث

أو يفكر، ويلتقي بالحياة. في هذه اللحظة تحديدًا – وليس بعدها - لا بد وأن يكون ثمة حادث بائس قد جرى، لكن كيف يمكنني أن أكتشف مثل هذا الحادث؟ كيف يمكنني اختراق هذا العالم الذي يفتقر إلى العقل والمنطق، والذي لا أذكر عنه شيئًا؟

قبل بلوغ عامين من العمر

وبدا كل شيء شاحبًا مظلمًا شاحبًا
كما لو كان حلمًا ثقيلا[1]

١

بينما أجهد نفسي بالتذكر أخذت أفكر في فجر حياتي لكني لم أستطع تذكر أي مشهد من هذه الفترة. لم أستطع حتى التقاط لمحة بعيدة عن هذه الفترة. لقد تحول هذا الزمن البعيد إلى ظل كثيف ورتيب.

ثمة ضباب رمادي كثيف يحيط بالعامين الأولين من حياتي. ينتصب أمامي مثل ستر من الدخان لا يسمح لنظري باختراق حياة هذا المخلوق الصغير البعيدة الغامضة. لم أفهم كيف يمكنني أن أخترق مثل هذا الضباب كي أتمكن من رؤية الدراما التي حدثت في فجر حياتي قبل شروق الشمس.

لم يساورني أي شك في أن دراما حقيقية قد حدثت في هذه الفترة. لو لم يكن لها وجود لما اختبرت هذا الخوف المتعذر

(١) من قصيدة سجين تشيلون لبايرون.

تفسيره الذي بدأت أختبره منذ أن بدأت أحاول الوصول إلى تلك المنطقة غير المسموح للناس أن يمضوا إليها طالما تجاوزا مرحلة الطفولة.

٢

حاولت أن أتصور نفسي طفلا يبلغ عامًا واحدًا من العمر، وحلمة زجاجة الإرضاع في فمه، والخشخيشة في يده، وساقاه مرفوعتان إلى أعلى.

لكن لم تستطع هذه المشاهد المرسومة بشكل مصطنع في عقلي أن تحرك شيئًا في ذاكرتي. مرة واحدة فقط، وبعد عصف ذهني شديد ومضت بعض المشاهد المنسية في عقلي المتقد.

تذكرت مثلا ثنيات غطاء ما.... يدًا تأتي من صوب الحائط... ظلا عاليًا متأرجحًا... ظلًا آخر... رغوة بيضاء وظلا آخر طويلا متأرجحًا. لكن الفوضى اكتنف مثل هذه المشاهد. إنها تُذكِّرني بالأحلام. بدت كما لو أنها غير حقيقية تقريبًا. أردت أن أرى عبر هذه الومضات ظل أمي، وشكلها وجسدها ينحني فوق فراشي. لا... لا يمكنني أن أفعل ذلك. لقد تلاشت الظلال، ولاح الفراغ من جديد... فراغ وظلام ولا شيء... كما قال الشاعر:

تحول كل شيء إلى ظلال كثيفة

ولم يعد هنا نهار ولا ليل

ظلام دون ظلمة

هاوية من الفراغ
دون أبعاد ولا حدود
أشكال دون وجوه
هكذا كان ذلك العالم المريع
بلا سماء ولا ضوء ولا نجوم(١)

كان عالمًا من الفوضى، وقد تلاشى فور أن دلف إلى عقلي. لم أتمكن من اختراق كنه هذا العالم. لا شك أنه كان عالمًا مختلفًا وكوكبًا مغايرًا وقوانين مختلفة لا يمكن للعقل أن يسيطر عليها.

٣

قلت في نفسي: ولكن كيف يمكن لمخلوق صغير أن يعيش وسط كل هذه الفوضى؟ كيف يمكنه أن يدافع عن نفسه ضد هذه المخاطر في الوقت الذي لم يكتسب فيه بعد العقل والمنطق؟

أم أنه ليست لديه خطوط دفاعية، والأمر كله متروك للصدفة وعناية الوالدين؟

ولكن حتى وجود الوالدين لا يقيه مخاطر عالم الظلال المتماوجة.

حينها بدأت أطلع على كتب وأبحاث الفيسيولوجيين كي أعرف ماذا قال العلم عن هذه الفترة الضبابية من حياة الإنسان. رأيت أن هذه الكتب قد وصفت قوانين مذهلة استنتجها العلماء

(١) من قصيدة سجين تشيلون لبايرون.

من مراقبتهم للحيوانات.

إنها قوانين صارمة ودقيقة إلى أقصى حد، وهي التي من شأنها أن تدافع عن هذا المخلوق الصغير.

غياب العقل والمنطق إذن لا يهم، فقد استُبْدِلت بهما آلية رد فعل انعكاسية خاصة، وهي آلية الحركات الانعكاسية التي تستجيب لأي مثير خارجي يقترب من الطفل. ردة الفعل هذه تعتبر بمثابة آلية الدفاع ضد المخاطر المختلفة.

مما يتكون هذا الرد؟ ثمة عمليتان عصبيتان أساسيتان تشكلان نشاط الحركات الانعكاسية؛ ألا وهما الاستثارة والتثبيط. حاصل هاتين العمليتين هو ما ينتج هذه الاستجابة أو تلك. في الواقع يمكن اختصار كافة العمليات العقلية المتنوعة في وظيفة واحدة؛ ألا وهي الحركة العضلية. هذا يعني أن الاستجابة لأي نوع من أنواع الاستثارة تُنتج حركة عضلية، أو مجموعة من الحركات العضلية الهادفة بطبيعتها. المبدأ الذي يحكم هذه الحركات الانعكاسية واحد في عالم البشر والحيوانات والأطفال. الأمر إذن ليس محض فوضى، بل نظام صارم تم العمل به منذ آلاف الأعوام، وهو ما يحمي المخلوق الصغير.

إذن فاللقاء الأول مع العالم يحدث طبقًا لمبدأ رد الحركات الانعكاسية، واللقاءات الأولى مع الأشياء تُكوِّن عادة أو أخرى في التعامل معها.

٤

أرجـو أن تعذروني، فأنـا مضطر للتحدث هنا عن أمور من المحتمل جدًا أن تكون معروفة بالفعل للقارئ المثقف.

أنا مضطر للتحدث عن بعض الأمور الأساسية تحسبًا لئلا يكـون بعض القراء على غيـر معرفة دقيقة بها. ربمـا يكونون قد نسـوا شيئًا منها ويلزم تذكيرهم بها. لا بد أن جزءًا آخر من القراء المثقفيـن لا يعرفون عنها شـيئًا، ولا يجدون متعة في البحث عن نتائج مستقاة من حياة الكلاب.

أمـا أولئك الذين يعرفون كل شـيء عن الأمـر ويتذكرونه تمامًـا، بل وقد يكـون عمل بعضهم في هذا المجـال، فأرجو ألا يقدمـوا شـكاواهم ضدي، وأن يغضـوا النظر عن هذه السـطور القليلة. سوف أتحدث عن الوظيفة النفسية الأهم، وبشكل أدق عن منابعها؛ ألا وهي الحركات الانعكاسـية. يشـبه تمامًا القول بأننا سـوف نتحدث عن الأم الأولى التي ولـدت لنا العالم كله. الأمر شـديد الأهمية سواء كان حديثنا عن منابع العقل أو الوعي أو الخير أو الشر.

في وقـت ما اكتشـف العالـم العظيم نيوتن قانـون الجاذبية، بعد أن رأى التفاحة تسقط من على الشجرة. هكذا أيضًا اكتشف العالـم الروسـي بافلوف قانون الانعكاسـات الشرطية من مشهد

لا يقل بساطة عن المشهد الذي ألهم نيوتن.

لاحظ بافلـوف أن الكلب يسـتجيب بالطريقة ذاتها عندما يـأتي الطعـام، أو عندمـا يسـمع صوت خطـوات الخـادم الذي يحمل الطعـام إليه. وقد تفاعلـت غدده اللعابيـة بطريقة واحدة في الحالتين. أخذ بافلوف يفكر إذن في أن ثمة بؤرتين للاسـتثارة داخـل مـخ الكلـب، وأن هنـاك علاقة شـرطية بينهما. اسـتبدل بافلـوف بخطوات الخادم وميض ضـوء أو صوت طرق منتظم أو صوت آلة موسـيقية، وفي كل الحالات السابقة تفاعلت الغدد اللعابيـة بالطريقـة ذاتها. بالطبـع كان ذلك يحـدث عندما يتكرر إطـلاق هـذه المثيـرات الجديدة عـدة مرات مـع لحظة وصول الطعام.

هـذه البواعث الجديدة (الضوء – الصوت – الموسـيقى) التـي تكررت عدة مرات مع لحظة وصول الطعام أنتجت روابط عصبيـة جديدة شـرطية بحكـم طبيعتها. بتعبير آخـر فإن صوت الطـرق (أو أي مثيـر آخر) قد بعث في الكلـب فكرة الطعام. عند حدوث هذه الإشـارة الشـرطية كانـت ردة فعل الكلـب مماثلة تمامًا لردة فعله عند اقتراب الطعام.

أطلـق بافلـوف على هـذه الرابطـة العصبية الشـرطية التي ظهرت داخل المخ بين استثارتين "استجابة شرطية مؤقتة"، وقد أطلق عليها كذلك؛ لأنها كانت تختفي عندما لا تُكرّر التجربة... كان ذلك اكتشافًا مدهشًا.

٥

ثـم زاد بافلوف من تعقيد تجاربه، صار يطلق تيارًا كهربائيًا في قدم الكلب ويصاحب هذه العملية بصوت مترونوم، ولاحظ بعد ذلـك أن مجرد صوت الطرق في غياب التيار الكهربائي كان ينتج في الكلب ردة فعل الشعور بالألم.

بتعبير آخر فإن المثير الشرطي (صوت الطرق) أنشأ داخل المـخ بؤرة اسـتثارة قامت بدورهـا بتحفيز اسـتثارة أخرى؛ ألا وهـي "الألـم"، حتى في غيـاب المثير الحقيقي لهذه الاسـتثارة، واسـتمرت هـذه الرابطة العصبيـة بين الاسـتثارتين. حينها رأى بافلوف أننا يمكننا عن طريق وسـائل مادية التدخل في عمل هذه الآليـة العصبيـة المركزية، وأن نؤسـس أي روابـط عصبية كما نشـاء. تمكن بافلوف من السـيطرة على سـلوك الحيوان بإنشاء آليات جديدة داخل عقله، إذن،فلقد اكتُشـف قانون فيسيولوجي عام تعمل على أساسه أبسط الوظائف داخل النشاط العقلي؛ ألا وهو الفعل المنعكس.

يعمـل هـذا القانـون بطريقـة واحـدة سـواء في الظـروف المرضية أم العادية.

لقد كان ذلك اكتشافًا مدهشًا، لأنه بدَّد الظلام عن المجال الذي يجب أن يكون نيرًا تمامًا؛ ألا وهو مجال الوعي.

وعندمـا تتبـدد الظلمـات عن هـذا المجال يمكـن للعقل الإنسـاني أن يمضـي قدمًـا، ولا يضطـر للعـودة إلـى الوحشـية

والبربرية والظلام.

لقد كان الاكتشاف الأعظم، وهو ينطبق بالطريقة ذاتها على الحيوان والإنسان، وقبل كل ذلك على الطفل الذي لا يسيطر على سلوكه وعي أو منطق. في ضوء هذا القانون صار سلوك الطفل واضحًا. يتعرف الطفل العالم والأشياء المحيطة به طبقًا لمبدأ الأفعال المنعكسة الشرطية.

كل موضوع جديد، وكل شيء غير مألوف يؤسس روابط عصبية جديدة في لحاء مخ الطفل، وعلاقات جديدة. هذه الروابط العصبية شرطية إلى أقصى حد كما هو الأمر في تجربة الكلب. لقد استدعى صوت المترونوم في الكلب ردة فعل الشعور بالألم. سواء كان المثير عبارة عن صيحة أم صوت الباب أم قذيفة أم وميض ضوء أم أي شيء آخر، وتكرر بمحض الصدفة عدة مرات وقت إطعام الطفل، يمكنه أن يصنع روابط عصبية معقدة في مخه.

إن كان منظر الحقنة قد جعل الكلب يشعر بالرغبة في التقيؤ، فيمكن لأي شيء قد تسبب للطفل في الشعور بالألم أن يتسبب في معاناته في المستقبل بشدة. في الحقيقة لا بد أن يتكرر الأمر كي يظهر هذا الفعل الانعكاسي. حسنًا... يمكن للتكرار أن يكون قد حدث بالطبع.

لكن هذه الروابط العصبية قد أُطلق عليها مؤقتة؛ لأنها تتلاشى إذا لم تُكرَّر التجربة.

بدر سـؤال يجب معالجته بعناية. اقترح بافلوف أبسط مبدأ واختبره علـى الكلاب. ولكن عقل الإنسـان معقد، ولا يتوقف تطـور الإنسـان العقلي عند مرحلـة واحدة، فهو يتغيـر ويتقدم. طالمـا يحـدث تغيير فهـذا يعنـي أن الروابط العصبيـة يمكن أن تتعقد بشـكل مذهـل وبالتالي تصبـح مُحيِّرة. حـال الموت بين بافلـوف وبين مواصلـة تجاربه علـى الحيوانـات وعلى أقارب البشـر؛ ألا وهـم القرود. كانـت التجارب قد بـدأت فعلا. لكن التجارب لم تُجر على الإنسان بالدرجة المطلوبة.

٦

أردت أن أُطبِّـق هـذا الاكتشـاف العظيـم؛ أقصـد قانـون الأفعال الانعكاسـية الشـرطية والروابط العصبيـة المؤقتة، على حيـاتي. أردت أن أرى هـذا القانون في صورة فعَّالـة على نماذج مـن فـترة طفولتي. بـدا لي أن سـبب بليتي قـد يكمـن في تكوُّن بعـض الروابـط العصبية غيـر الصحيحـة في مخي وأنـا لا أزال طفـلا صغيـرًا، عملت على تخويفي بعد ذلك. بدا لي أني أشـعر بالخوف من هذه الحقنة التي امتلأت بالسم ذات يوم. أردت أن أدمِّر هذه الآليات الخاطئة التي ظهرت في مخي، لكن ما زال هنا عائـق يحول بينـي وبين تحقيق ذلك؛ ألا وهو أني لا أسـتطيع أن أتذكر شيئًا من طفولتي المبكرة.

لـو كان بإمـكاني أن أتذكر حتى مشـهدًا واحـدًا، أو حادثًا

واحدًا، لاستطعت أن أكشف عن البقية. ولكن لا... ضباب النسيان يكتنف كل شيء.

أحدهم قال لي إني يجب أن أمضي إلى المكان الذي حدث فيه شيء ما ونسيته، وحينها يمكن أن أتذكر هذا الشيء المنسي. سألت أقاربي عن المكان الذي عشت فيه وأنا لا أزال طفلا صغيرًا، وأخبروني فعلا عن المكان الذي قضيت فيه الأعوام الأولى من طفولتي.

في الواقع كانت ثلاثة منازل، أحدها احترق، وعشت في آخر عندما كنت في الثانية من عمري. قضيت في المنزل الثالث ما لا يقل عن خمسة أعوام بداية من العام الرابع من عمري، هناك منزل آخر، كان في القرية التي اعتاد والداي أن يقصداها صيفًا، دوَّنت العناوين، ومضيت لأرى هذه المنازل القديمة باضطراب شديد. أخذت أنظر طويلا إلى ذلك المنزل الذي عشت فيه وأنا في الثالثة من عمري، لكني لم أستطع تذكر شيء على الإطلاق.

حينها مضيت إلى ذلك المنزل الذي قضيت فيه خمسة أعوام.

عندما اقتربت من بوابة المنزل دقَّ قلبي بعنف.

يا إلهي! كيف يمكن أن يكون كل شيء حولي مألوفًا هكذا! أنا أعرف هذه السلالم، وهذه الحديقة الصغيرة والبوابات والساحة.

لقد عرفت كل شيء هنا تقريبًا، ولكنه لا يشبه تقريبًا

الصورة العالقة في ذاكرتي إلا في أمور قليلة.

في وقت ما كان هذا المنزل يبدو بناية ضخمة للغاية، كناطحة سحاب. أما الآن فأنا أرى أمامي منزلا باليًا مكونًا من ثلاثة طوابق.

في وقت ما كانت هذه الحديقة تبدو وكأنها أسطورية مليئة بالأسرار. أما الآن فأنا أرى أمامي حديقة صغيرة بائسة.

في وقت ما كان سياج الحديقة يبدو لي سياجًا حديديًا مرتفعًا، أما الآن فأنا ألمس بعض القضبان الحديدية البائسة التي لا يعلو ارتفاعها عن مستوى وسطي. وكأني أرى الآن ما رأيته في الماضي بعينين مختلفتين. صعدت إلى الطابق الثالث ووجدت باب شقتنا.

انقبض قلبي بسبب ألم غامض ألم بي. شعرت أني في حالة سيئة وأمسكت بالدرابزين بجسد متشنج دون أن أفهم تحديدًا ماذا ألم بي، ولماذا أنا مضطرب إلى هذه الدرجة.

هبطت درجات السلم وجلست مطولا على درجات السلم عند البوابة. ظللت جالسًا هكذا حتى اقترب مني حارس العقار. نظر إليَّ بارتياب وأجبرني على الابتعاد.

٧

عدت إلى المنزل في حالة مذرية، محطمًا دون أن أفهم سبب اضطرابي. عدت إلى المنزل في حالة كئيبة مريعة، ولم

تفارقني حالة الاكتئاب نهارًا أو ليلا.

كنت أذرع أنحاء الغرفة في النهار، فلا أستطيع الاستلقاء أو الجلوس، أما في الليل فتتكفل الأحلام المريعة بتعذيبي.

لم أكن أرى أحلامًا في السابق، أو بمعنى أدق كنت أنساها. كانت أحلام قصيرة غير مفهومة، وعادة أراها قبل انبلاج الصباح.

الآن أراها قبل أن أغلق عينيَّ بإحكام.

لم تكن أحلامًا، بل كوابيس، ورؤى مفزعة أستيقظ من فرط الخوف الذي تبعثه فيَّ.

بدأت في استعمال البروميد حتى أتخلص من هذه الكوابيس وأنعم بالهدوء، لكنه لم يُساعدني كثيرًا.

حينها استدعيت طبيبًا وطلبت منه أن يعطيني شيئًا يحول بيني وبين هذه الكوابيس.

عندما عرف أني أتناول البروميد قال لي:

- ماذا تفعل؟ الأمر على النقيض من ذلك، فأنت في حاجة للأحلام. لقد بدأت تراودك لأنك بدأت التفكير في طفولتك. هذه الأحلام وحدها هي ما سيمكنك من اكتشاف مرضك. لن ترى هذه المشاهد من طفولتك التي تسعى إثرها إلا في أحلامك. عبر الأحلام وحدها سوف تتمكن من اختراق هذا العالم البعيد المنسي.

وحينها بدأت أقص على الطبيب حلمي الأخير، وبدأ هو

في تأويلـه. لكن تأويلـه للحلم جعلني أشـعر بالغضب ولم أعد أصدقه.

قلـت لـه إني شـاهدت في الحلـم نمـورًا ويـدًا تخـرج من الحائط.

قال الطبيب:

- إنـه أوضح الأحلام. اصطحبك والداك إلى حديقة الحيوان، وهنـاك رأيـت الفيل، وقـد أخافك منظر خرطومـه. اليد هي الخرطـوم، والخرطـوم هو عضـوك الذكـري. لديك صدمة جنسية. لم أصدق الطبيب وشـعرت بالغضب. أكمل مستاءً مستاءً:

- لقد فسـرت حلمـك وفقًا لطريقة فرويد. أنـا تلميذه، وما من علم بإمكانه أن يساعدك أكثر من علم فرويد.

حينهـا اسـتدعيت أطبـاء آخريـن. أحدهم ابتسـم قائلا إن تفسـير الأحلام هو محض هراء. علـى العكس منه وجَّه آخرون إلى الأحلام مزيدًا من الاهتمام.

من بين هؤلاء الأطباء واحد شديد الذكاء، شعرت بإعجاب شديد نحوه، حتى أني أردت أن أصبح تلميذًا له، ثم تراجعت عن ذلك، فقد بدا لي أنه غير محق. لم أعد أثق في طريقة علاجه.

كان معارضًـا لبافلوف بضراوة. لم ير أهمية لعمل بافلوف أكثـر من بعض التجـارب المفيدة في مجال عالـم الحيوان. كان فرويديًـا متعنتًا. كان يرى عاملا جنسـيًا في كل تصرف للطفل أو

البالغ على السـواء. كان يُفسِّـر كل حلم على أنه يشـي بالهوس الشبقي.

لم يكن هذا التفسـير يتفق مع ما اعتبرته أمـرًا مفروغًا منه؛ ألا وهي طريقـة بافلوف القائمة على فكرة الأفعال الانعكاسـية الشرطية.

٨

أدهشـتني طريقة العلاج السابقة، فتفسير الأحلام ينطوي علـى بعـض الهزل. بـدا لي أن العجائـز والمجانيـن وأصحاب المزاج الصوفي هم الذين يبدون اهتمامًا بتفسير الأحلام.

بـدا لي أيضًا أن ذلـك لا يتفق مع العلم. اندهشـت للغاية عندمـا اكتشـفت أن الطب قد ظهـر في الواقع مـن مصدر واحد وعبـادة واحـدة؛ ألا وهو علـم الأحلام، فالطـب القديم بأكمله – والـذي يُطلـق عليـه الطـب المعبـدي – ظهر وتأسـس على أسـاس واحـد؛ ألا وهو تفسـير الأحلام. في هـذا تتلخص عبادة إسكيلبيوس إله الطب وابن أبوللو عند الإغريق.

لمـاذا وجَّهـوا كل هـذه الأهميـة للأحـلام؟ مـاذا كانـت دوافعهـم للقيام بذلك؟ أيمكـن أن تكون دوافـع دينية وصوفية فقط؟ أيمكن ألا يكون هناك أي عامل عقلاني خلف ذلك؟

لكن العالم القديم لم يكن بربريًا، فقد منحنا فلاسفة وكُتَّابًا وعلماء عظماء، وفي النهاية منحنا أيضًا أطباء عظماء مثل أبقراط

وجالينوس.

كيف كان يعالج هؤلاء الأطباء؟ إن تاريخ الطب يكشف لنا عن طريقة العلاج القديمة.

كانوا يضعون المريض ليلا داخل المعبد. وهناك يرى المريض أحلامًا. في الصباح يقص هذه الأحلام على الكهنة والعلماء، ويشخصون المرض ويُأوِّلون الحلم ويزعمون تخليصه من معاناته.

ارتبط الطب القديم بالطبع بعلاقة وثيقة بالكهنة والفرق الصوفية الدينية، وكانت الأضحيات تقدم لإله الطب، ودون شك كان بإمكان كل تلك الطقوس العلاجية الطقسية الاحتفالية السرية أن تؤثر على مخيلة المريض، وتستدعي بداخله الإيمان بقوة إله الطب. أيمكن أن يكون حدوث الشفاء كان مرتبطًا بالتنويم الذاتي؟

لا شك أن التنويم لعب دورًا مهمًا في العملية، لكنه لم يكن السبب الوحيد للعلاج.

يقول تاريخ الطب إن الطقوس الدينية المتعلقة بالعلاج توقفت بعد ذلك. أقاموا داخل المعابد ما يشبه المصحات. في هذا السياق بدأت تظهر بعض المدارس والجماعات الطبية داخل المعابد. خرجت لنا من المعابد شخصيات من قبيل أبقراط وجالينوس. متى ظهرت تحديدًا فكرة تفسير الأحلام؟ ولماذا شكَّلت هذه الفكرة أساس الطب القديم؟ ولماذا لم

تعد علمًا؟ ولماذا يحاول الكثير من الأطباء والعلماء في زماننا المعاصر ومن ضمنهم فرويد أن يصنعوا من تفسير الأحلام مذهبًا علميًا؟

لم أتمكن من التوصل إلى إجابة عن هذه الأسئلة.

وحينها بدأت أتصفح الكتب الطبية ودراسات الفيسيولوجيين كي أتعرف على ما يقوله العلم المعاصر عن الأحلام وحول إمكانية اختراق عالم الطفل القديم المنسي عبر هذه الأحلام.

٩

ما الحلم إذن من وجهة نظر العلم المعاصر؟

إنه قبل كل شيء حالة فسيولوجية تغيب فيها مظاهر الوعي الخارجية كافة. أو بمعنى أدق تتوقف كل الوظائف العقلية العليا، وتعمل فقط الدنيا منها.

اعتقد بافلوف أن الإنسان ينفصل عن العالم الخارجي ليلا، لكن في وقت النوم تعود كافة القوى المكبوحة إبان الصحو إلى العمل ثانية، وكذلك المشاعر المثبطة والأماني المكبوتة.

يحدث ذلك بسبب وجود عامل تثبيط داخلي للإنسان في أثناء النوم، لكن التثبيط يحدث بصورة جزئية، فهو لا يسيطر على المخ كاملا، ولا على كل نقاط القشرة المخية، ففي الحقيقة لا ينخفض إلى ما هو أسفل المراكز تحت القشرية.

يرى الفسيولوجيون أن العقل الإنساني يتألف من طابقين. الطابق الأعلى هي قشرة المخ، وفيها مركز التحكم والمنطق والقدرة النقدية ومراكز الأفعال الانعكاسية المكتسبة والخبرة الحياتية. أما الطابق السفلي فيحوي الأفعال الانعكاسية الوراثية والعادات والقوى الحيوانية.

ثمة روابط عصبية تربط بين هذين الطابقين.

في وقت الليل ينغمر الطابق الأعلى في قلب الحلم، وبسبب هذا يغيب الوعي؛ تغيب السيطرة والقدرة النقدية والعادات الشرطية المكتسبة.

أما الطابق السفلي فيواصل عمله، ويعمل غياب السيطرة على ظهور عناصره بدرجة قد تزيد أو تقل.

فلنفترض أن المنطق أو التطور العقلي قد ثبَّط أو تخلص من الخوف الذي راود الطفل في لحظة ما. يمكن لهذا الخوف أن يعاود الظهور ثانية في غياب السيطرة، لكنه يظهر حينها في الأحلام.

الحلم إذن يعد بمثابة استمرار للحياة العقلية والنشاط النفسي للإنسان في غياب السيطرة. يمكن للحلم إذن أن يُفسِّر نوعية القوى التي يكبحها الإنسان، وما الذي يخيفه، وبالتالي ما الذي يمكن للإنسان أن يقضي عليه بقوة المنطق في ضوء الوعي[1].

---

(١) ما حدث بعد ذلك كشف لنا أنه يمكن أن نكتشف سبب التثبيط

اكتشفنا الآن إذن لماذا أولى القدماء كل هذه الأهمية للأحلام. في الوقت ذاته يشعر المرء بالدهشة من أن العلم الحديث لم يستطع إلا مؤخرًا أن يفهم آلية عمل العقل، في الوقت الذي ظهرت فيه الفكرة في فجر الحضارة الإنسانية، منذ مرور عدة آلاف من الأعوام؛ أقصد فكرة أن نكتشف شيئًا ما في الأحلام التي لا سيطرة لنا عليها.

نحن لا نعرف من هو صاحب شرف تشكيل علم الطب القديم، فالأساس الذي بُنِي عليه هذا العلم القديم كانت فكرة مشرقة ولامعة لإنسان عبقري.

انتقلت هذه الفكرة من هذا العبقري إلى أناس متوسطي الموهبة، ومنهم إلى أناس عديمي الموهبة. بالتالي فقد انخفضوا بالفكرة إلى هذا المستوى الذي يتناسب مع مستواهم؛ أي أنهم انخفضوا بها إلى مستوى الدجل. خالط الهزل الفكرة، حتى إن الإنسان المعاصر لم يعد يمكنه ألا يضحك، وهو يطالع كتب تفسير الأحلام القديمة وطريقة تأويلهم الغريبة. في كل صفحة من صفحات هذه الكتب سوف يجد ما يكفيه من الهراء.

لقد ابتُذلت الفكرة الصحيحة في هذا الأمر بشدة حتى انخفضت إلى هذا المستوى الذي لم يعد فيه من الممكن فهمها.

لم يعد من الممكن فهم فكرة اختراق وعي المريض، وفهم سبب المرض إلا في ضوء علم الفيسيولوجا المعاصر

المرضي تحديدًا بطرق أخرى غير الأحلام. (الكاتب)

الذي جعل الأمر واضحًا.

لهذا يحاول العلماء المعاصرون أن يقاربوا الأحلام ثانية، وأن يكتشفوا من خلالها مصدر العُصاب[1]، ويعيدوا فهم ما قد يعد بحق مأساة العقل البشري.

١٠

قلنا إذن إن هناك طابقين داخل بناء عقلنا. لدينا إذن خبراتنا الحياتية والعادات المكتسبة الشرطية، مع خبراتنا الوراثية والعادات التي اكتسبناها من أسلافنا ومن الحيوانات.

الأمر كما لو أن عقلنا يضم عالمين داخل جهازه المعقد؛ ألا وهما عالم الحضارة، وعالم الحيوان. كثيرًا ما ينخرط هذان العالمان في صراع ضد بعضهما، وتتصارع قوانا السامية مع الدنيئة، وتنتصر الأولى وتُقصي الثانية إلى مستوى أخفض أو أحيانًا تطردها بعيدًا بصورة نهائية.

في هذا الصراع تحديدًا يكمن مصدر الكثير من آلامنا العصبية.

لكن البلية الحقيقية ليست في ذلك على الإطلاق.

لا أود أن أمضي بعيدًا جدًا، لذا سأختصر الأمر قدر الإمكان. حتى إن افترضنا أن هذا الصراع بين قوانا السامية والدنيا يعتبر مصدر آلامنا العصبية، فهو ليس سببًا شاملا؛ بل

(١) العصاب هو الاضطراب أو المرض العقلي.

هو مجرد سبب جزئي، ولا يمكن أن يكون السبب الرئيسي والأساسي لهذه الآلام.

دعنا نفترض أن هذا الصراع يؤدي إلى اضطرابات جنسية عديدة. إذا رأى العلم في هذا الصراع وفي هذه الحرب السبب الوحيد لذلك، فلن يمكنه أن يمضي قدمًا أبعد من اكتشاف التثبيطات الجنسية

يمكننا أن نقول إن الصراع في هذا المجال يعتبر أمرًا طبيعيًا إلى حد كبير، وليس مرضيًا.

يبدو لي أن عيب نظام فرويد يكمن في هذه النقطة تحديدًا. لقد حدث هذا الخطأ وهذا الانحراف ببساطة على يد شخص لم يضع في اعتباره الآليات التي اكتشفها بافلوف.

أدى عدم الدقة في بناء الافتراضات الأساسية والغموض في وصف صراع القوى السامية مع الدنيا إلى هذا الاستنتاج غير الدقيق الذي ألقى بالأمر كله إلى جانب واحد؛ ألا وهو الانحرافات الجنسية. لم تكن الانحرافات الجنسية تمثل المشكلة كلها، بل مجرد جزء منها.

١١

اعتقد فرويد أن مصدر كل الآلام العصبية يكمن في صراع القوى السامية مع الدنيا، وفي تصادم الميول الرجعية مع مشاعر الإنسان المعاصر المتحضر. كتب فرويد: «تحيا هذه الدوافع

تحت تأثير الكبت الذي تقوم به حضارتنا والقمع إلى أعماق اللا وعي، وتكشف عن نفسها لوعينا بصورة مشوهة". اعتقد فرويد إذن أن انتصار العقل على غرائزنا الحيوانية هو الذي يشكل السبب الحقيقي للمأساة التي نحيا فيها. بتعبير آخر صار العقل السامي عُرضة للشك.

يعرف تاريخ الفكر الإنساني أمثلة عديدة عزا الناس فيها مصائبهم إلى العقل، وتعرض فيها الوعي السامي للهجوم، واعتقد الناس تارة أن مأساة العقل الإنساني في درجة الوعي السامي، وتارة أخرى في الصراع بين القوى السامية والدُنيا. بدا لهم وقتها أن انتصار الوعي على الغرائز الدنيا يجلب الكوارث، ويتسبب في الأمراض والمعاناة العصبية وضعف الروح والعُصاب.

بدا لهم حينها أنه لا خروج من تلك المأساة إلا بالعودة إلى الماضي؛ العودة إلى الطبيعة، ونبذ الحضارة. بدا لهم أن طرق العقل البشري مخطئة ومصطنعة وغير ضرورية.

لا أعتقد أن هذه الفِكَر تطابق تمامًا الفِكْر الفاشي، فالأخير له جذور أخرى وطبيعة مختلفة، ولكن فيما يتعلق بالعلاقة بالعقل فيبدو أن الفاشية قد استعارت بعض الأفكار من هذه الفلسفة، وقد عملت على تحريفها وتبسيطها والانحدار بها إلى مستوى العقل البليد.

ليست فكرة العودة إلى البربرية من اختراع الفاشية لمجرد

حث الناس على الحرب؛ بل إنها واحدة من الشروط الرئيسة لإنسان المستقبل من وجهة نظرها.

البربرية والوحشية والغرائز الحيوانية تعتبر أفضل إذن من تقدم الوعي.

يا للهراء! إعادة الناس ثانية بشكل متعمد إلى البربرية لن يخلصهم بأي درجة على الإطلاق من هذه المعاناة العصبية التي يعانون منها. سوف تمتلئ الأرض بأوغاد غير مسئولين عن نذالاتهم، لكنهم لن يتخلصوا أيضًا من معاناتهم السابقة. إذا حدث ذلك لكان لدينا أوغاد يشعرون بالمعاناة والمرض بدرجة أكبر من الماضي.

لم تكن العودة إلى تلك الحالة البربرية المتناغمة التي كان الناس يتخيلونها ممكنة ولا حتى منذ آلاف الأعوام. حتى إذا كانت ممكنة لاستمرت المعاناة كما هي، فآليات المخ على حالها ذاته. ليس بإمكاننا أن نقضي على آلياته، بل كل ما يمكننا فعله أن نتعلم التعامل معها، وعلينا أن نتعلم ذلك الفن الجدير بوعينا السامي.

علينا أن ندرس باهتمام هذه الآليات التي كشف عنها بافلوف، فالقدرة على التعامل بطريقة حسنة معها سوف تُحرِّرنا من معاناة عظيمة يتحملها الناس بخنوع بربري.

ليس الوعي السامي هو ما يُشكِّل مأساة العقل البشري، بل بالأحرى نقصه.

لا يتسم العلم بالكمال. الحقيقة بنت الزمن، ولا بد أننا سنجد طرقًا أخرى أدق. بينما يحدث ذلك يمكننا عن طريق التحليل الدقيق أن نسبر غور هذا العالم البعيد للمريض؛ هذا العالم الذي لا تحكمه أي سيطرة من جانب العقل، هذا العالم الغارق في غياهب النسيان، والذي يمكننا أن نجد فيه مصدر بلايانا.

حينها يمكن للحلم أن يشرح لنا سبب التثبيط المرضي، ويمكن لنظام بافلوف من الأفعال المنعكسة الشرطية أن يُخلصنا من تلك البلايا بتتبع الأحلام، فما قد تم تثبيطه يمكن الكشف عنه. يمكن لضوء المنطق أن يكشف الحجاب عما تم تثبيطه باستخدام الوعي السامي، لا بالعودة إلى تلك البربرية القاتمة.

بعد أن استغرقت في التفكير في كل ذلك بدأت أدرك أنه بإمكاني الآن أن أحاول اختراق عالم الطفولة الغامض. لقد صارت المفاتيح في يدي الآن.

في عمق الليل تُفتح أبواب الطابق السفلي، ويغفو حراس وعيي، وحينها يمكن لظلال الماضي الكامنة أسفل طبقات عميقة أن تزورني في الأحلام.

أردت أن ألتقي فورًا بهذه الظلال، وأن أراها كي أتمكن في نهاية الأمر من فهم مأساتي أو مكمن الخطأ تحديدًا الذي حدث في بداية حياتي قبل شروق الشمس.

أردت أن أتذكر واحدًا من هذه الأحلام التي تكررت كثيرًا في الفـترة الأخيرة. لكني لا أسـتطيع أن أتذكـر حلمًا واحدًا منها بصورة كاملة. لقد نسيتها.

حينهـا أخـذت أفكـر في الأحـلام التي تـراودني أكثر من غيرها، وماذا كان موضوعها تحديدًا.

في تلك اللحظة بدأت أتذكر أني كثيرًا ما أحلم بنمور تدخل غرفتي، ومتسولين يقفون على بابي، وبحر أعوم فيه.

٦
الماء الأسود

وماء أسود كالرصاص
حيث النسيان فيه أبدي[1]

١

ذهبت بالمصادفة إلى القرية التي قضيت فيها أعوام طفولتي. خططت لزيارتها منذ مدة طويلة. وبينما أتجول ذات مرة على الشاطئ رأيت باخرة في الميناء، توجهت إليها بطريقة آلية، واستقللتها لأسافر إلى قريتي.

إنها قرية «بيسكي» الواقعة على ضفاف نهر النيفا، ولا تبعد كثيرًا عن شليسلبورج. لم أزر هذه الأماكن منذ أكثر من عشرين عامًا، لم تتوقف الباخرة عند قرية «بيسكي»، فلم يعد فيها ميناء، لذا عبرت النيفا على متن قارب صغير.

آه... يا لفرط الاضطراب الذي شعرت به بعد أن خرجت إلى الشاطئ! تعرفت فورًا تلك الكنيسة الصغيرة المستديرة. وجدتها في مكانها كما كانت. سرعان ما تذكرت الأكواخ الصغيرة المواجهة لها، وشارع القرية، والتلة المرتفعة التي يوجد عندها

---

(١) من قصيدة: ذلك الحلم القديم لبلوك.

الشاطئ الذي كان ذات يوم رصيفًا مرفأ. كل ذلك بدا لي بائسًا وصغيرًا مقارنة بالصورة الهائلة التي تبقت له في ذاكرتي. سرت في الشارع وبدا لي كل شيء من حولي مألوفًا حد الألم عدا الناس، فلم أستطع التعرف إلى واحد فقط ممن التقيتهم من الناس في طريقي، حينها عرجت على ساحة ذلك المنزل الذي عشنا فيه يومًا ما.

رأيت امرأة قد فارقت مرحلة الشباب واقفة في ساحة المنزل. أمسكت في يدها لوحًا خشبيًا، وقد انهمكت في مطاردة أحد العجول في الساحة. الآن يبدو عليها الغضب والانفعال، لم ترد أن تتحدث معي، لكنني عدَّدت على أسماعها ما تذكرته من أسماء بعض الأسر التي عاشت في الجوار .

لا... كلها أسماء أسر قضى أفرادها نحبهم.

حينها أخبرتها باسمي وباسم أبي وأمي فابتسمت. قالت لي إنها حينها كانت لا تزال صغيرة، لكنها تذكر أبي وأمي بوضوح، ثم أخذت تُعدِّد عليَّ أسماء أقاربي الذين عاشوا هنا وبعض معارفي. لا... كلها أسماء أفراد قضوا نحبهم.

عدت إلى قاربي الصغير حزينًا.

سرت في شارع القرية حزينًا. الشارع والمنازل كما هم، ولكن الناس تغيروا. عاش السالفون هنا ضيوفًا على هذه القرية، وسرعان ما تلاشوا ورحلوا إلى مكان لا عودة منه، فقد قضوا نحبهم.

بدا لي أني قد فهمت في هذا اليوم طبيعة الحياة والموت، وكيف يتوجب عليَّ أن أعيش.

٢

عدت إلى منزلي بحزن عظيم، ولم أعد أفكر حينها في مواصلة بحثي ولا في طفولتي. بدا لي وقتها كل شيء بلا جدوى.

بدا كل شيء لي محض هراء وتفاهة عندما ينظر لها المرء على خلفية هذه الحياة القصيرة التي رأيتها اليوم.

ما جدوى التفكير والنضال والبحث والدفاع عن النفس؟ ما جدوى أن يتعامل المرء بطريقة الحساب والخسارة في حياة تمضي بهذه السرعة المفرطة المسيئة للمرء والهزلية في الآن ذاته؟

أليس من الأفضل أن يعيش الإنسان حياته كما هي دون شكوى، وأن يترك مكانه البائس على هذه الأرض لتنبت فيها بتلات أخرى؟

بينما أفكر في هذه الأمور تناهى إليَّ صوت ضحك أحدهم من الغرفة المجاورة. بدا لي أنه أمر غريب ووحشي أن يستطيع الناس الضحك والهزل، بل وحتى التحدث بينما كل شيء من حولنا بهذه الحماقة والعبثية، ويسيء إلينا إلى هذا الحد.

بدا لي أنه من الأسهل والأبسط أن يموت المرء عن أن ينتظر بإذعان وبلادة المصير الذي ننتظره جميعًا. وجدت فجأة

أن اتخاذ هذا القرار أمر شجاع حقًا. كم كنت سأشعر بالدهشة إن أخبرني أحدهم حينها ما أعرفه الآن؛ ألا وهو أن هذا القرار لا ينطوي على أي قدر من الشجاعة، بل هو قدر متطرف من الصبيانية! لقد كان ذلك نتاجًا لخوف طفولي مما أردت أن أكتشفه. كان ذلك نوعًا من العناد... كان هروبًا.

قررت أن أتوقف عن أبحاثي، ونمت بعد أن اتخذت هذا القرار.

استيقظت في قلب الليل من فرط الخوف الذي شعرت به من جراء كابوس مخيف. كان شعوري بالخوف قويًا إلى حد أن جسدي واصل ارتعاشه حتى بعدما استيقظت من النوم.

أوقدت ضوء المصباح وكتبت الحلم حتى أتفحصه مليًا في الصباح عندما أستيقظ، بدافع من الفضول ليس أكثر.

لكني لم أستطع النوم، وأخذت أفكر فيه.

في الحقيقة كان حلمًا غبيًا للغاية. نهر مظلم عاصف، مياهه عكرة حد السواد، وشيء أبيض يسبح وسط هذه المياه... قد تكون ورقة أو خرقة. أنا واقف على الشاطئ. أهرب بعيدًا عن الشاطئ بأقصى سرعة. أركض عبر أحد الحقول، ولسبب ما يبدو الحقل أزرق. أحدهم يطاردني، ويريد أن يُمسك بي من كتفي، وتلمسني يده بالفعل إلا أني لا أبالي بذلك وأستمر في ركضي إلى الأمام.

أخذت أفكر في هذا الحلم لكني لم أصل إلى شيء.

حينها أدركت أني حلمت بالمياه ثانية. إنها مياه قاتمة سوداء، وتذكرت فجأة أبيات بلوك الآتية:

قديم قديم هو الحلم.. رؤية ضبابية
المصابيح تركض ولكن إلى أين؟
ما من شيء هنا سوى ماء أسود
حيث النسيان فيه أبدي

كان ذلك الحلم مشابهًا لحلمي.

أنا أركض بعيدًا عن ماء أسود... بعيدًا عن النسيان الأبدي.

٣

بدأت أتذكر أحلامي المرتبطة بالماء. في أحدها أعوم وسط مياه عاصفة، أكافح الأمواج. في حلم آخر أخوض وسط المياه التي تصل إلى ركبتيَّ، وفي حلم ثالث أجلس على الشاطئ وتغسل المياه قدميَّ أو أسير على رصيف الميناء، وفجأة ترتفع المياه أكثر فأكثر، ويكتنفني الخوف وأهرب.

تذكرت أيضًا حلمًا آخر. أجلس في غرفتي. تبدأ المياه في التسلل فجأة من كل شقوق الأرض. لا تمر دقيقة أخرى إلا وتكون المياه قد غمرت الغرفة تمامًا.

عادة ما أستيقظ بعد هذه الأحلام شاعرًا بالكآبة والمرض، وأني في حالة نفسية سيئة جدًا. عادة ما تزداد كآبتي بعد هذه الأحلام.

أيمكــن أن تكــون فيضانــات لينينجــراد الكثيرة قــد أثَّرت عليَّ؟ أيمكن أن يكون الأمر مرتبطًا بالمياه؟

أخذت أتذكر تلك المشــاهد التي دونتها إبان رحلة بحثي عــن تلك الحادثــة المشــئومة التي تســببت في حالتــي. تذكرت أيضًــا قصة الرجل الغــارق، والفيضان، والمشــاهد التي كدنا أنا وشقيقتاي أن نغرق فيها.

لا شــك أن الميــاه ارتبطــت بشــعور مــا قــوي، ولكــن ما الشعور؟

أيمكــن أن يكــون الأمــر أني أخاف المياه بشــكل عام؟ لا، علــى العكس من ذلك. أنا أحب المياه جــدًا. يمكنني أن أقضي ســاعات متواصلة من العوم في البحر. يمكنني أن أقضي ساعات جالسًــا على ضفة النهر. عادة ما كنت أسافر عبر البحر أو النهر. لقد ســعيت كثيرًا إلى أن أجد غرفــة ذات نافذة تطل على المياه، وحلمت دومًا بالعيش في مكان ما يطل على الشــاطئ، قريبًا جدًا من المياه بحيث تصل المياه قرب درجة باب المنزل.

كثيــرًا ما أعــاد النهر أو البحــر لي هدوئي عندمــا راودتني نوبات الاكتئاب المريعة.

ولكن ماذا إن لم يكن هذا حبًا للمياه، بل خوف منها؟

مــاذا إن كان خوف مشــوب بالاحــترام يكمــن خلف هذا الحب المبالغ فيه للمياه؟

أيمكــن أن أكون في حقيقة الأمر لا أحــب المياه بل أراقبها

فحسب؟

أيمكـن أن أكـون منخرطًا في مراقبتها من على الشـاطئ أو من النافذة؟

أيمكـن أن يكون سـبب إقامتـي بالقرب منها هـو أن أكون على حذر لئلا تدركني على حين غرة؟

أيمكـن أن يكـون ذلـك الخـوف هـو الذي لـم يصل إلى طبقات وعيي، واستقر في الطابق السفلي من عقلي مدفوعًا هناك بقوة المنطق وسيطرة العقل؟

انخرطـت في الضحك، فقد بدا لي الأمر هزليًا، وفي الوقت ذاته حقيقيًا.

ليس هناك أدنى شـك إذن من حضور الخوف من المياه في عقلي، لكن هذا الخوف قد تشـوه، ولـم يعد يبدو بالصورة التي نعرفها.

٤

بدا لي حينها أني قد فهمت حلمي. إنه يعود دون شـك إلى فترة طفولتي. وإذا أردت فهمه عليَّ أن أتحاشى الأفكار المعتادة كي أتمكن من التفكير بطريقة تفكير الطفل وأنظر إلى الأمور من منظوره.

بالطبـع لا يمكننـي التفكيـر بطريقة الأطفـال كاملا، فهي طريقة أشـد محدودية، وقد تبدلت مع تطور الطفل. ولكن رموز

هذه الطريقة ظلت كما هي.

المياه العاصفة العكرة هي حوض الاستحمام أو الدلو المليء بالماء. الشاطئ الأزرق هو الغطاء، والخرقة البيضاء هي حفاض الطفل الذي يبقى في حوض الغسيل. لقد انتشلوا الطفل من الماء الذي يحممونه فيه. لقد أنقذوا الطفل لكن الخطر ما زال قائمًا.

ضحكت ثانية. كان الأمر هزليًا لكنه مؤكد. كان الأمر ساذجًا، لكنه ليس أكثر سذاجة مما يجب.

لكن كيف يمكن أن يكون ذلك قد حدث؟ إنهم يحممون جميع الأطفال، ويغمرونهم جميعًا في الماء، ولا يظل الخوف كامنًا في قلوب الأطفال بعد ذلك، فلماذا ظللت أشعر بالخوف هكذا؟

قلت في نفسي: ربما ليست المياه إذن هي مصدر الخوف الحقيقي، وأن هناك شيئًا ما آخر يشكل مصدرًا للخوف مرتبطًا بالمياه.

هنا تذكرت مبدأ الأفعال المنعكسة الشرطية.

بإمكان باعث واحد أن يتسبب في إحداث بؤرتين من الاستثارة، وترتبط البؤرتان سويًا برابطة عصبية شرطية.

لذا فالمياه التي غمروني فيها لا يمكنها وحدها أن تُثير بداخلي كل هذا الاضطراب. هذا يعني أن المياه ارتبطت شرطيًا بشيء ما آخر. هذا يعني أن الأمر لم يكن مجرد خوف من الماء؛

بل إن الماء استدعى خوفًا آخر بداخلي، وتكونت روابط عصبية بيـن المـاء والخوف مـن خطر ما. هكـذا كانت المسـألة معقدة للغاية، وهذا ما يفسر قدرة الماء على إثارة خوفي.

ولكن ما الشـيء الذي ارتبط بالماء؟ ما طبيعة السـم الذي تخفيه المياه بين طياتها؟ ما هذا الباعث البائس الآخر الذي أدى إلى استجابة عنيفة إلى هذه الدرجة؟

حتى هذه اللحظة لم أكن قد استطعت أن أخمن بعد ماهية هذا الباعث الثاني، وبؤرة الاسـتثارة الثانية واللتين ربطت بينهما دوائر عصبية.

إلا أن هذا الباعث الثاني قد كشـف عن نفسه جزئيًا في ذلك الحلـم. إن عالم الطفل محـدود للغاية، ولا يحوي سـوى عدد محـدود من الموضوعـات. البواعث فيه محـدودة، لكن خبرتي القليلة بالأمر هي ما خالت بيني وبين اكتشاف هذا الباعث الثاني سريعًا.

لم أستطع حل اللغز، لكن مفاتيحه كانت بين يديَّ.

مـا حدث بعد ذلك كشـف عن أني لم أخطـئ في تصوري الأساسـي، لكني أخطـأت فقط في عدد بؤر الاسـتثارة العصبية، فقـد تبين أنهـا لم تكن بؤرتيـن فقط، بل عدة بـؤر. وقد ارتبطت هذه البؤر بعضها بشبكة معقدة من الروابط العصبية الشرطية.

هـذه التركيبة المختلفة من بؤر الاسـتثارة هي التي أنتجت هذه الاستجابة أو تلك.

٥

يخبرنا مبدأ الانعكاسات الشرطية أن الروابط العصبية ذات طبيعة مؤقتة، ولابد من تكرار التجارب حتى تظهر هذه الانعكاسات وتتوطد دعائمها. من دون هذه التجارب سيكون مصيرها إلى التلاشي كلية.

حسنًا... في هذه الحالة تعتبر المياه باعثًا قويًا ممتازًا في حياة الطفل. التكرار حادث لا محالة، لكني لم أعرف بعد طبيعة الباعث الثاني، لكن صار من المفهوم لي إلى أي حد يمكن أن تتوطد دعائم رابطته الشرطية بالماء.

لكن كان من المفترض أن تتلاشى هذه الرابطة مع تطور ونمو الطفل، فالتكرار لا يمكنه أن يستمر إلى الأبد، وإذا لم يستطع الطفل أو الشاب أن يمزق هذه الرابطة المزيفة فلابد أنه يستطيع ذلك وهو رجل بالغ في نهاية الأمر. فمن الواضح أن هذه الرابطة كانت خاطئة.

من المؤكد أن التطور العقلي يناضل ضد التصورات الخاطئة والمزيفة وغير المنطقية، إلا أن الطفل بينما ينمو ويتطور بإمكانه أن يصطدم بعلامات أخرى أكثر منطقية للخطر الذي يخاف منه.

أخذت أعيد فحص ذكرياتي المرتبطة بالماء.

وجدت في كل خطوة علامات على خطورة الماء.

أنـاس يغرقـون في الماء، وأنا أيضًا أغـرق في الماء، وتغمر المياه المدينة، وأناس يُلقون بأنفسهم في الماء كي يقضوا نحبهم.

يا لقوة الأدلة على خطورة الماء!

لا شك أن الماء يمكنه أن يخيف طفلا، ويثبت له أن أفكاره الطفولية الساذجة صحيحة.

ربمـا رافقتني هـذه الدلائل المزيفة طـوال حياتي. لا بد أن هذا ما حدث دون شك.

لقـد حفظت المياه بداخلها عناصر الخوف، وغذَّت خوفي الطفولـي، ويمكـن أن تكـون هـذه الروابـط المؤقتة لـم تبدأ في التلاشي، بل استمرت وازدادت قوة وصلابة.

هذا يعني أن تطور الإنسان العقلي لا يعمل بالضرورة على تدمير هذه الروابط الشـرطية المؤقتـة، بل يُصلحها ويرفعها إلى مسـتواه. قد يبحث عن هذه الدلائل إذن دون أن يختبرها جيدًا، وبهـذا يمكنهـا أن تعيـش في أعماق المنطـق بعد أن تجـد التربة المريضة التي تناسبها.

كثيـرًا مـا تندمج هـذه السـمات الكاذبة بأخـرى حقيقية. المـاء فعلا خطير، ولكـن المريض العصابـي لا يتعامل مع هذه الخطورة بطريقة معتدلة، ولا تكون ردة فعله تجاه هذه الخطورة عادية أبدًا.

٦

إذا كان الأمر كذلك، وإن كانت المياه أحد عناصر الخوف، وأحد تلك البواعث التي تشترك في تركيبة عُصابي، فيا لها إذن من لوحة حزينة بائسة قد انكشفت لناظريَّ!

لقد حاولوا علاجي بالماء تحديدًا! لقد حاولوا أن يخلصوني من كآبتي بالماء تحديدًا!

لقد وصفوا لي علاجًا بالماء سواء بتناوله أم بغمر جسدي فيه. لقد وضعوني في أحواض استحمام، وغطوني بملاءات مبللة، وطلبوا مني أن أستحم كثيرًا بالوقوف تحت الدش وأرسلوني للبحر وأوصوني بالسفر والسباحة.

يا إلهي! علاج من هذا النوع يكفي وحده أن يصيبني بالاكتئاب.

من شأن علاج كهذا أن يُزيد من حدة الصراع، ويتسبب في وضع شديد التعقيد لا مناص منه.

إذا كانت المياه تشكل جزءًا من بليتي فلا شك أنه الجزء الأشد تدميرًا.

مع ذلك لم يؤد العلاج إلى وضع ميئوس منه. كان بإمكاني أن أتوقف عن هذا العلاج، وهذا ما فعلته. توقفت فعلا عن

العلاج.

حتى أتوقف عن العلاج ابتكرت نظرية سخيفة مفادها أن الإنسان إذا أراد أن يتمتع بتمام الصحة عليه أن يعمل طوال الوقت دون توقف. توقفت عن السفر إلى المنتجعات الصحية بعد أن اعتبرت ذلك مجرد ترف لست في حاجة إليه.

هكذا توقفت عن العلاج.

لكني لم أستطع أن أتوقف عن التصادم المستمر بشعوري بالخوف، وواصل الخوف عمله بداخلي.

لم يكن هذا الشعور بالخوف في نطاق الوعي، ولم أكن أعرف بوجوده، أو أنه انغمر في الطابق السفلي لعقلي. لم يسمح له الحراس القائمون على حراسة عقلي بالظهور، لكنه لم يحز الحق في التعبير عن نفسه إلا في الليل عندما لا تكون سيطرة الوعي فعَّالة.

عاش هذا الخوف حياة ليلية وسط الأحلام. أما نهارًا، و في أثناء التصادم مع أحد الموضوعات التي تثير الخوف، فيظهر فقط بشكل غير مباشر عبر رموز غامضة من شأنها أن تُحيِّر أي طبيب.

نحن نعرف طبيعة الخوف، ومدى تأثيره على أجسادنا. نحن نعرف الأفعال الانعكاسية الدفاعية التي يطلقها في الجسد، وهي تتأسس جميعًا على السعي إلى الهروب من المخاطر.

أعراض الخوف متنوعة، وهي تعتمد على مدى قوة

الخوف. يمكنهـا أن تظهر في تقلص الأوعيـة الدموية، ويمكنها أن تظهـر في صورة تقلصات في الأمعاء، وتشـنجات العضلات، وفي تسـارع ضربات القلب.... إلخ. أما أقصى درجات الخوف فيمكنها أن تتسبب في شلل كامل أو جزئي.

هـذه تحديـدًا هي الأعـراض التـي ينتجها الخـوف الذي يراودني في حالاتي غير الواعية. أدى بصورة أو بأخرى إلى نوبات قلبية وشعور بالاختناق وتشنجات عضلية.

إنهـا قبل أي شـيء آخـر أعـراض الخـوف. كان حضوره المزمن يفسـد وظائف جسـدي، ويؤدي إلى تثبيط مستمر ومن ثم إلى أمراض مزمنة.

تتأسـس هـذه الأعراض جميعًـا على هدف قصـدي، فقد سدت طريقي صوب مكمن الخطر، وأعدَّتني للهروب.

الحيـوان الـذي لا يسـتطيع الهـروب مـن الخطـر يتظاهر بالموت.

في بعض الأحيان تظاهرت بالمـوت والمرض والضعف، وذلك حينما لا يكون باستطاعتي أن أبتعد عن مصدر الخطر.

كل ذلـك كان بمثابة اسـتجابة للاسـتثارة الخارجية. لقد كانت اسـتجابة معقدة، فالروابط العصبية الشـرطية كما سـنرى بعد ذلك كانت شديدة التعقيد.

٧

من الممكن أن نتفهم أن يسـلك طفل بهذه الطريقة آملا أن

يهرب من المخاطر، ولكن كيف يسلك البالغ؟

كيف سلكت أنا شخصيًا؟ ألم أستطع حقًا أن أناضل ضد كل هـذا الهراء؟ أيمكن حقًا أن يكون كل ما فعلته لإنقاذ نفسي هـو الهروب؟ أيمكن أن أكون مجرد ذرة غبار بائسة يمكن لأي مصادفة أن تشيح بها هنا وهناك؟

لا... لقد ناضلت ضد ذلك، وحاولت أن أدافع عن نفسي ضد هذه البلايا الكامنة في اللاوعي، وفي كل مرة كان هذا الدفاع يتواءم مع درجة تطوري.

انصب سلوكي في أعوام الطفولة في الأساس على الهروب، وبدرجة ما على محاولة الانتصار على المياه وترويضها. جرَّبت تعلُّم السباحة، لكنني لم أستطع فعل ذلك. أمسكني الخوف بعناد.

لم أستطع تعلم السباحة إلا وأنا شاب حين استطعت السيطرة على هذا الخوف.

كان هذا انتصاري الأول، وللأسف كان انتصاري الوحيد. أذكر جيدًا كم شعرت بالفخر.

لم يبعدني وعيي بعدها عن هذه الصراع؛ بل على النقيض؛ قادني صوبه. في كل مرة حاولت أن ألتقي بعدوي القوي لأوائم مستوى قوتي بمستوى قوته.

في هـذا تحديدًا يمكن أن نجد ذلـك التناقض الذي أخفى خوفي.

لم أتهرب من السفن والزوارق، ولم أتجنب وجودي في قلب المياه. فعلى الرغم من خوفي كنت أمضي عمدًا إلى هذه المعركة. لم يرد وعيي أن يعترف بهزيمته أو حتى خوفه.

أذكر جيدًا ذلك الحادث على الجبهة. كنت أقود الكتيبة إلى موقعها. رأينا أمامنا نهرًا. شعرت بالارتباك لوهلة. لم يكن عبوره أمرًا صعبًا، ومع ذلك أرسلت جنود الاستطلاع يمينًا ويسارًا كي يكتشفوا أنسب مكان يمكن منه العبور. أرسلتهم والأمل يساورني في أعماق قلبي أن يجدوا ممرًا ما جافًا يمكن العبور منه. كان ذلك في بداية الصيف ولم تتوفر مثل هذه الممرات. شُدهت لبرهة قصيرة من الزمن، وأمرت جنود الاستطلاع بالتراجع وقدت الكتيبة عبر النهر. أذكر جيدًا مدى اضطرابي ونحن نخوض في الماء. أذكر تسارع ضربات قلبي التي لم أستطيع التواءم معها إلا بصعوبة.

بدا لي أني تصرفت على نحو صحيح، فعبور المياه واحد في كل مكان، وقد سعدت لأني لم أتباطأ، وأني تصرفت بحسم. هذا يعني أني لم أكن أداة طيِّعة في يد الخوف. في كل مرة كان سلوكي يتم بدافع من الواجب والضمير والوعي. لكن الصراع الذي كان ينجم عن ذلك كثيرًا ما كان يُمرضني.

مارس الخوف تأثيره عليَّ مستقلا عن العقل. كانت الاستجابة العاصفة للاستثارة تحدث خارج حدود وعيي. لكن أعراض المرض كانت واضحة للغاية. لم أعرف مصدر

المـرض، وقد شـخَّص الأطباء حالتي على أنهـا عُصاب قد نتج عن العمل الشاق والإنهاك.

علـى الرغـم مـن أني شـعرت بعدم تكافـؤ القـوى، فإني واصلـت صراعي ضد الخوف الكامـن في اللاوعي. وكم كانت الحـرب غريبة! يا للطرق الغريبة التي سـلكتها كـي أحرز نصرًا مشكوكًا فيه!

٨

رجـل يبلـغ من العمـر ثلاثين عامًـا، ويريـد أن يتحرر من خوفه بدراسة الماء، متسلحًا بالعلم والمعرفة.

بدا ذلك مدهشًا، فقد شارك الوعي في المعركة. لا يمكنني أن أفهم بصورة كاملة كيف سـلكت هـذه الطرق. لم يكن عقلي الواعـي قد اكتشـف آليـات كآبتي، وربمـا لهذا السـبب تحديدًا اخـترت طريقًـا عامًا قد يبـدو أنه صحيـح، لكنه في هـذه الحالة خاطئ بل وهزلي.

بدأت أمـلأ كل دفاتر ملاحظاتي ومذكراتي بملاحظات عن الماء.

إنها أمامي الآن. أنظر إليها مبتسـمًا. ها هي ملاحظات عن أعنـف العواصف والفيضانـات التي عرفها العالـم. أمامي أدق التفاصيـل عـن أعمـاق الميـاه والمحيطـات، ومعلومات حول أشـد المياه اضطرابًا... عن الشواطئ الصخرية التي لا يمكن أن

تقترب المراكب منها، وكذلك عن الشلالات.

هذا مقطع مُعلَّم باللون الأحمر:

«تغطي المياه ٧١٪ من سطح الأرض، ولا تشكل الأرض الجافة أكثر من ٢٩٪».

وهذا مقطع آخر مأسوي باللون الأحمر كذلك:

«تشكل المياه ثلاثة أرباع الكرة الأرضية».

وهاكم مقاطع أخرى مأسوية يمكن عن طريقها رصد نسبة المياه داخل جسم الإنسان والحيوان والنبات:

«الأسماك: ٧٠-٨٠٪ - قناديل البحر: ٩٦٪ - البطاطس: ٧٥٪ - العظام: ٥٠٪».

يا لكل هذا العمل الهائل الذي قمت به! وكم هو عمل أخرق!

أمامي هنا دفتر صغير مليء بكل أنواع المعلومات عن الرياح. السبب واضح، فالرياح هي ما تُسبِّب الفيضانات والعواصف والزوابع. هاكم بعض المقاطع منها:

«حركة أوراق الشجر: ٣ متر\ ثانية - اهتزاز الأفرع الكبيرة: ١٠ متر\ ثانية - ريح قوية: ٢٠ متر\ ثانية - عاصفة: ٣٠ متر\ ثانية - عاصفة تتحول إلى إعصار: ٣٥ متر\ ثانية - إعصار يُدمِّر البيوت: ٤٠ متر\ ثانية».

تحت هذه السطور ثمة ملاحظة:

«تاي(тай) تعني غير عادي - فونج (фунг) تعني

الريح. بلغت قوة الإعصار الاستوائي الذي حدث في عام ١٨٩٢ في جزر موريشيوس: ٥٤ متر\ ثانية».

أمامي أيضًا كراسة أخرى تضم معلومات عن الفيضانات التي حدثت في لينينجراد.

ابتسمت في البداية بينما أتصفح دفاتر ملاحظاتي هذه، ثم تحولت الابتسامة إلى شعور بالأسى. يا لها من حرب مأسوية! يا لها من طريقة عقلانية وفي الوقت ذاته بربرية، تلك التي توصل إليها وعيي كي يتمكن من ترويض العدو بالمعرفة، ويدمر الخوف ويحرز النصر!

يا لها من طريقة مأسوية تلك التي وجدتها! لكنها لاءمت درجة تطوري العقلي.

٩

انعكس هذا الطريق الذي سلكته على عملي الأدبي.

هنا يجب أن أتوقف وقفة قصيرة. لا أريد القول أبدًا أن هذا الطريق؛ أي الخوف أو الرغبة في التخلص من الخوف، قد حدَّد مصير حياتي وخطواتي وسلوكي وكآبتي وأهدافي الأدبية.

الأمر على النقيض تمامًا من ذلك. لو لم يكن لديَّ أي خوف لأتى سلوكي على الشاكلة ذاتها، لكن الخوف أربك خطواتي وزاد من توعكي، ودعَّم كآبتي التي كانت من الممكن أن تكون موجودة في غيابه لأسباب أخرى، أو بسبب هذه

الظروف التي يمر بها الناس جميعًا.

الخوف لم يُحتِّم طريقي، لكنه كان واحدًا من عنلصر مجموعة معقدة من القوى التي تؤثر على الإنسان.

كنت سأخطئ إن لم آخذ في اعتباري هذا العامل، لكن الخطأ كان من الممكن أن يكون أفدح لو اعتقدت أن هذا العامل هو الوحيد المؤثر على الإنسان.

لا يمكن حل المسألة إلا بشكل مركَّب.

لقد شاهدت هذا التركيب والتعقيد بينًا في سلوكي. لم يكن المحرك الرئيس هو الخوف؛ بل قوى أخرى: الواجب – العقل – الضمير. بدت هذه القوى أقوى فاعلية من القوى الدُنيا.

اتسلم سلوكي بالعقلانية، فلم يقدني الخوف من يدي كالأعمى، لكنه حضر في داخلي، وقد عمل على تعطيل عمل جسدي الطبيعي، وأجبرني على الهروب من المخاطر إن لم تحضرني مشاعر أو مسئوليات سامية.

ضغط عليَّ بقوة، والأكثر من ذلك أنه أثَّر على حالتي الجسدية.

اعتزم وعيي القضاء عليه، أما تطوري العقلي فقد اختار طريق المعرفة، وشاركت أيضًا مهاراتي الأدبية المهنية في هذا الصراع، فمن بين مواضيع كثيرة كان أكثر ما شغلني تلك المرتبطة بالمياه. ملت بشكل خاص إلى هذا الاتجاه.

قضيت نصف عام تقريبًا في دراسة هذه المواد، بدءًا من كل

ما يتعلق بإبرون[1] وحتى غرق سفينة «الأمير الأسود»[2].

بينما أعمل على هذا الكتاب فحصت بدقة كل ما له علاقة بالموضوع. سافرت إلى مكان العمل، وتعرفت على تفاصيل الغوص، وجمعت موادّ مختلفة عن كل ما له علاقة بالموضوع.

بعد أن انتهيت من كتاب: «الأمير الأسود» بدأت على الفور في جمع المواد عن غرق الغواصة ٥٥[3]. لكنني لم أنه هذا الكتاب. لم أعد أشعر بالاهتمام بهذا الموضوع، ربما لأني وجدت بعد ذلك طريقة أكثر عقلانية تساعدني في هذه الحرب.

هكذا أردت إذن أن أتخلص من كآبتي ومن خوفي الكامن في اللاوعي بدراسة المياه من مختلف جوانبها. لم يكن لهذا الخوف علاقة بالماء، لكن الماء استدعاه لأنه ارتبط شرطيًا بمصدر آخر للخوف. أود أن أُكرِّر أن الحرب ضد هذا الخوف سارت بما يتناسب مع مستوى تطوري العقلي. يا لها من حرب مأسوية! يا للحزن والهزيمة اللتين كانتا تنتظراني من جراء هذه الحرب! يا للضربات المريعة التي كانت في انتظار جسدي

---

(١) المصطلح بالروسية يشكل الخمسة حروف الأولى من «حملة العلميات الخاصة تحت الماء».

(٢) اسم سفينة إنجليزية غرقت بسبب إعصار في بالاكلافا في نوفمبر ١٨٥٤ في أثناء حرب القرم.

(٣) غواصة بريطانية غرقت في بحر البلطيق في عام ١٩١٩. انتشلها الروس من المياه بعد غرقها بتسعة أعوام، وأعادوها إلى العمل في عام ١٩٣١.

البائس! ما البلايا التي تنتج عن الوعي السامي ويمكن أن أتحدث عنها؟

يمكننا الآن أن نتحدث فقط عن العقل الذي ليست لديه المعرفة الكافية. يمكننا أن نتحدث عن هذا الهمجي الفظ الصغير البائس الذي يتسكع في مسار جبلي ضيق بالكاد تتهادى إليه أشعة شمس الصباح الأولى.

١٠

هكذا كانت خطواتي الأولى في البحث عن ذلك الحادث البائس.

لقد تم هذا الحادث في لحظات لقائي الأولى بالعالم من حولي، ولابد أنه قد تم في ساعات الفجر الأولى قبل شروق الشمس.

لم يكن حتى حادثًا، بل خطأ، صدفة تعيسة، تركيبة مدهشة من المصادفات.

أدت هذه المصادفات إلى تصورات مريضة غير حقيقية عن بعض الأشياء، ومن بينها الماء.

لقد كانت دراما لم يكن لي ذنب فيها سوى معاناتي.

لكن نهاية هذه المسرحية لم يُكشف عنها النقاب بعد.

مزقنا الثعبان لكنه لم يمت بعد

يلملم أشلاءه ويعود إلى الحياة[1]

كان عليَّ أن أجد تلك الروابط العصبية الشرطية التي ربطت الماء بشيء آخر غامض قد يكون أشد إثارة للرعب. بدون هذا الشيء لم يكن من الممكن للماء أن يثير أي خوف.

هكذا مضيت قدمًا، واثق الخطوة، لأكمل بحثي عن ذلك الحادث البائس.

---

(١) مكبث - شكسبير. الفصل الثالث.

٧
أغلقوا الأبواب

مزقنا الثعبان لكنه لم يمت بعد
يلملم أشلاءه ويعود إلى الحياة

١

حدث كثيرًا أن رأيت متسولين في أحلامي، متسخين، يرتدون خرقًا وأسمالا.

يدقون على باب غرفتي، أو يظهرون بغتة في الطريق.

كنت حينها أستيقظ خائفًا، وأحيانًا مرتعبًا تمامًا.

أخذت أفكر: لماذا أرى متسولين في أحلامي؟ لماذا يخيفونني؟ أيكون المتسول مصدر استثارة شرطية أخرى مثل الماء؟

لا، يغيب نموذج المتسول تمامًا عن مشاهد ذاكرتي. ثمة مشهد واحد قصير حدث عندما بلغت من العمر ثلاثة أعوام: أذكر أمي وهي تدفعني بهزل إلى أحد المتسولين.

أيكون هذا المتسول قد بعث فيَّ الخوف؟ أيمكن أن يكون قد ظل بداخلي شعور غير واعٍ بخوف طفولي سخيف، وقد راود أحلامي؟

أذكر أولئك المتسولين الذين التقيت بهم في الشارع.

لا، لـم أكن أشـعر بأي خوف منهم، ولم أستشـعر أي اضطراب داخلـي إزاءهم. لكن لا بد أن يكون مثل هذا الخوف حاضرًا في النهار حتى لو بأدنى درجة ممكنة. لقد رأينا هذا الخوف المُشوَّه للمياه. عـبر عن نفسـه نهارًا في صـورة أعراض غريبـة. انعكس على حيـاتي بأكملها، ولقد ناضلت ضد هـذا الخوف الكامن في لاوعيي متسـلحًا بالمعرفـة، وكانت حربًا هائلـة. بقت آثار هذه الحـرب التراجيديـة المجنونـة في دفاتر ملاحظـاتي، وكذلك في أعمالي الأدبية.

حينهـا فتحـت دفاتـر ملاحظاتي، ظنًـا مني أني قـد أجد في صفحاتها آثارًا لحرب جبارة جديدة، وآثار مناوشـات جديدة مع عدو قابع في اللاوعي.

لكـن هذه المرة لم أجد ما أبحـث عنه في دفاتر ملاحظاتي. لم أجد أدنى إشـارة إلى ذلك، ولا حتى أي شيء يمكن أن يشير إلـى زيـادة الاهتمـام بموضـوع جديد... حينها بـدأت أتفحص أعمالي وكتبي.

لا شـك أن موضوع المتسول قد أثار اهتمامي للغاية، لكنه كان إهتمامًـا أدبيًا عاديًـا بظاهرة اجتماعيـة، حضر الموضوع في كتاباتي بالدرجة التي يجب أن يكون حاضرًا بها في كتابات كاتب سـاخر، بل وبدا لـي أني لم أتناول الموضوع بالشـكل الكافي في كتابـاتي، شـعرت بالارتبـاك. ما الأمـر إذن؟ رأيت متسـولين في أحلامـي. وبعـث فيَّ المتسـولون الخوف. هذا أمـر واضح. إلا

أن الليل قد مر، وأتى الصباح وتلاشت آثار المتسول إثر أشعة الشمس.

٢

أخذت أتأمل ثانية في حياتي، وحاولت أن أتذكر مشاهد منها مرتبطة بالمتسولين.

لكني لم أستطع تذكر شيء ذي بال يتعلق بهذا الموضوع. لا أستطيع انتشال أي متسولين من غياهب النسيان التي اكتنفت ذاكرتي.

لكن بإمعان التفكير في طفولتي تذكرت حلمًا غريبًا جدًا...

باخرة... على متنها حشد من الناس. الجمع يُصفِّق لي. يبرز من الجمع عجوز يبدو صغير السن. يبدو يانعًا أنيقًا، ذا خدود متوردة وقد علَّق وردة في عروة سترته.

انحنى لي باحترام وقال:

- آاه... أشكرك شكرًا جزيلا أيها الشاب! تذكر كم كنت عجوزًا عندما بلغت من العمر ثمانين عامًا، أما الآن، وقد بلغت الستين من العمر فأشعر أني في أفضل حال.

- أنا سعيد للغاية أني قد استطعت تقديم يد العون لك يا بافل بتروفيتش.

يتناول العجوز ذراعي ونسير بطريقة احتفالية حتى نصل إلى أحد الأبواب. يُفتح الباب ويختفي العجوز.

هذا هو الحلم كاملا. يبدو سخيفًا لا معنى له، حتى أني لم أرد في البداية أن أفكر فيه.

لكن يتوجب عليَّ القول إن هذا الحلم قد أتاني في تلك الفترة التي بدأت فيها في جمع مواد كتابي «الشباب المُستعاد». ربما هذا يعني إذن أن العجوز قد شكرني على كتابي المستقبلي الذي أعاد له شبابه.

أخذت أفكر في هذا العجوز ذي اللغد المتدلي... هل رأيته من قبل؟ لا... لم يحدث أن رأيت مثل هاتين الوجنتين المتوردتين من قبل.

لكن لماذا إذن أسميته: بافل بتروفيتش؟ هذه طريقة النداء على المعارف[1].

أخذت أستدعي إلى ذاكرتي الأسماء المنسية، لكني لم أتذكر ذلك الاسم.

لكني وجَّهت انتباهي إلى ذلك الباب الذي أخذت العجوز إليه. أين شاهدت من قبل هذا الباب الثقيل المنقوش المصنوع من خشب شجر البلوط؟ لا شك أني رأيته من قبل. أتذكره تمامًا، وأتذكر تمامًا تلك اللوحة النحاسية المعلقة عليه، واسم العائلة المكتوب على هذه اللوحة: «شيستياكوف».

من «شيستياكوف»؟

---

(١) كانت العادة في روسيا أن ينادي المرء على صديقه باسمه واسم أبيه للدلالة على الألفة.

أخذت أتذكر الأسر التي أعرفها. لا... لم أجد من بينها أسرة تُدعى شيستياكوف.

كان هناك فنان شهير بهذا الاسم، ولكن ما علاقة هذا الفنان بي؟

بدافع من الفضول فتحت القاموس الموسوعي كي أعرف اسم هذا الفنان كاملا. ولكن يا للدهشة! اتضح أن اسمه وكنيته تطابق تمامًا الاسم والكنية في الحلم.

إنه الفنان الروسي الشهير بافل بتروفيتش شيستياكوف!

تذكرت فجأة أنه كان مدير أبي في أكاديمية الفنون.

وفجأة تذكرت المشهد كله بجلاء تام.

٣

الشتاء. ثلج كثيف. جزر فاسيليسكي، أمضي بصحبة ماما في الشارع. نتوقف عند أبواب مُعلَّق عليها يافطة نحاسية مكتوب عليها: «بافل بتروفيتش شيستياكوف».

أطرق على الباب. يفتح البوَّاب. تقول ماما:

- أَخبِر سعادته أن أرملة الفنان زوشينكو وصلت.

يبتعد البوَّاب ثم يلتفت قائلا:

- سعادته يدعوكِ للانتظار هنا.

نجلس على أريكة خشبية. ننتظر مدة طويلة، ونرى سلمًا واسعًا فخمًا. يطول انتظارنا جدًا. أبدأ في التذمر، فأنا أشعر

بالملل للغاية. ليس حسنًا أن ننتظر طويلا هكذا. أقول لماما:

- إن لم يأت بعد مرور كل هذه المدة فهذا يعني أنه ليس في حاجة إلينا. ماما... دعينا نغادر.

تقول لي ماما بهدوء:

- ليس هو من في حاجة إلينا، بل نحن من في حاجة إليه. طالما أن والدك مات يجب إذن أن نتقاضى معاشًا. أما السؤال عن كم سنحصل فهذا يتوقف على بافل بتروفيتش.

تمر ساعة. في النهاية يهبط على درجات السلم رجل يرتدي سترة سوداء. يبدو عجوزًا للغاية هزيلا شاحبًا.

تنحني ماما أمامه باحترام وتطلب منه شيئًا ما.

يجيبها العجوز بعبوس وهو يُشدد للغاية على حرف الـ «واو».

تستمر المحادثة بينهما لثلاث دقائق.

نغادر.

تمسكني ماما من يدي، ونمضي في الشارع ثانية. أقول لها:

- ماما... لم أكن لأتحدث بأدب جم معه هكذا مثلما تحدثتِ معه.

تجيبني ماما:

- وما العمل يا ميشنكا. نحن نعتمد عليه.

- أيًا كان الأمر. لقد تحدث معكِ بصورة سيئة، وودعنا أيضًا بشكل سيئ، فقد تنحى عنا سريعًا.

تنخرط أمي في البكاء.

أقول لها:

- نعم... لكنه تصرف معي بطريقة أسوأ من سلوكه معك. لم يحيني حتى ولم يودعني، ومع ذلك فأنا لا أبكي.

تزداد حدة بكاء ماما.

أقول لها كي أواسيها:

- لديَّ عشرون كوبيك فقط. إن تريدي يمكنني أن أستدعي عربة[1] لنمضي بها إلى المنزل.

أستدعي عربة فعلا، وأجلس بداخلها أنا وأمي.



بدا لي أن هذا المشهد كان له أثر كبير على حياتي.

بدا لي أن هذا المشهد قد بعث الخوف في داخلي.

في حقيقة الأمر، أمامي الآن مجددًا مشهد لمتسول، لكن المتسول في هذه المرة كان أنا شخصيًا.

وقفت في غرفة الانتظار بيد ممدودة. سألت من أجل المال، وقدموه إليَّ. أيكون الأمر أني خشيت أن أصير متسولا؟ أيمكن أن يكون الأمر أني خفت أن أتحول إلى متسول بائس؟ وإلا لماذا إذن يثير فيَّ مرأى المتسول ذلك الخوف؟

أخذت أفكر في المتسولين الذين اعتادوا الظهور بأعداد كبيرة على طرقات بلدي، وأخذت أفكر في ثورتنا العظيمة

(١) المقصود بالطبع عربة تجرها الخيل.

التـي أخذت على عاتقها واجب تدمير هـذا البلاء، أخذت أفكر في ذلـك العالـم القديـم الـذي ولدت وعشـت فيه؛ هـذا العالم الذي تسـبب في ظهور المتسولين والشـحاذين، وأناس يركعون وينافقون ويتذللون.

ربمـا هذا العالم قد بعث الخـوف في داخلي، وملأني بعدم اليقين، وتجسد الخوف في شكل متسول.

تذكرت هـذا العالم... تذكرت النـاس الذين أحاطوا بي، والعلاقـات المتبادلـة التـي كانت بيننا. لا شـك أنـه كان عالمًا تعيسًـا، وقد جلب لنا أمراضًا لا تقل خطورة عن تلك الأمراض التـي أتحدث عنهـا في هذا الكتـاب. كان بإمكانـه أن يثير الفزع والقلق والخوف. لا شـك أنه كان بإمكانه أن يُجسِّـد الخوف في صورة متسول.

هكـذا أخـذت أتذكـر العالـم الذي ولـدت فيه. إنـه عالم منقسـم بين الأغنياء والفقراء... عالم المتسولين والمانحين.... عالم بعث الخوف في داخلي.

يا له من شـعور غريب هجيـن ذلك الذي راودني! يا للألم الذي شـعرت به عندما أدركت فجأة أن هـذا العالم لن أراه ثانية أبدًا! ويا للفرحة التي أدركتني عندما وعيت بذلك!

ولكـن ما الـذي أبهجني تحديدًا؟ وما الذي أسـفت عليه؟ ما الذي تركته في هذا العالم القديم وبكيت عليه؟ ولماذا حزنت علـى مـا أخافني؟ لم أسـتطع أن أفهم ذلك. لم أسـتطع أن أعبِّر

بالكلمات عن سبب هذا الألم وهذا الشعور بالأسف. حينها أخذت أحكي عن مشاعري لامرأة وحيدة من نفس جيلي لكنها تعرف الكثير عن عالمنا السابق قبل الثورة.

قالت لي:

- تراودني أنا أيضًا هذه المشاعر، لكنها لا تراودني بشكل عارض مثلما يحدث معك. لم أتوقف يومًا عن رثاء عالمنا السابق مع أن ثمانية أعوام قد مرت على انقضائه.

قلت لها:

- لكن عالمنا السابق كان عالمًا مريعًا؛ عالم الفقراء والأغنياء، وكان بإمكانه تخويف الناس. لقد بدا عالمًا ظالمًا.

أجابتني رفيقتي:

- حتى وإن كان ظالمًا، إلا أني أفضل مشاهدة الأغنياء والفقراء بدلا من هذه المشاهد التي نراها الآن. صحيح أنها عادلة لكنها باهتة ومملة وروتينية. إن عالمنا الجديد عالم ريفي مبتذل يفتقد إلى البهرجة التي اعتدنا رؤيتها. يفتقد إلى ذلك الجمال الذي أبهج أنظارنا وأسماعنا ومخيلاتنا. هذا هو سبب شعورنا بالألم والأسف عليه. أما فيما يتعلق بالعدالة فلن أجادلك، مع أني أعتقد أن الأمر نسبي.

بعدما انصرفت من عندها أخذت أفكر: هل الأمر كذلك فعلا؟

أردت أن أتذكر تلك المشاهد الأنيقة من الماضي.

بدأت أفكر في الثياب الحريرية والموسيقى التي تسري في غرفة المعيشة والكلمات المنمقة التي تتكرر في اللقاءات المختلفة وفي العربات المطلية التي تجرها الخيول في الشوارع. تذكرت عدة مشاهد... لا... لا ارتباط بينها وبين أي اضطراب نفسي. لم تستطع اقتحام ذاكرتي. لا بد أنها بدت مشاهد معتادة تتكرر كل يوم ولا شيء فيها يدعو للدهشة.

٥

ربما لم أكن لأتذكر هذه المشاهد لو لم أفكر فيما أفكر فيه الآن، محاولا فهم من أين جاءني هذا الألم وهذه الفرحة والأسف.

على شاطئ البحر

أرتدي معطفًا طلابيًا، وعصا في يدي، في طريقي إلى شاطئ البحر.

إنه شاطئ سيستروريتسك[١]. الأجواء حارة، فنحن في فصل الصيف. تتصاعد أصوات أوركسترا سيمفونية.

الناس جالسون على الرمال الساخنة. نساء أنيقات يرتدين قبعات، يمسكن بالمظلات، ورجال ضامرون يرتدون سترات ونظاراتهم فوق أنوفهم.

الأطفال يمرحون بلطف في المكان. يرتدون قبعات،

---

(١) مدينة روسية داخل قطاع لينينجراد.

وأحذية وجوارب.

أرى فتاة مستلقية. تقول:

- ماما... اسمحي لي من فضلك أن أخلع جوربيَّ.

- لا، هـذا تصرف غير لائـق. لا يجب أن نخلـع الجوارب إلا عندما نمضي لنسبح.

كل شـيء من حولي هادئ وممل. لا يمكننـي تقريبًا رؤية أجسـاد قد لفحتها أشـعة الشـمس، ولا تتناهى إلى أسماعي أي صيحـات مرحة أو صرخـات أو ضحك. أحدهـم فقط يصيح، وهـو يدخـل الميـاه، وآخر يقـرأ الشـعر، بينما يحملـون الجعة لأحدهم على صينية.

يا إلهي! يا لفرط الملل غير المحتمل!

الروح أسمى أيها الشاب

أربـت بالعصـا علـى سـروالي الضيق، وأمضـي إلى أحد معارفي. إنه المحامي الشهير (ن) وزوجته السيدة (ن ن).

أشـعر بالإعجـاب بزوجة هـذا المحامـي. أوليهـا عنايتي بعض الشيء.

تبتسـم السـيدة (ن ن) عندما أقترب منها. تغطي جسـدها بخجل، فقد كانت ترتدي ثوب استحمام أنيق. تهز مروحة بيضاء من ريش النعام.

أجلس بجانبها.

تتدلـل عليَّ، ورغم أن زوجها جالس بالقرب منا، فإنها لا تتقيد بشيء. إنه شخص مبتذل. تقول لزوجها:

- سـيرج... مـن الأفضل حقًـا أن تمضي إلى المـاء. ليس من الضـروري أن تغمر نفسـك كاملا في المـاء، ولكن يكفي أن تُبلِّـل نفسـك ولو مـرة واحدة. عليـك حقًا أن تفعـل ذلك يا صديقي، فهو مفيد لصحتك.

يخلع سـيرج سـترته الناعمة بكل خنـوع، ويفك حمالات سرواله الحريرية، ويخلع بقية ثيابه.

أرى جسده الضامر؛ صدره الغائر المريض بالدرن وذراعيه البائستين الخاليتين من العضلات.

عندمـا يلاحظ نظـراتي المصوبـة إليه يتمتم رجـل القانون قائلا:

- الـروح أسـمى أيها الشـاب... الروح لا الجسـد، لـذا نولي عنايتنا بها، وفيها جمالنا.

ويخطـو بحـذر على الرمـال ماضيًا إلـى الماء كمـا لو أنه يخطو فوق مسامير.

تبدو ذراعاه النحيلتان الميتتان في الماء كسوطين.

نحن نستمع إلى قصيدة شعرية

قاعة استقبال أنيقة. أثاث حريري فاخر. شرائط زينة تزين المـكان. قماش حريـري ناعم. تحـف خزفيـة، وحديث يتهادى

للآذان بالفرنسية.

سيد المكان شاحب ذو وجه قاتم ومنهك. ثمة شيء فاسد في وجهه.

يقرأ أشعاره هازًا رأسه. يتلو قصيدة عن الجمال الأصيل الذي يجب أن يسعى الناس إليه، وعن الروح النقية المعذبة الهائمة وسط عالم متوحش... عالم من الشهوات المنحطة. تقطع القراءة صرخة ما صادرة من قاعة الاستقبال.

يعبس وجهه، وتتغضن جبهته عندما يسمع ما تهمس به إليه الخادمة.

على عتبة قاعة الاستقبال تظهر فجأة امرأة ما. ليست في ريعان شبابها، وترتدي ثيابًا سيئة، وتلوح بعض خصلات شعرها الأشيبمن أسفل قبعتها.

تقول:

- ماذا تفعل بي يا بيير؟

وعندما ترى الضيوف تكمل قائلة:

- لا، لن أراعي وجود الضيوف. دعهم جميعًا يعرفون كم أنت وغد. كان أخي العزيز، المرحوم أبوك يعطيني مائة روبل كل شهر، أما أنت فماذا تفعل؟ أنت تبدو كهيرودس[1] وتستهزئ بي.

(١) الإشارة إلى قصة محاكمة المسيح حينما عرضوا المسيح أمام الحاكم هيرودس فأخذ يستهزئ بالمسيح. (لوقا ٢٣). يُستخدم الاسم عمومًا في العامية الروسية للإشارة إلى الظلم.

عبس وجه السيد تمامًا كما لو أنه يعاني من ألم أسنان، وقال بهدوء:

- ارحلي إذن يا عمة ليزيت. لم يقل لي أبي شيئًا عن ذلك. قاضيني إذن.

يطرد المالك والخادم العمة التي تسقط فجأة على العتبة.

قال للحضور:

- إنها تتظاهر.

وأخرج من جيبه بعض النقود وقذف بها إليها.

أُغلِق باب قاعة الاستقبال، وانتهى الأمر.

اعتذر السيد للضيوف على هذا المشهد الذي كان حدوثه خارج إرادته وهو يغطي عينيه بيديه. قال أحد الضيوف:

- كم تطابق أبيات شعرك ما قد حدث! يا له من عالم متوحش! وكم هي سعادة من يمكنه أن يتجنب ذلك العالم، ويعزل نفسه عنه بالشعر والوحدة الروحية.

وواصل السيد تلاوة قصيدته.

على درجات السلم السوداء

يجلس العمال على درجات السلم. يبدون في مظهر رث متسخ. بعضهم يرتدي أحذية لبادية.

إنهم العمال الموسميون. يبنون بيتًا في الساحة. أما اليوم، وهو الأحد، فقد جاءوا إلى صاحب البيت كي يحصلوا على

راتبهم الأسبوعي.

أحدهم يقول:

- لا، إنهم لا يحبون أن يدفعوا بسهولة. ينهكوا الناس أولا ثم يدفعون بعد ذلك.

ينهض أحد العمال ويقترب من الباب ويطرق بوجل.

تظهر الخادمة عند الباب. ترتدي مئزرة بيضاء، وعلى رأسها غطاء أبيض منشى. تقول:

- لماذا تطرقون الباب أيها الشياطين؟ قلت لكم إن السيد مشغول. تعالوا في المساء.

يقول العامل:

- نأتي في المساء وتقولون تعالوا في الصباح. في كل أسبوع يتكرر هذا الهراء. كوني رحيمة وقولي للسيد إن العمال ينتظرون.

تقول الخادمة باستياء:

- السيد مشغول. لن يدفع اليوم. اذهبوا إلى الجحيم.

ويُغلق الباب بعنف.

أجلس عند حافة النافذة بصحبة فاليا. فاليا هي ابنة مالك المنزل. يبلغ كلانا من العمر خمسة عشر عامًا. لا يشغلنا شيء سوى الحب. هكذا نجلس عند حافة النافذة نثرثر بأي شيء.

أسأل فاليا:

- فاليتشكا[1]... ما الذي يشغل والدك؟

---

(١) تدليل فاليا.

تخفض نظرها بارتباك وتقول:

- لقد جاءته أنيل ثانية. عندما كانت ماما لا تزال حية لم يكن بإمكان أنيل أن تأتي. لكنها الآن تأتيه كثيرًا. أخاف أن يتزوج منها بابا. إنها معه منذ الصباح. إنهما يخططان للذهاب إلى سباق الخيول.

أنظر إلى العمال الموسميين الموجودين على درجات السلم. بعضهم يدخن، وآخرون يشربون والبعض يتناول طعامه.

أخذنا أنا وفاليا ننظر من النافذة. كان المطر ينهمر، وها نحن نخرج إلى الفناء.

٦

ها قد مرت أمامي تلك المشاهد الصغيرة من حياتي الماضية، بعد أن لاحت من وسط غياهب النسيان! يا لها من مشاهد كريهة وذكريات مريرة! يا له من جمال بائس!

لهذا أشعر بالسعادة لأني لم أعد أرى هذا العالم السابق؛ عالم الترف والخسة، عالم من الظلم الذي لا يصدق، عالم الفقراء والأغنياء الذين لا يستحقون قرشًا واحدًا. لهذا أنا سعيد أني لن أشاهد ثانية تلك الصدور الغائرة المسلولة التي تعيش داخل قلوب أصحابها مشاعر رفيعة أنيقة تُغلِّف نوايا بربرية.

هذا يعني أني ليس لديَّ أي دافع للشعور بالأسف، ومع ذلك فلازال لدي شعور بالأسف والألم، ولم أعد أستطيع أن

أفهم من أين قد أتاني هذا الشعور بالألم.

قد يكون مصدر هذا الألم أني قد حظيت بمشاهد وداع حزينة مع هذا العالم الماضي. كنت شاهد عيان على انقضاء ذلك العالم السابق، وكيف انسل هذا الجمال المتداعي، وهذه الأناقة واللباقة.

تذكرت أحد الشعراء. إنه الشاعر (أ. تـ....ف[1]). كان من سوء حظه أنه عاش أكثر مما ينبغي. لا زلت أذكره في عام ١٩١٢ قبل اندلاع الثورة بعدة أعوام. ثم شاهدته بعد ذلك بعشرة أعوام.

لاحظت تغييرًا مريعًا. يا لذلك النموذج المرعب الذي رأيته! تلاشت كل مظاهر الألق. نُسيت كل الكلمات المنمقة، وضاعت كل الأفكار المتشامخة. كان أمامي حيوان أكثر فظاعة من أي حيوان آخر، ربما لأنه كان لديه كل تلك المهارات المهنية المعتادة لشاعر.

التقيته في الشارع. تذكرت ابتسامته المعتادة التي كانت ترتسم على شفتيه، بطريقة ساحرة بعض الشيء وغامضة. الآن تلوح بدلا منها تكشيرة ضارية. أخذ الشاعر يفتش في حقيبته الرثة، ثم أخرج منها كتابًا صغيرًا قد طُبع لتوه. بعد أن وقَّع عليه أهداه إليَّ بانحناءة رسمية.ا إلهي على ما حواه هذا الكتاب الصغير!

هذا الشاعر كتب يومًا ما:

(١) قد يكون المقصود هو الشاعر ألكسندر تينياكوف ١٨٦٣ - ١٩٣٤.

كالعذارى في ساعة الخيانة المرة
اتخذت الزهور مظهرًا حزينًا
والدموع تنسل كقطرات منطفئة
تسيل على وجناتها الواهنة[1]

الآن، وبعد مرور عشرة أعوام، هذا ما خطته نفس اليد:

تنورات فخمة، شفاه فاسقة
وصوت البيانو المألوف
عاهرات لطيفات
لا آسف على شيء من أجلكم
كل في مكانه، كل في عمله
يتاجرون بكل شيء
وأنا موهبة وروح[2]

في هـذا الكتـاب الصغير المطبوع من قِبـل المؤلف في عام ١٩٢٤ بدت القصائد كلها غير عادية. نمّت، قبل أي شـيء، عن موهبـة كبيرة، لكنها في الوقت ذاته مريعـة إلى حد أنه لا يمكنك ألا ترتجف في أثناء قراءتها.

إلا أن الكتـاب قـد ضم بين طياته قصيـدة بعنوان: «صلاة الطعام»، وهذا مقطع منها:

طعام شهي، طعام لذيذ

---

(١) من قصيدة «عند البحيرة» «Ha озере»
(٢) من قصيدة أنا أتنزه.

امنحني إياه يا قدري العزيز
وأي فعل شنيع سأقوم
من أجل هذا الطعام!

....

سألوث قلبي الطاهر
سأقص أجنحة أفكاري
سأرتكب السرقة والنهب
وألعق كعب عدوي

هذه المقاطع مكتوبة بقوة غير عادية. إنها قصيدة سميردياكوفية[1] عبقرية. في الوقت ذاته لا بد لتاريخ الأدب لدينا ألا يلتقي ثانية سخرية مماثلة ولا سقوطًا إنسانيًا مروعًا كهذا.

مع ذلك هذا لا يعتبر سقوطًا، بل موتًا للحياة، وتداعيًا وانهيارًا. لقد ظل الشاعر بصحة جيدة متوردا قويًا كما كان في الماضي، ولقد سعى بحمية غير عادية إلى الحياة السعيدة، لكنه لم يعد يرغب في المزيد من الكذب. لقد توقف عن التصنع، توقف عن الثرثرة بكلمات من قبيل: وجنتان - عذارى - صدور. لقد استبدل بهذه الكلمات كلمات أخرى أكثر قربًا إلى روحه. لقد نحَّى عنه كل تلك الحلي التي كان يُزيِّن بها نفسه قبل

(١) نسبة إلى سميردياكوف، إحدى شخصيات الأخوة كرامازوف وهو الابن غير الشرعي الذي قتل أباه وانتحر، وفهم المقصود بهذا الوصف يحتاج إلى تحليل دقيق لشخصية سميردياكوف.

الثورة. لقد أصبح ما هو عليه حقًا: عاريًا متسولا مقيتًا.

٧

صار هذا الشاعر متسولا حقًا. اختار لنفسه الطريق الذي كان يستحقه.

ذات مرة شاهدته في زاوية شارع ليتيني واقفًا برأس مكشوف، ينحني بشدة لكل من يمر أمامه. بدا جميلا، وبدا رأسه أشيب رائعًا. بد كيسوع المسيح. كل ما كان يمكن ملاحظته في مظهره هي عيناه المنتبهتان، فلم يكن هناك أي شيء مريع أو مُنفِّر في وجهه... كان وجهًا ذا ابتسامة متجمدة لإنسان لم يعد لديه ما يخسره.

شعرتُ بالخزي من الاقتراب منه لسبب ما، لكنه هو الذي ناداني. نادي عليَّ بصوت عال، ناداني باسم العائلة. أخذ يقهقه ويضحك وهو يقول لي كم يكسب في اليوم الواحد. آه... يا إلهي! إنه يربح أكثر مما يناله المرء من الأدب. لا، إنه لا يأسف على التغيير الذي حدث، فهل يهم حقًا كيف يعيش المرء في هذا العالم طالما سيموت في كل الأحوال؟

أعطيت الشاعر كل ما كان في جيبي تقريبًا، وقد أراد لذلك أن يُقبِّل يدي.

أخذت أخجله بسبب إذلاله لنفسه بهذه الطريقة.

ابتسم الشاعر... إذلال؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ الإذلال

هو ألا يأكل المرء جيدًا. الإذلال هو أن يموت قبل أوانه، أما أي شيء آخر لا يُعتبر إذلالًا. كل شيء آخر يتواءم مع الحياة التي قدمها له القدر بدلا من الحياة الماضية.

بعد ساعة أمُر ثانية عبر نفس الشارع. ويا للغرابة! ما زال الشاعر واقفًا في زاوية الشارع يطلب صدقة.

اكتشفت أنه لم يفارق مكانه حتى بعدما أعطيت له مبلغًا معتبرًا. حتى هذه اللحظة ما زلت لم أفهم لماذا لم يبرح مكانه. لماذا لم يندفع فورًا إلى إحدى الحانات أو المطاعم، أو حتى عاد لمنزله؟ لا، لقد واصل الوقوف في مكانه والانحناء للمارة. لا بد أنه لم يعد يشعر بالإهانة، وربما حتى أراد مضاعفة مكسبه. أم أن موعد إفطاره لم يحن بعد لذا ظل في الشارع لينعم بنزهة؟!

التقيت به بعد مرور عام على ذلك. وجدته قد فقد مظهره الإنساني. كان متسخًا سكيرًا رث الثياب، وقد لاحت بعض خصلات شعره الرمادية من أسفل القبعة. علق صندوقًا على صدره مكتوبًا عليه: «أحسنوا إلى شاعر سابق». وجدته يمسك بأيدي المارة ويُعنِّفهم بشدة طالبًا المال.

لم أعرف كيف انتهى أمره بعد ذلك.

ظل في ذاكرتي نموذج هذا الشاعر، نموذج المتسول، بوصفه أشد المشاهد التي رأيتها بشاعة في حياتي كلها.

ربما شعرت بالخوف أن يلحق بي هذا المصير. ربما شعرت بالخوف من هذه المشاعر ومن هذا الشِعر. ربما شعرت

بالخوف من هذا النموذج الذي رأيته للمتسول.

٨

بينما أفكر في هذا الشاعر البائس أخذت أتذكر رغمًا عني الشِعر الذي كان في وقتي.

أخذت أتذكر تلك الأبيات الشعرية الحزينة والمؤثرة التي اعتدنا إنشادها في ذلك الوقت: «آه... هذا مجرد حلم» و أيضًا: «تلألأ تلألأ يا نجمي» وكذلك «الأقحوان في الحديقة».

لا أخفي عليكم... سالت الدموع من عيني عندما تذكرت هذه المقاطع المنسية.

قلت في نفسي إن هذا إذن مصدر شعوري بالأسف. هذا يعني أني لا أرثي هذا العالم الجميل؛ عالم الفقراء والأغنياء، لكني أرثي هذا الشعر الحزين الذي كان في أيامي. أيمكن أن يكون هذا الشعر جميلا حقًا؟

أخذت أتذكر القصائد الموجودة الآن.

إنها أبيات ممتازة، وقصائد رائعة. لدينا الآن أشعار بلوك ويسينين وأخماتوفا[1].

ولكن يا للألم الذي كمن في هذا الشعر! يا لتلك النبرة الحزينة الموجودة في هذه الأبيات! تُرى ما السبب؟

أيكون السبب هو أنها غير راضية عن الحياة التي يعيش

(١) أشهر شعراء روسيا في تلك الفترة.

فيهـا أصحابهـا الآن؟ هذا النظـام الاجتماعي الذي يعيشـون في كنفه؟ لا... على الأرجح لا.

تذكرت فجأة بعض أبيات بريوسوف:

أنت من ستدمروني

بينما ألاقيكم بترحاب[1]

لماذا قال ذلك؟ لماذا لم يقل مثلا إنه سيلتقي بالترحاب من سيقضون على الظلم وعدم المساواة والفقر؟ لا، نحن نعرف أن الشاعر قد رحَّب بالثورة والتحق بها، وسار إثر خطواتها كي يرى عالمًا جديدًا، وأناسًـا جددًا. فلماذا إذن يقول مثل هذه الكلمات القاسية عن نفسه؟

أخذت أتصفح قصائد بريوسوف ويومياته وخطاباته.

أعتقد أنه ليس شـاعرا سـيئًا على الإطلاق، ولكن كم كان شاذًا غريبًا! ويا لكل هذا الحزن الذي تغلب عليه بمرور الزمن!

يا لهذا الطابع الهيسـتيري الذي يمكن للمرء أن يشعر به في موسيقاه وأفكاره! يمكن دائمًا الشعور بكارثة مروعة حاضرة في قلبه.

لا شك أنه لم يعتبر نفسه سليمًا معافى في خير حال، ولذلك قال هذه الأبيات.

لا بد أنه لم يرد أن ينتهي الأمر بالفن إلى الأيدي المرتجفة لمرضى العصاب. لم يُرد أن يشـمل المشاعر والوجوه القديمة

(١) من قصيدة: قبائل الهون القادمة.

بالرعاية داخل قلبه.

أيمكن أن تكون هذه الكارثة والهيستيريا والنبرة الكئيبة مجرد سمات ترتبط بالشعراء الكبار بسبب مهمتهم الرفيعة ومشاعرهم العظيمة ووعيهم السامي؟

أيمكن أن يكون بقية الشعراء جميعًا قد أنشدوا بمرح للطبيعة الجزلة؟

أخذت أتذكر القصائد التي في زماني.

لا، كلها على نفس الشاكلة، وربما أسوأ وأشد بؤسًا ورعبًا.

يبدو الأمر كما لو أن بلوك قد كثَّف في نفسه مشاعر زمانه كافة، لكنه كان عبقريًا، ولقد لاحت عبقريته في كل ما يفكر فيه أو يكتبه.

أما أبيات الشعراء الصغار المحرومين من هذا الجلال والأسلوب البديع فكانت رهيبة:

للجنية أعين زمردية
تنظر بها إلى العشب
ترتدي ثيابًا رائعة
أحجارًا كريمة، توباز وبرجد[1]

يا لها من لغة مبهرجة بائسة! ويا له من خيال أوبرالي لشاعر ليس سيئًا في حقيقة الأمر!

---

(١) أنواع من الأحجار الكريمة. الأبيات من قصيدة ثياب الجنية للشاعر بالمونت.

لدى ملكتي قصر عال
به سبعة أعمدة ذهبية
لدى ملكتي تاج سباعي
به عدد لا يحصى من الأحجار الكريمة

لا، من المزعج جدًا أن يقرأ المرء مثل هذه الأبيات. أمر لا يطاق أن يستمع المرء إلى مثل هذه الموسيقى البائسة التعيسة. من المنفر جدًا أن يقرأ المرء مثل هذا الهراء وهذه الرموز المتكلفة البائسة.

أتصفح بعض المختارات الشعرية الموجودة في زماني.

بقلب بارد دون أدنى اضطراب أقرأ ما قرأناه الآن، ولا بد أني أحببته:

لا أصدق نفسي...
أصدق فقط النجوم العالية اللامعة
إنها طريقي إلى الفضاء البعيد
فهي تبعث لي أحلامًا سرمدية
وترعى من أجلي أزهارًا غريبة
تنمو في الصحاري اللانهائية[1]

لا، إني لا أشعر بالأسف على خسارتي للأوهام، ولا على فقداني لـ «أزهار غريبة».

---

(١) من قصيدة: صديقي العزيز... لا أصدق على الإطلاق للشاعر سولوفيوف.

لا أشعر بالأسف على الفرحة المفقودة التي ألتقيها في قصائد آخرى:

أؤمن ببداية مشرقة

أعرف حقيقة الظلام

يهزني الليل في قلب الظلام

كي أعرض زهوري في النهار[1]

اللعنة على هذا الشعر المرح! إنه منفر حقًا:

أهشم القلم تمامًا

بين مصافحات اليد الرقيقة والمحتدمة

أقبلك وألاطفك

وأخنق نفسي بين أحضانك!

أتصفح المجلات الفاخرة التي تصدر الآن. ها هو بالمونت يكتب بشاعرية عن صديقة إدجار ألان بو[2]:

«إنها فاتنة وعبدة لمخاوفها الأنثوية. امرأة سقطت في حب ملاك... شيطان... روح، كيان أكثر من مجرد إنسان، لذا فهي خائفة... سيبيليا اللطيفة، التي أغوت نفسها وأغوت روحًا أخرى بفتنة الحب»[3].

وأيضًا:

(١) من قصيدة: الحبل المزدوج لبالمونت.
(٢) شاعر وكاتب قصص وناقد أمريكي.
(٣) من خاتمة مقالة: «نظرة الوداع» لبالمونت.

«رسـول الماورائيـات... مبعـوث الأعمـاق وحامـل الأسـرار.... إدجار الخالـد... الذي تحمل عبئًـا ثقيلا جدًا، ألا وهـو أن يوضـح كيف يمكن لروح إنسـان أن تصيـر وحيدة بين البشر....»

جفَّت الدموع من عيني منذ فترة طويلة. لا، لم أعد أشعر بالأسـف على شيء. لا أشـعر بالأسـف على ذلك العالم الذي فقدته.

٩

قلت في نفسـي: «ولكن أين جلت؟ إلى أي أدغال نفسـية تركت فكرة المتسول تقودني آملا أن أجد سبب خوفي؟»

لا أعرف طبيعة الخطوات الجديدة التي تنتظرني، وكذلك خيبات الأمل التي ستصيبني لو واصلت السير في هذا الطريق.

لكني أدركت شيئًا فجأة؛ لقد فكرت بطريقة خاطئة.

توجب عليَّ أن أجد سبب خوفي الطفولي من المتسول، لا الخوف الذي أشعر به، وأنا رجل بالغ.

هـل يمكن للطفل أن يتفهم شـعوري بالقلـق واضطرابي ومشاعري والقصائد والعالم الماضي الذي ودعته؟

هل يمكن للطفل أن يفهم نموذج المتسول؟

لا، نموذج المتسول ليس مفهومًا للطفل.

إذا كان الأمـر كذلـك فمـن أيـن ظهـر النمـوذج؟ ولماذا

يزورونني في أحلامي؟

تذكرت مبدأ الأحـلام. تذكرت وجهة نظر العلم المعاصر في الأحلام.

سأكرر الأمر باختصار؛ لأن له أهمية عظيمة.

يتألف العقل الإنساني من طابقين. الطابق الأعلى هي قشرة المخ، وفيه مركز التحكم والأفعال المنعكسة الشرطية والمنطق واللغة. في هذا يكمن وعينا. أما الطابق السـفلي فيحوي الأفعال الانعكاسية الوراثية والعادات والغرائز الحيوانية.

كما قلنا سابقًا في أحيان كثيرة يندلع الصراع بين الطابقين، فتتصـارع القوى العليا مع الدنيا وتهزمهـا، وتزيد من إبعادها، أو تنحيها تمامًا.

يغط الطابق العلوي في النوم ليلا، وينطفئ الوعي، وتتوقف القدرة على السـيطرة. وبما إن هذا الكبح الحادث لا يبتعد كثيرًا عن مراكز قشـرة المخ، تجد القوى الدنيا فرصتها للظهور ثانية، وتسـتفيد من غياب السيطرة. تُحيي المخاوف التي عمل الوعي على تنحيتها بعيدًا أو كبتها.

هذه صـورة عامة عن الأحلام، وهذه هي الآلية التي تعمل أحلامنا وفقًا لها.

بدا لي أنه ببساطة جدًا يمكنني أن أجد سبب علتي المرضية بمسـاعدة الأحلام، وأتعرف هذا أو ذاك من المشاعر المكبوتة، وأفهم النموذج الذي يظهر في أحلامي.

نعم، كان من الممكن أن يكون الأمر بهذه البساطة لو كان الطابقان «العلوي والسفلي» من المخ يتحدثان بلغة واحدة.

لكن ما من حديث مشترك بين سكان هذين الطابقين. يفكر الطابق العلوي عبر الكلمات، بينما السفلي عبر النماذج. يمكننا أن نفترض أن هذا ما يحدث مع الحيوان والطفل الصغير على السواء، و بسبب هذه الطريقة المجازية في التفكير فإن الأحلام تكتسب غالبًا طابعًا رمزيًا. هذا أمر واضح: أبسط النماذج يمكنها أن تتحد سويًا وتصنع رمزًا. ليست الرموز جميعًا بدرجة التعقيد نفسها، فالأمر يعتمد على مدى تطور الإنسان.

كما رأينا تزداد الروابط الانعكاسية الشرطية تعقيدًا مع زيادة التطور العقلي. بنفس الطريقة تتغير الأحلام، وتُغيِّر من معناها بحسب درجة تطور الوعي وشخصية الإنسان ومدى فردانيته. إذ أردنا أن نفهم نموذج الطابق السفلي لا بد أن نتحدث بلغة الطفل، ونرى الأمور من منظوره. وكي نقوم بذلك علينا أن نسبر أغوار الرمز الذي يظهر بسبب طبيعة التفكير المجازي لدى الطفل الصغير، ونأخذ بالطبع بعين الاعتبار مدى نمو وتطور الإنسان في هذه المرحلة.

هذا يعني أن نموذج المتسول هو نموذج رمزي، لم يكن بإمكانه أن يظهر إلا مع تطور الطفل العقلي بمرور الوقت. لا شك أن هذا النموذج يضم بين طياته أساسًا لرموز أخرى أكثر بدائية ووضوحًا للطفل. هذا يعني أننا يجب أن نُحلِّل نموذج

المتسول إلى عناصره الأولية البسيطة. ولكن ما العناصر التي بإمكانها أن تُشكل نموذج المتسول بوصفه مصدرًا للخوف؟ يمكننا أن نفترض أن الرمز قد ظهر بسبب تصرفات ما للمتسول.

ماذا يفعل المتسول عادة؟ إنه يقف بيد ممدودة، ويطلب صدقة. تتناول اليد الممدودة شيئًا ما من الناس. بالطبع هذا شيء مفهوم للطفل الصغير. اليد التي تحمل شيئًا ما قد تفزع الطفل. عن طريق عناصر شبيهة يمكن لنموذج المتسول الرمزي أن يتكون.

١٠

أدركت فجأة بكل وضوح أني لا أخاف المتسول في حد ذاته، لكني أخاف يده. لا أخاف من المتسول الذي أعطيه شيئًا ما، لكني أخاف اليد التي ستنتزع شيئًا ما مني. أدركت تمامًا ماهية هذه اليد، وما الذي أبحث عنه تحديدًا. أدركت أن هذه اليد التي تخيفني هي بمثابة مثير شرطي آخر في هذه التركيبة المعقدة لعصابي الطفولي.

هذه اليد إذن حاولت الإمساك بي بينما أركض في الحلم عبر الحقل الأزرق هاربًا من الماء الأسود. لقد أرادت هذه اليد تحديدًا أن تأخذ شيئًا ما... أن تنتزعه.... أن تسرقه.

لدينا في هذه اليد التي لمتسول أو لص، أو ربما حتى قاتل، العناصر البسيطة التي سيتكون منها بعد ذلك النموذج الرمزي

للمتسول الذي سيبعث فيَّ الخوف.

هذا يعني أن لدينا إذن: الماء – اليد.

ما طبيعة الرابطة الشرطية الوثيقة التي يمكن أن تربط بين هذين المؤثرين؟ وما التكرار القاتل الذي يمكن أن يكون قد حدث في حياة الطفل؟

ولكن ما الذي تشير إليه اليد تحديدًا؟ وما الذي تريد أن تنتزعه مني؟

ما الذي يمسكه المتسول بين يديه؟ إنه يمسك ما يقدمونه إليه، سواء كان مالا أم خبزًا أم طعامًا أم صدقة.

لا شك أن الطفل سيشعر بالضيق إن أخذ المتسول ما هو للطفل. لكن لماذا يمكن أن يقترن هذا الضيق بالخوف؟ لم أستطع فهم ذلك. حينها أخذت أتذكر تفاصيل حلم ما زارني فيه متسول. أجلس على طاولة كبيرة. يدق الجرس، ثم يتعالى صوت الطرق. أركض إلى الباب، لا لأفتحه، لكن لأطمئن ما إن كان مغلقًا بإحكام أم لا. خلف الباب يقف أحد المتسولين. يحاول فتح الباب، بينما أبذل كل قواي كي لا أسمح له بفتحه. تندلع المعركة، وتزداد سرعة دقات قلبي من فرط الخوف والمجهود البدني.

ينفتح الباب قليلا، ويكتنفني الرعب، لكني أبذل جهدي كي أغلقه ثانية. أغلقه بالمفتاح والسلسلة الصغيرة. أعود إلى الطاولة شاعرًا بالراحة.

أكان الواقف عند الباب متسولا حقًا؟ أيمكن أن يكون لصًا؟ لا، اللص لن يطرق الباب ويرن الجرس. لا بد أنه متسول أراد أن ينتزع مني شيئًا ما.

ماذا أراد أن ينتزع مني؟

لم أفهم الأمر ثانية، لكنني أدركت أن هذا الخوف الذي شعرت به لم يكن فقط في النوم، فقد اختبرته نهارًا أيضًا. فها أنا صبي، ثم شاب، وأخيرًا رجل بالغ، وكنت أصيح طوال هذا الوقت: «أغلقوا الأبواب!»، وفي كل مساء أتأكد من إحكام غلق الباب والنوافذ بالخطافات. لم يكن بإمكاني أن أنام إذا كان الباب مفتوحًا. إن لم يكن بالباب خطاف أو مزلاج أضع مقعدًا وعليه حقيبة بحيث تسقط فتوقظني إذا حاول أحد الدخول إلى غرفتي.

اتضح إذن أن الحلم له ما يبرره حقًا، وأن الخوف لم يحضر في الأحلام فقط.

ما الأمر الذي يرتبط به هذا الخوف؟ ما الشيء الذي يريد المتسول أن ينتزعه مني؟ إني لم أشعر بالأسف على شيء؛ بل على النقيض من ذلك، كنت أشعر بالسعادة حتى لو فقدت شيئًا ما. لقد بدا لي أنه من الأسهل والأبسط أن أعيش بدون أغراض.

في هذه الحالة إذن ما الذي بعث بداخلي الخوف؟ ما نوع الخسارة التي بدت لي لا تُعوَّض؟ ما الأمر الذي حاولت الدفاع عنه بذلك الخوف وتلك الرعشة؟

أخيرًا ما الشـيء الـذي أرادت أن تأخذه هـذه اليد المريعة التـي غمـرت الطفل في المـاء وعاقبته وأبقته خائفًـا بقلب بائس صغير يدق هكذا؟

٨
النمور تسير

يضحك فقط على الجروح
من لم تصبه الجروح[1]

١

عندما أردت أن أكتشف دلالة اليد، وما الذي أرادت أن تنتزعه مني، شعرت بخوف غير طبيعي.

لم أختبر من قبل خوفًا بهذه القوة، ولا حتى في الليل. الآن يراودني الخوف في النهار أيضًا، وغالبًا ما يحدث هذا في الشارع والترام وعند لقائي بالناس.

أدركت أن هذا الخوف يكتنفني بسبب أني لامست أعمق جروحي، ومع ذلك ظل هذا الخوف يرج كياني في كل مرة، وكنت أتخلص منه بالركض.

بدا سلوكي هذا أحمق وغير محتمل، بل وهزليًّا، لكن الخوف يتلاشى عندما أصل إلى المنزل، وتلامس قدماي درجات السلم.

يفارقني بالفعل بوصولي إلى المدخل. جرَّبت أن أصارعه. أردت أن أهزمه وأحطمه بقوة إرادتي عن طريق السخرية. لكنه

(١) روميو وجولييت الفصل الثاني - المشهد الثاني.

لم يخضع لي، بل وبدأ يظهر لي بقوة أكبر عما سبق.

حينها بدأت أتجنب الشوارع والناس، وتوقفت تقريبًا عن الخروج من المنزل. لكنه سريعًا ما تمكن من اختراق غرفتي. صرت أخاف الليل والظلام والطعام. لم أعد أنام على الفراش، بل على الأرض فوق إحدى المراتب. توقفت تقريبًا عن تناول الطعام، فابتلاع كسرة من الخبز قسرًا صار يُسبِّب لي شعورًا بالغثيان و القيء.

بدا لي أن كل شيء قد انتهى.... بدا لي أن خاتمتي تقترب، وهي خاتمة مجنونة وحشية شائنة.

لم يعد بإمكان أي شيء أن يثيرني. كما لو أني خسرت اللعبة بالفعل، والحرب انتهت بالهزيمة. صرت خاضعًا تمامًا للخوف، وطوَّقتني الكآبة، ولاح الموت أشد رعبًا مما توقعت[1].

مرّت بي أيام كاملة دون أن أستطيع الجلوس أو الاستلقاء. صرت أشعر بضعف غير عادي بينما أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، شاعرًا بالاختناق من نوبات قلبية رهيبة وتشنجات في جميع أنحاء الجسم.

---

(١) أود لو يستفيد القارئ من حالتي إن مر بتجارب مشابهة. لا يمكن إجراء تجارب على العقل وتحليل الأحلام إلا تحت إشراف الطبيب. هذا العلاج النفسي الذاتي الذي قمت به جرَّني إلى عواقب وخيمة. لم ينقذني من التعرض لمصائب أكبر إلا الخبرة المهنية والتفكير والتحليل. لا يتوجب على القارئ أن يتبع مثالي، فما فعلته يعرضه لخطورة أكبر. (المؤلف).

كان هنـاك دفتر ملاحظات على مكتبي. دونت فيه الأحلام التـي تبعث فيَّ الخوف. بيـن الحين والآخر أتأمل هذه الأحلام، ويـراودني أمل ضعيـف في فهمها، لكنها ظلـت غامضة. أخذت أبحث أمر اليد ودلالتها وعلاقتها بالخوف الذي أشـعر به، لكن أحلامي لم تخبرني شيئًا عن اليد. كانت أحلامي عن النمور التي تدخل غرفتي.

لـم أر قبـلا أحلامًـا مشـابهة، لكنهـا الآن صـارت حقيقية بشـكل مذهل. دخلـت النمور الغرفـة، وهزت ذيولهـا وتبعتني في كل خطوة. صرت أشـعر بأنفاسها الحارة، وأرى بريق عيونها المتوهجة وجلدها المبهرج المخيف.

لـم تكـن النمور تدخـل الغرفـة دائمًا. في إحـدى المرات توقفت عنـد الباب، وتعالـت خرخرة النمـور المريعة، ورجَّت الغرفـة. صلصلـت الأطبـاق وتحرك الأثـاث واهتزت السـتائر واللوحات المعلقة على الحائط.

لا... لم تمزقني هذه النمور. بعد أن توقفت داخل الغرفة أو خلف الباب غادرت المكان، وهي تخدش الأرض بمخالبها. في أحد أسوأ الأيام التي مرت عليَّ لمع هاجس في رأسي المغموم.

ماذا لو أن النمر رمز، تمامًا كنموذج المتسول؟

فمبدأ الأحلام واحد في كل الأحوال. تُكوِّن طريقة التفكير المجازيـة التـي ينتجهـا الطابـق الأول من المخ رموزًا بحسـب درجة التطور العقلي للطفل.

رأيت في نموذج المتسول أبسط عناصره. ما رأيته هو يد، وهي تتناول شيئًا وتنتزعه. لا بد أن هناك في نموذج النمر شيء أشد بدائية يناسب فهم الطفل.

النمر حيوان مفترس. ماذا يفعل؟ إنه يهاجم فريسته ويمسك بها ويمزقها ثم يلتهمها. يمزق لحمها إربًا بأسنانه ومخالبه.

فجأة نشأ ارتباط باليد... تلك اليد المريعة التي تأخذ أيضًا شيئًا ما وتنتزعه وتحيط به.

لا شك أن هناك شيئًا يربط بين هذين النموذجين.

اكتسبت يد المتسول السارق صفات جديدة تربط بينها وبين الوحش الشرس، النمر، المتوحش، القاتل!

٢

تذكرت حلمًا قديمًا. ربما حتى لم يكن حلمًا. ربما حفظت ذاكرتي ما حدث ذات مرة فعلا، لكنه بقي في ذاكرتي في صورة حلم. من قلب غياهب النسيان البعيدة تذكرت صورة ضبابية لغرفة مظلمة. الصورة معلقة في زاوية الحائط وكذلك المصباح.

من قلب الحائط المظلم تمتد صوبي يد عملاقة. صارت اليد فوقي بالفعل. أصيح، وأستيقظ هلعًا. أود لو أقفز من فوق فراشي، لكني لا أستطيع. الفراش مغطى بشبكة.

إن كان ذلك حلمًا، فلا شك أنه يعود إلى زمن بعيد. الفراش الصغير، والشبكة التي تغطيه يشيران إلى عمر صغير.

هذا الحلم في الواقع شديد البدائية والبساطة. لم يكن باستطاعة البالغ أن يرى مثل هذا الحلم، لذا لا بد أن الحلم راودني وأنا طفل صغير.

رأى الطفل يدًا في الحلم، واعتقد أن هذه الأصابع الضخمة أرادت أن تمسكه وتقبض عليه. من غير المرجح أن يتحول مثل هذا الحلم إلى حادثة متكررة. على ما يبدو أن الخوف الذي راوده نهارًا كان بدرجة أقل من ذلك، وإلا لما ظهر في الحلم.

ما الذي حدث نهارًا في هذه الحالة؟

على ما يبدو أن اليد قد أخذت شيئًا من الطفل في النهار؛ أمسكته وانتزعته منه.

وما الذي يمكن أن تأخذه وتنتزعه ليخيفه إلى هذه الدرجة؟

ربما شيء ثمين للغاية تعادل قيمته قيمة الطفل ذاته.

ما الذي يمكن أن تكون له قيمة خاصة لطفل؟ دمية؟ حلمة زجاجة الإرضاع؟ ثدي أمه؟ طعام؟

لا بد أنه ثدي أمه، فهو الذي يمنحه الغذاء والحياة والفرحة. لا بد أن اليد قد انتزعت منه هذا الصدر.

إذا فعلت اليد ذلك، وحرمته من الغذاء، ستصبح من منطق الطفل الصغير يد مريعة، وبإمكانها أن تقوم بجريمة أخرى ثقيلة. يحدثنا الحلم عن هذه الجريمة، فيد المتسول التي تمثل السارق، قد ظهرت مجددًا في الليل بمغزى جديد. لقد جاءت تلك المرة من أجل الطفل نفسه. لقد أرادت أن تأخذه وتمسك

به وتأخذه بعيدًا.

مع ذلك كيف يمكن لهذا الخوف الذي راوده في النهار أن يأتيه ليلا بقوة أكبر وبدرجة أشد تعقيدًا؟ ما الذي حدث نهارًا تحديدًا؟

بالرغم من ذلك من المحتمل ألا يكون شيء ذو بال قد حدث نهارًا. ربما يكون الأمر عاديًا جدًا، يحدث يوميًا في حياة كل الأطفال. ربما تكون يد الأم هي التي أبعدت ثديها عن الطفل. ربما يكون الطفل الصغير النهم قد شعر بالخوف من تكرار الفعلة، وتتبع اليد بانفعال شديد؛ تلك اليد التي تبعد عنه الطعام والصدر والحياة. قد تكون يد الأب قد لمست صدر الأم ذات مرة، وزادت من خوف الطفل. لكن ذلك الأمر يتكرر في حياة كل طفل؛ يد تُبعِد عنه الشدي وتعاقب وتُحمِّم. لماذا يحدث ذلك إذن للأطفال الآخرين دون أن يحدث أثرًا خاصًا أو يصدمهم أو يترك جروحًا غائرة فيهم؟ نحن نتعامل هنا مع حالة استثنائية.

نتحدث هنا عن حالة عُصاب. أمامنا نفسية طفل رضيع بالغ الحساسية، فنان مستقبلي، مبدع وحالم. أمامنا مثال يوضح لنا ما يحدث عندما يساهم عقل شديد الحساسية في إحداث المرض.

لا نتحدث في هذه الحالة عن مثال عادي، بل مرضي.

٣

هكذا انتزعت اليد إذن الصدر والغذاء. ثم ظهرت اليد للطفل كي تأخذه وتستولي عليه هو شخصيًا.

لكن ما وجه الارتباط بين اليد والنمر؟ أيعني ذلك أن شيئًا آخر قد حدث؟

بينما أحلل نموذج النمر الرمزي شاهدت حلمًا يؤكد صحة ودقة هذا الرمز.

رأيت ردهة طويلة، يغمرها ضوء ساطع، وفيها نوافذ عديدة. أركض بسرعة في الردهة، ويطاردني أحدهم. ألتفت إلى اليسار فأرى إنسانًا يُمسِك سكينًا في يده. كانت السكين طويلة لامعة برَّاقة، وبدت موجهة ضدي.

انطلقت إلى الأمام، وخرجت راكضًا من الردهة. أجد نفسي في ساحة مليئة بالأحجار. أسقط فوق الأحجار. السماء الزرقاء من فوقي والشمس والهدوء.

فهمت الحلم تمامًا. أشارت لي نوافذ الردهة تحديدًا إلى المغزى. لقد كانت نوافذ ضخمة مضيئة لمستشفى، ويبدو أنها حجرة العمليات.

لا شك أن اليد التي تمسك بالسكين هي يد الطبيب، يد الجراح.

تذكرت فجأة حكاية قديمة لأمي. حكت لي أمي عن

عمليـة جراحيـة أُجرِيت لـي بينما لـم أكن قد تجـاوزت عامين من العمـر. أجريت لي العمليـة على عجل بـدون كلوروفورم، وحدث تسمم للدم بشكل غير متوقع.

أذكـر القصة على نحو ضبابـي. أكثر ما أذكـره بالقصة هو مـا قالته لي أمي عما عانته، فقد سـمعت صوت صراخي المريع وفقدت الوعي. هذا كل ما أذكره من حكاية أمي.

بـدأت أتفحص جسـدي آمـلا أن أجد أثرًا للجـرح خلفته سكين الجراح على جسدي.

وجدت الأثر فعلا. بدا كبيرًا يبلغ تقريبًا ثلاثة سـنتيمترات. لابد أنه كان جرحًا عميقًا طالما بقت الندبة حتى الآن.

يـا للطفل البائس! يمكـن تخيل الهلع الـذي أصابه عندما امتدت صوبه يد غريبة، وقـد جلبت له الاضطراب والألم، وقد حملت سـكينًا وأخذت تقطع في جسده الصغير البائس. لا شك أن هـذه اليـد، أو بمعنـى أدق صاحب هذه اليد يمكن أن يشـبه النمـر في عدة صفات. لقد بدت يد كائن مفترس، مخلب وحش قاتل متعطش للدماء.

لم يدرك هذا الطفل الصغير البائس ماذا يقطعون له ولماذا؟ لقد وضعوه على الفراش ورفعوا ساقيه، وشعر بألم رهيب ورأى يدًا تمسـك سكينًا تشبه يد المتسـول، السارق، الوحش، القاتل. يـا لها مـن مصادفة قاتلة مذهلـة! يا لها من صدمـة مؤكدة! يا له من تشوه نفسـي! يا لتلك الاسـتجابة العاصفة التي ستحدث في

المستقبل عندما يرتبط اصطدامها بمثير شرطي آخر!

لكن هل يقتصر أمر تلك الاستجابة العاصفة على الظهور عند لقائها بذلك المثير الشرطي الآخر ألا وهو اليد؟ لا، يمكن أن تظهر الاستجابة بالطريقة ذاتها عند اصطدامها بمثير شرطي ثالث. المثير الشرطي الآخر في هذه الحالة هو الصدر؛ صدر الأم، الصدر الذي ارتبط برابطة عصبية شرطية باليد.

تذكرت ثانية مبدأ الأفعال الانعكاسية الشرطية. يمكن للمثير أن يرتبط بآخر بروابط عصبية شرطية حتى في غياب المثير الثاني، وأن يُكوِّن مركزين للاستثارة متعادلين في القوة، تربط بينهما رابطة عصبية شرطية.

بالتالي خلقت رؤية الثدي في الطفل بؤرة استثارة عصبية ثانية؛ إنها تلك الاستثارة التي ظهرت عند رؤية اليد... يد السارق، المتسول، المفترس، الوحش.

يا لها من لوحة مرعبة قد انكشفت أمامي! يا لها من حياة بائسة قد قُدِّرت لطفل ثم شاب فرجل بالغ! يا لطبيعة الشخصية وشكل السلوك اللذين قد حتمهما القدر له!

٤

أخذت أتذكر قصص أمي. حكت لي أكثر من مرة عن طفولتي وصباي. في كل مرة تبتسم وهي تحكي لي عن مدى درجة الصعوبة والتعقيد وتقلب الشخصية التي اتسمت بها وأنا طفل.

الأمـر كذلك إذن! حضر ذلك الصراع الجهنمي منذ أيامي الأولـى على هـذا الكوكب. توجب أن أُفطم حتى لا أشـعر بهذا الخوف والاضطراب المسـتمرين، لكني لم أسـتطع فعل ذلك. لـم أسـتطع مفارقـة ثديي أمـي. قالت لـيْ أمي وهي تبتسـم إنها تركتني أرضع من ثدييها عندما بلغت من العمر عامين وشهرين.

قالت لي مبتسمة:

- لم يبد هذا لائقًا. كان بإمكانك حينها بالفعل أن تسير وتركض وتحفـظ كلمات القصائد وتكررها غيبًا، ومع ذلك لم ترد أن تترك صدري.

لجـأت أمي إلـى تلطيـخ حلمتهـا بالكينين[1] حتى أشـعر بالاشـمئزاز مـن تنـاول الطعـام بهـذه الطريقـة، إلا أني واصلت الرضاعـة مـن صدرهـا علـى الرغم مـن ارتجـافي مـن التقزز، وشعوري بالهلع من أن صدر أمي يضم بين طياته بلايا جديدة.

بدا الأمر واضحًا. كانـت حربًا حقيقية، وكما لاحت فكرة خسارتها اشتعلت بدرجة أشد.

اعتـادت أمـي المسـكينة أن تحكـي لـي عـن طفولتـي، مبتسـمة.. لكنها تتوقـف في كل مرة عندما يعـرج الحديث على بعض سلوكياتي الغريبة.

لم أسـتطع النوم على فراش والدتي. كنت لا أستطيع النوم إلا بمفردي، ولسـبب ما لم أستطع النوم إلا في الظلمة الحالكة،

(١) مادة شديدة المرارة.

حتى ضوء المصباح الصغير يزعجني، لذا غطوا فراشـي الصغير بالأغطية كي تحجب الضوء.

بينمـا تتذكـر أمي هـذه الأفعـال الغريبة تقول لـي إنه من المحتمـل أن يكـون كل ذلك قـد حدث بسـببها. بينما تُرضعني شعرت ذات مرة بخوف غير عادي، واضطراب مهول، وانزعاج شديد.

تقـول أمـي إنها ربمـا قد نقلت لـي هذه المشـاعر مع لبنها الذي ترضعني إياه.

في وقت الصيف كانت العواصف الرعدية المريعة تحدث مـرارًا. قالت أمي إن هذه العواصف كانت تتكرر تقريبًا كل يوم. ذات يوم اندلعت أقوى العواصف الرعدية وطأة، وضرب البرق فنـاء منزلنـا الريفي، وقضت إحـدى البقرات نحبهـا، واندلعت النار في السقيفة.

ارتـج المنزل كله إثر رعد مرعب. حـدث ذلك في اللحظة التي بـدأت أمي فيها في إرضاعي. كانت ضربـة الرعد قوية جدًا ومفاجئة لدرجة أن أمي فقدت الوعي للحظة وأفلتتني. سـقطت على الفراش بشكل سيئ وتأذى ذراعي. أفاقت أمي على الفور، لكنها لم تتمكن طوال تلك الليلة من تهدئتي.

يمكنني تخيل تلك التجربة الجديدة لذلك الطفل البائس. حدثت ضربة الرعد تقريبًا في اللحظة ذاتها التي أمسك فيها الطفل بحلمة ثدي أمه. من المحتمل أن الطفل تعلق بثدي أمه شاعرًا في

الأساس ببعض المخاطر. يمكن أن تأخذ يد ما الطفل أو تبعده أو تعاقبه، وفجأة تحدث هذه الضربة الجهنمية للرعد، ويسقط الطفل، وتفقد الأم وعيها. يا لها من مخاطر جديدة تتعلق بثدي أمه!

أما طبيعة الرعد والعاصفة الرعدية فهي أمر غير مفهوم للطفل. إنها لحظات تعرفه الأولى بالعالم واصطدامه بالأشياء من حوله. يمكن أن يكون قد حدث هذا الرعد بسبب انطباق شفتيه على حلمة ثدي أمه. من يمكنه أن يثبت له أن الأمر ليس كذلك؟

قالت لي أمي إن العواصف الرعدية كنت تستمر طوال الصيف. يمكن إذن أن تكون ضربات الرعد قد تكررت عدة مرات في لحظة الرضاعة، وهذا يعني أنه يمكن دون صعوبة تذكر أن يتكوّن فعل عصبي انعكاسي في عقل الطفل الحساس؛ ذلك العقل الذي كان مهيئًا لمصائب جديدة بسبب اليد والصدر.

٥

اعتدت في الليالي الاستماع إلى خرخرة النمور. ذكّرتني بأصوات الرعد البعيدة. ربما بدت لي أصوات النمور كهدير الرعد والبرق. ربما اقترنت بصورة خيالية بصدر الأم، ومنحت هذا الكائن خصائص جديدة غير عادية.

أرجو ألا يسخر القارئ من هذه الأفكار، فنحن نتحدث

عن طفـل صغير. نتحدث عن اللحظات الأولـى من حياته التي لـم يكن فيها نـور العقل حاضـرًا بعد، ولم يكن هنـاك منطق أو وعي. إن حديثنا يدور حول حيوان صغير يتعرف على العالم من حولـه، ذلك العالم المريع، الـذي يتوجب عليه في كل خطوة أن يدافع عن نفسه ضد المخاطر المحيطة به.

كمـا لو أن نمـوذج النمر الرمزي قد شـمل هـذه المخاطر كافة.

دعّـم خرخرة النمـر أو زئير الأسـد اللذين اسـتمع إليهما الطفل في حديقة الحيوان هذا النموذج الرمزي.

فتحـت دفاتر ملاحظاتي، وقد توقعت أن أجد فيها ما يدعم هذه الفكرة آملا أن أجد فيها آثار مبارزة جديدة؛ إنها الحرب بين الوحوش بسلاح المعرفة، وهو الأمر الذي ناسب درجة تطوري العقلي لكنني لم أجد فيها أي معلومات عن النمور.

ماذا إذن! أنا لم أواجه نمورًا من قبل طوال حياتي. شاهدتها فقط داخل أقفاصها، وكنت آمنًا من خطرها، ولا سبب إذن يدعو للدفاع عن النفس بسلاح المعرفة.

بينمـا أبحـث في دفاتـر ملاحظـاتي عـن أي معلومات عن النمـور وجدت نفسـي أمام سلسـلة كاملـة من الكتابـات ذات الطابع الواحد.

لقد أدهشـتني كثيرًا هذه الكتابات. إنهـا كتابات ذات طابع طبي، معنية في الأساس بالشلل والسكتة ونزيف المخ.

وجـدت معلومـات طبيـة كثيـرة، خاصـة عـن موضـوع السكتة التي تكررت بصورة ملحوظة. وجدت قائمة بالأسباب والأعراض وطرق العلاج والوقاية.

بدا الأمر كما لو أني خشـيت التعرض لسكتة. لكني لست ممتلئ الجسـد، بل نحيلًا وشابًا، وبدا لي أنه ليس هناك ما يدعو للخوف من مثل هذه النهاية الحزينة.

وبينما أبحث عن سـبب مثل هـذا الاهتمام والحذر بالأمر قرنت فجأة بين هذا المرض: السـكتة، الشـلل ونزيف المخ من ناحية، وبين ضربة الرعد والبرق التي أخافتني من ناحية أخرى.

أيمكـن حقًا أن يكـون هذا هو صوت الرعد المنسـي؟ ألا يمكـن أن يكـون تعرضي لمثل هـذه التغيرات بشـكل متواز مع درجـة تطـوري العقلـي قد كـوَّن هـذه الفزاعة الجديـدة؟ لكن الصاعقة ارتبطت بثدي أمي.

تذكرت فجأة كتابي: «الشـباب المُستعاد». كتبت فيه كثيرًا عن اليـد. حينها لم أكن قد فهمت الكثيـر بعد، فكل جهودي في البحـث توجهـت حينها إلى الوعـي. لم ألتفت كثيـرًا إلى ما هو أبعـد من ذلك. ما الذي دفعنـي للكتابة عن اليد في هذا الكتاب؟ إنـه الخـوف دون شـك. كان هـذا الكتـاب بمثابة مظلـة دفاعية لنفسي. دافعت عن نفسي ضد المخاطر، وكشفت علامات هذه المخاطر وكيفية الوقاية منها. في هذه الرواية نرى أسـتاذًا جامعيًا عجوزًا يتزوج فتاة شابة.

لهـذا السـبب تحديـدًا يُصـاب بالشـلل، فيُصاب بسـكتة ونزيـف في المـخ. مـن الواضـح إذن أن فكرة السـكتة لاحقتني باسـتمرار، وأثبـت كثرة ورودها علـى ذهني. هـذا يعني أن ثمة روابـط عصبيـة قد ربطت منذ فـترة بين هدفين لإثـارة الفزع. ما زلت أحاول فك أغوار هذه السلسلة من الأفكار التي تحيط بهذه المواضيع المختصة بالمـرض. لكن صار من الواضح تمامًا لي أن الضربة أو الرعد أو الطلقة هي بمثابة مصدر اسـتثارة شـرطي رابع وسط هذه التركيبة المعقدة لعصابي.

٦

بهـذا أكون قد وجـدت الحادث البائـس. مخلوق صغير ضعيـف العقل يتعـرف على العالم مـن حوله. كنـت مخطئًا في التعامل مع أمور خطيرة حقًا بنوع من الاستخفاف.

صـارت المياه واليد مصادر تخويف، أما ثدي الأم فصار على أقل تقديـر مصدرًا لإصابة الطفـل بالاضطراب والخوف، وأحيانًا بالهلع.

ظهـر الصراع لدى الطفل وهو لا يزال في مسـتهل حياته، وقـد عمل هـذا الاقـتران العجيـب للظـروف على زيـادة حدة الصراع، وأكد صحة المخاوف وكشفت نفسية الطفل الحساسة عن ذلك الاتساق الشرطي.

صار النمر بمثابة رمز للمخاطر.

يبـدو أنه قد حدثت فجـوة غير مفهومة بين قوة الاسـتثارة والاسـتجابة. الأشـد غموضًا هو ذلك التناقض الموجود داخل هـذه الاسـتجابة نفسـها، فقـد تضمنـت الاسـتجابة رفضًا، وفي الوقت ذاته سـعيًا للخوف والحب، سـعيًا للهروب والدفاع عن الذات في الآن ذاته.

أُحيط الطفل إذن بأربع اسـتثارات شـرطية تحيط بخطواته المتقلقلة على طريق الحياة.

لقـد أثَّـرت على الطفـل بقوة طاحنـة ضخمة؛ لأنهـا غالبًا مـا كانت تحدث سـويًا، وقد ارتبطت بروابط متينـة من الروابط العصبية الشرطية المؤقتة.

روابـط مؤقتة! نعم... كانت من المفترض أن تكون كذلك لـو كان الأمر مع عقل بدائي لكلـب. كان من المحتمل حتى أن تنقطـع هذه الروابط وتتلاشـى لو بقـى العقـل دون تغيير. لكن العقـل تغيَّر، وتطـور الوعي، وبدلا من أن يحـدث ذلك تغيرت وتطورت دلالات الخطر. اشتد التأثير المشترك قوة، وأصبحت دلائل الخطورة شرطية تمامًا.

لكـن بدا لي أن هذه اليد لم يكن بإمكانها أن تبعث الخوف إلا في عمـر الطفولة فقط. لا... لقد صنـع التفكير المجازي من هذه اليـد رمزًا. صارت اليد العاديـة أداة متخيلة رمزية للعقاب، تتواءم مع درجة تطوري العقلي.

لماذا صارت اليد أداة للعقاب؟

لقد صارت كذلك تحديدًا بسبب ما عاقبتني عليه في أعوام طفولتي؛ أقصد الطعام وثدي أمي.

ارتبطت الدلالات الشـرطية الحقيقيـة والمنطقية، بالطعام في كل مكان.

في وقـت مـا لطَّخت أمـي حلمتها بالكينيـن حتى لا أعود أقرب ثديها ثانية. تحول الطعام إذن إلى مصدر للأذى، إلى سم. كان ذلـك أمرًا مؤكـدًا، فكثيرًا ما جلب الطعـام الأذى والمرض والألم.

وفي لحظـة أخـرى ضـرب الرعد المنـزل في وقـت تناول الطعـام، وزاد ذلك من التأكيد على السـابق، فالطعام يؤدي إلى التخمة، والأخيرة تهيئ الجسد للسكتة ونزيف المخ.

هـذا يعنـي أنه يلـزم تجنب الطعـام، لكن ذلك مسـتحيل، فحينهـا سـيأتيني المـوت! كيـف يمكـن التصـرف في مثل هذه الحالة؟ يجب أن نتناول الطعام ونعاني بسببه. هذا أمر طبيعي.

تذكـرت كيف كنت أتناول الطعام. تناولته دائمًـا وأنا واقف تقريبًا، وعلى عجلة شديدة من أمري، دون اهتمام وبلا مبالاة. كنت أنتظر العقاب الذي سيلحق بي إثر الطعام، وكان العقاب المتوقع في هذه الحالة هو المرض والتشنجات والشعور بالغثيان.

كنـت أزدرد الأدوية لأُقلـص خطورة هذا الطعـام. بدا لي وقتهـا أن العلم والطب سـيخلصاني من هـذه المخاطر. ابتعلت كميـة كبيرة من الأدوية قادرة على تسـميمي بدرجـة أكبر، لكن

أتـت النهاية حزينة ومهلكة. توقفت عـن تناول الطعام. لا بد أنه ظهرت وفرة من العوامل الشرطية التي أكدت لي خطورة تناول الطعـام المميتة. حـدث هذا الامتناع عـن تناول الطعـام مرتين طوال حياتي، ولم أفهم من أين جاءني. الآن فقط صارت الصورة جليـة مرعبة. لقد تزايـدت حدة الروابط العصبية الشـرطية بقوة متزايدة.

٧

عاقبتنـي اليد المُعذِّبة علـى تناول الطعـام. لكن ثدي أمي غذاني بالطعام وأنا في عمر صغير فقط. انتحل ثدي أمي بعد ذلك صورة المرأة والحب والجنس.

أهذا يعني أن صورة المرأة تحولت بالنسبة لي ليد العقاب؟ أهـذا يعني أنه توجب عليَّ أن أخشـى النسـاء وأتجنبهن وأنتظر العقوبة؟

أخذت أتفحص ذكرياتي وشعور بالخوف يراودني. تذكرت بخوف حيـاتي في مرحلة الشـباب، وخطواتي الأولـى، ولقاءات الحب الأولى. نعم، تجنبت المرأة دون شـك. تجنبتها وسعيت صوبها في الآن ذاته. سـعيت إليها والخـوف يكتنفني من العقوبة المُنتظرة، لقد لعبت بعض المشـاهد من طفولتـي المبكرة دورًا مؤثرًا على حياتي وأنا بالـغ، لكنني لم أتجنب المرأة دائمًا، أليس كذلك؟ بلى، ليس طوال الوقت.

لـم تكن أي امرأة تخيفني. خفت من تلك التي بإمكانها أن تخيف طفلا.

لكـن ما الـذي كان يخيفني تحديـدًا وأنا بالغ؟ مـا العقوبة التي كنت أنتظرها؟ ما نوع البلايا التي انتظرتها من خلف المرأة؟

أذكر مشـهد قتل رأيتـه في طفولتـي «الطلقة». قتـل الزوج عشـيق زوجتـه. اليـد المُعذِبـة تمسـك بسـلاح الرعـد وتطلق ضربتهـا، أو رصاصتها، وتعاقب المرأة بإطلاق الرصاص عليها وهي تركض شبه عارية نحو شرفتنا الخارجية.

أليسـت تلـك إمـارة علـى المخاطـر التي تأتي مـن خلف المـرأة؟ ألم تتبعها الرصاصة أو الضربة أو السـكين؟ المرأة هي الحب، والحب خطير.

أذكر الفتاة التي رمت بنفسـها في الماء بسـبب الحب. أذكر الخال جيورجي الذي أصيب بالسـل لأنه أحب نسـاء عديدات علـى حد قـول أمي، أذكـر الكتب التـي يوصف فيهـا القتل من أجـل الحـب، وعمليات الإعـدام المريعـة، وتسـميم الآخرين والمبارزات.

ارتبطت الإشارات الشرطية المميتة للمخاطر في كل مكان بالحـب والمرأة. اليد المعذبة هـي الزوج أو الأخ أو الأب، وقد اقترنت بهذا النمط.

الطلقة أو الضربة أو السل أو المرض أو المآسي بأنواعها... جميعهـا عقاب على الحب، علـى المرأة، على ذلك الأمر الذي

لم يُسمح به.

ظهر شيء حقيقي في هذه الإشارات. لم يفتقر الأمر إلى المنطق. بدا ذلك الاقتران الشرطي حقيقيًا. مع ذلك كان ذلك التصور مريضًا ومشروطًا. لم تتطابق قوة الإحساس وقوة الاستجابة مع حجم الاستثارة. بدأت لوحة غير عادية تتكشف لعيني.

فجأة فهمت في لحظة واحدة كل ما استعصى على فهمي. في لحظة واحدة رأيت نفسي كما بدت فعلا... رأيت نفسي فظًا كئيبًا ضئيلا، أشعر بالخوف من أي ظل يقترب مني. كتمت أنفاسي، وحدقت فيما حولي وأنا أستمع إلى خرخرة النمور، بينما أركض وسط أجمات الغابات. وما الذي يمكن أن أجده في قلبي سوى الكآبة والإنهاك؟!

لا، الأمر لا يتوقف على شعوري بالاضطراب مما رأيته وفهمته فجأة، بل إني شعرت بالهلع والصدمة وسقطت في هوة اليأس.

تذكرت الكلمات الآتية لأحدهم:

«آه يا تجاربي المريرة! لماذا أردت أن أعرف كل ذلك؟ لن أموت الآن في هدوء كما آملت»[1].

لكنها لحظة ضعف ويأس قصيرة، وقد نشأت بسبب شعوري بالخزي من أني لم أعرف شيئًا في السابق، ولم أتوقع

(١) من كتاب الوحدة لـ: ف روزانوفا.

أبدًا أن أغرق وسط كل هذا الهراء.

واصلت التفكير بعقل بارد في العواقب المؤلمة لحادثتي المؤسفة.

٨

أذكر جيدًا يوم أُصِبت بنوبة قلبية. ماذا حدث حينها؟ كان الوقت مساءً في موعد تناول طعام العشاء. اصطحبتني كلافا الممرضة إلى غرفتها. تبادلنا القبلات هناك، ثم رحلت إلى القرية حيث قوات الفوج. نمت على الفراش حتى حلول الصباح، ربما خمس ساعات. في السادسة صباحًا سقطت القنابل الأولى على القرية.

أتذكر ما حدث تفصيلا؛ نمت على صورة تلك المرأة في ذهني، وفجأة استيقظت عندما هز انفجار القنابل الرهيب أنحاء البيت.

ربما كانت آثار الكحول لا تزال تُضعف من عمل دماغي في هذا الصباح، فاستقبلت الانفجار بوصفه أمرًا مسلمًا به. عاودتني أفكار الطفولة القديمة. كان من الضروري تجنب المزيد من الضربات، تجنب المزيد من اللقاءات بهذه المرأة.

شعرت أني في حالة سيئة، وبدأت أشعر بالاختناق، فقد كانت الاستجابة الآلية التي تحدث لي عُصابية عاصفة، ومع ذلك بدت عملية، فقد تركت الأماكن الخطرة، ومزَّقت هذه

الرابطة الخطيرة.

لا، لـم أنس مـا يفرضه علـيَّ الواجب والضميـر. غادرت بهدف عـلاج قلبي حتى أعـود إلى الصفوف ثانيـة. رحلت وقد عزمت أمري على ذلك كل العزم.

تذكرت حكاية مرضي الأخير في توابسي.

مـا الـذي حـدث في ذلـك الوقـت؟ جلسـت علـى مقعد الاسترخاء فوق متن الباخرة، وشعرت أني في خير حال. استغرقت في التفكير بسعادة في أني سألتقي بأصدقائي في موسكو، وكذلك بالمرأة التي أحبتني وشعرت بالإعجاب بها.

تذكـرت تفصيـلا كيف فكـرت بحزن في زوجها. شـعرت بالتعاطـف معه، وشـعرت بالخزي من خداعي لـه. كان يحبني جدًا، وتعامل بلطف شديد معي. بدا لي حتى أنه يتعامل بتسامح فيمـا يخـص علاقتي بزوجته، فمـا الذي بعـث فيَّ الهلع في تلك الحالـة إذن؟ أهو المسـدس الصغير المعلـق في حزامه؟ لم ترد هذه الفكرة على ذهني مرة واحدة، أيمكن أن تكون قد أتتنى من الطابق السفلي المظلم لعقلي؟

جلسـت علـى مقعد الاسـترخاء مسـتمتعًا بمنظـر البحر. ثبَّت نظري على سـطح المياه. ربما يكون قد ظهر خلف عتبات الوعـي ذلك الاقـتران؛ أقصد تلـك الروابط القديمـة بين المياه واليد والمرأة.

استلقيت على الأرض في نُزُل بائس في توابسي. أذكر بدقة

كيف نهضت من على الفراش واستلقيت على الأرض. فعلت ذلك في اللحظة نفسها تحديدًا التي بدأت فيها العاصفة الرعدية وسُمع صوت الرعد. أيكون الأمر أني ربما أردت أن أهرب من الفراش الذي حدثت عليه ذات يوم تلك الدراما الطفولية القديمة؟ لا شيء آخر يمكنه أن يفسر ذلك الانتقال السخيف للأرض. ابتعدت عن هذه الروابط وهربت منها دون أن أستطيع تمزيقها.

٩

هذا يعني إذن أن تلك المشاهد الطفولية لعبت دورًا هائلًا يمكن أن يصيبني في مقتل. لكن هل كنت في كامل وعيي؟ نعم. لكن وعيي لم يستطع أن يدرك من أين تجيئه هذه البلايا. لم يستطع أن يُقوِّم تصرفاتي لأنه لم يفهمها. خضعت تمامًا للخوف، ولم ير الوعي سوى الأعراض المُحرَّفة فقط لذلك الخوف. بدت الأعراض وكأنها مرضية؛ أعراض لذلك المرض الذي عانيت منه.

ظهرت هذه الاستجابة المرضية حينها بقوة هائلة، لأن مصادر الاستثارة الأربعة ظهرت لي تقريبًا في وقت واحد.

ظهر نوع من القصدية والملاءمة في تلك الاستجابة. لقد أردت أن أرحل من توابسي إلى موسكو، لكن حالتي السيئة،

وخاصة نوباتي القلبية، صعّبت الأمر[1]. تخليت عن فكرة السفر إلى موسكو وعدت إلى منزلي.

حينما تكشف كل شيء، وحينما بدأ الخوف يفارقني تدريجيًا، تركت ذات مرة نوبة قلبية تصيبني دون أن أحاول قمعها أو علاجها بالأدوية. سمحت لها بالظهور والعمل إلى تلك الدرجة التي بعثت فيَّ الخوف سابقًا. لكني الآن أستطيع السيطرة عليها، وتبينت الأمر كله بدهشة كبيرة، فوجدت أن الأعراض المعتادة التي تحدث لقلبي تنشأ من تشنجات المعدة والأمعاء. كانت هذه التشنجات قوية جدًا إلى درجة الضغط على الحجاب الحاجز، وهذا هو ما يؤثر بدوره على القلب. الخوف إذن هو ما يقبع خلف هذه النوبات القلبية، والأعراض المرضية كانت ببساطة أعراضًا للخوف. بالكشف عن هذا الخوف استطعت أن أتحكم في هذا العصاب الذي يؤثر على القلب بسهولة كما لو أنه لم يظهر أبدًا.

كان ذلك هروبًا، وهو أبسط من كل الأفعال المنعكسة الدفاعية... كان ذلك هروبًا وتصنعًا في الوقت ذاته.

لكني أُكرِّر أني لم أهرب في كل مرة، أو أدَّعي المرض. كنت أهرب وأدَّعي المرض في حالة واحدة؛ عندما أصطدم

---

(١) عندما يتكشف كل شيء بعد ذلك سوف أوضِّح تفصيلا سبب نوباتي القلبية. لهذا العصاب جذور قديمة فعلا. لقد أصابني بفضل الأطباء الذين عالجوني بالأدوية والماء. استسلمت لهذا المرض بخضوع، بل إني تعودت عليه أيضًا. (المؤلف)

بعناصر مرضية.

أذكـر حادثًا غريبًا للغاية. وحتى الآن، وبعد مرور خمسـة عشر عامًا، لا زال وجهي يتلون عندما أتذكره.

أسـير مع امرأة في بيترهوف وقد تشـابك ذراعانا. توجهنا صوب البحر. فجأة شـعرت أني في حال سـيئة. بدا لي كأن قلبي يتوقف عن النبض، وبدأت أشعر بالاختناق.

شَـعرَت مُرافِقتـي بالخـوف من قـوة حالتـي. أرادت أن تسـاعدني، لكني طلبـت منها أن تبتعـد وتتركني وحـدي، قائلا إن حالتـي عـادة ما تتحسـن عندما أكون بمفـردي. فارقتني وقد شـعرت بالإسـاءة، والتقت بي بعد يومين وقالت لي إني ادعيت هذه النوبة كي أفارقها وأبتعد عنها.

شعرت بصدمة شديدة من وقاحتها، وتشاجرنا.

لكني لم أفهم أنها على حق إلا الآن.

لا شـك أني تظاهرت فعلا بهذه النوبة، وتصنعت المرض، لكني لم أفهم ذلك حينها.

أذكر جيدًا ناديا التي كتبت عنها كثيرًا في مذكراتي.

أهـذا يعني أني ظللت أهرب منها؟ لا يمكن أن يكون الأمر ذلك. لقد أحببتها. هذا محض هراء.

لا، هذا ليس هراءً. لقد هربت منها فعلا.

لكن لماذا؟ أيكون الأمر بسبب أنها أنثى، لذا فهي تُذكِّرني بأمي؟ لكنها لم تشبه أمي في شيء على الإطلاق. ملامحها بعيدة

تمامًا عن ملامح أمي. حسنًا، لم أخف من نموذج أمي، لكني خفت مما له علاقة باليد والرعد.

١٠

لا... لم أعد قادرًا على الاستمرار في وصف حياتي. لا يقتصر السبب على أن ذلك يبعث في الحزن، لكني أيضًا أشعر بالخزي والإذلال من الاعتراف بأن كل هذا الهراء قد أحاط بي كاملا.

إني أطرح على القارئ ذكرياتي الدنيئة، وحكاياتي الصغيرة عن حياتي. الآن يمكن رؤية هذه الحكايات تحت ضوء آخر. يمكن أن نتبين فيها كل شيء.

يمكننا أن نرى فيها أربعة أنواع من مصادر الاستثارة أثرت عليَّ بقوة ضغطها الهائلة.

يمكننا أن نرى فيها خوفي الكامن في اللاوعي. يمكننا أن نرى فيها آليات الدفاع والتصنع والهروب. يمكننا أن نرى فيها هذه المرارة التي اكتنفت حياتي.

يمكننا أن نرى أيضًا شكل علاقتي بالنساء، وهو الأمر الذي لم تستحقه النساء.

يا لتلك الحياة المريرة والحزينة التي عشتها!

يا لذلك القلب المغلق! لابد وأن تُفتح أبوابه ثانية.

٩
روابط خطرة

تخاف من قرصة دودة تافهة![1]

١

أيعني ذلك أن الأمر عصاب جنسي؟

لا، لم يكن مرضي عصابًا جنسيًا، لكن الدوافع الجنسية دخلت إلى هذه التركيبة المعقدة من العصاب، بما يتفق مع درجة نمو وتطور العقل. غابت هذه البواعث الجنسية عن العُصاب الأصلي.

لقد رأينا كيف ظهرت آليات العُصاب. لقد ظهرت على أساس مبدأ الفعل الانعكاسي الشرطي. ربطت الروابط العصبية الشرطية بين أربعة بواعث، واحد منها هو ثدي الأم، لكنه شكل مصدر الغذاء. الثدي هنا مرتبط بالجوع لا بالجنس. بدا للطفل أن فقدان ثدي الأم يجلب الهلاك والدمار، ولم تتجاوز الحرب والصراع النفسي حدود غريزة حماية الذات. يعتبر فرويد أن كافة دوافعنا يمكن اختصارها في الميل الجنسي، وأن الجنس

(١) من مسرحية واحدة بواحدة لشكسبير. الفصل الثالث - المشهد الأول.

(الإيروس) هو أساس مشاعرنا ومشاعر الطفل أيضًا. لكن هذا المثال يشير إلى أمر آخر. يمكننا هنا أن نلاحظ غياب العامل الجنسي، ولم يظهر الباعث الجنسي بعد ذلك إلا بنمو الطفل. ربما ظهر في أول الطفولة، لكنه لم يظهر عند تشكل هذه الآليات الشرطية.

حتى إن افترضنا أن الطفل قد اختبر شعورًا آخر بالإضافة للشعور بالجوع والبهجة المقترنة بإشباعه؛ ألا وهي بهجة غامضة. فقدان مثل هذه البهجة في المستقبل، فقدان الإيروس والليبيدو - بحسب تسمية فرويد - لا يمكنه أن يُفسِّر لنا ظهور هذا العصاب.

فقدان الليبيدو (فقدان الفرحة والبهجة) لا يحدث إثر الخوف من الإخصاء. بإمكان أي نوع من الخوف أن يمهد السبيل للإخصاء، لقد ظهر الخوف والصراع النفسي في الطفل لأسباب مادية فظة. شكّلت الأهداف التي أخطأ الطفل في فهم معناها الشرطي مصدر العُصاب، وهو بدوره ما أنتج الخوف وفقدان البهجة. صار السرور الناجم عن إشباع الجوع مقترنًا بالخوف، وجمعت الروابط العصبية الشرطية بين الشعور بالبهجة وانتظار البلية. أزالت هذه الرابطة العصبية الشرطية تحديدًا البهجة تمامًا، وجلبت الكارثة. ربض الشعور بالجوع والخوف من فقدان مصدر الغذاء خلف عتبة الوعي، وقد وجدا التربة الخصبة ليترعرعا فيها.

لا يشكل العامل البيولوجي وحده عالمنا اللاواعي. لا شك أن هذا العالم قد اختبر دومًا – وما زال – عوامل ضغط أخرى، ضغوط خارجية. الصراع من أجل البقاء، والحصول على الغذاء، والعمل.... كل هذه العوامل تؤثر بشدة على لا وعينا.

في هذا المجال تحديدًا تظهر المخاوف: الخوف من فقدان مصدر الغذاء – الخوف من الموت – الخوف من فقدان الطعام أو العمل. لذا ليس من الممكن اختصار كافة دوافعنا في الميل الجنسي، فالمخاوف التي تظهر على أساس عوامل اجتماعية ليست أقل فاعلية. في بعض الأحيان تستطيع أن تهيمن على لا وعينا، وتعمل على إعداد التربة الخصبة لإصابتنا بالأمراض.

عالم اللاوعي أكبر اتساعًا وأشد تنوعًا من العالم الذي يمكننا أن نتخيله إن لم نضع في اعتبارنا سوى الحافز الجنسي. لا شك أن الحوافز الجنسية تؤثر علينا بشدة، لكنها ليست المؤثر الوحيد على الإطلاق، والكبت الجنسي ليس إلا جزءًا من تركيبة الكبت المختلفة التي تميز أنواع العصاب. تؤكد آليات العقل التي اكتشفها بافلوف على ذلك بدقة رياضية.

٢

لا يمكننا أن نضع أيدينا على الأسباب الحقيقية للمعاناة العصبية إن لم نضع في اعتبارنا قوانين الأفعال المنعكسة الشرطية.

لم يضع فرويد تلك الآليات في اعتباره، لا في الحالة العادية ولا في الحالة المرضية، واعتقد أن السبب يعود لتأثير قوى آخر مثل صراع قوى العقل العليا مع الدنيا، واصطدام الميول الرجعية بشعور الإنسان المتحضر المعاصر.

اعتقد فرويد أن سبب العصاب هو كبت هذه الميول. لكن كبت هذه الميول الحيوانية، والصراع في هذا المجال بأكمله هو أمر أخلاقي في المقام الأول. ينتمي هذا الصراع في الأساس لمجال البحث في موضوع المعاناة الأخلاقية.

هذا ما حدث تحديدًا، بل وأكثر من ذلك. فبعد الاصطدام بقوى أخرى غير جنسية، أخضعت النظرية هذه القوى تمامًا لصالح الميل الجنسي. حتى الشعور بالجوع صار من وجهة نظر النظرية أمرًا جنسيًا. الخوف من فقدان مصدر الغذاء أيضًا صار من وجهة نظر النظرية خوفًا من الإخصاء. اضطرت النظرية إلى ذلك، وإلا اضطربت نتائجها، ولما صارت صياغتها المثالية الرئيسة مبررة.

انخرطت النظرية في البحث عن أنواع المعاناة الجنسية المختلفة. أنا لا أنكر قوتها الكبيرة بشكل كامل ولا أهمية فحواها، أو فاعليتها في عملية العصاب، لكنني أشك في أنها هي السبب خلف كل هذه المشاكل، فلن يكون من الصواب أن نعتبرها السبب الوحيد لكل تلك البلايا.

اصطدمت بهذا الخطأ في الدرس العملي الأول لي. لقد

ذكرت سابقًا للقارئ في الفصل الرابع كيف فسّر أحد الأطباء الفرويديين حلمي الأول.

لم يستطع الطبيب فهم مغزى اليد التي رآها الطفل في الحلم. اعتقد أن الطفل قد قرن بين اليد وخرطوم الفيل، وأن خرطوم الفيل في حقيقة الأمر يمثل العضو الذكري.

يد المتسول، يد الفقير، اليد التي تمنع الغذاء، مخلب الوحش، الحيوان المفترس، النمر... كل ذلك اكتسب معنى رمزيًا غير خطير على الإطلاق، ولا مخيف وغير مفهوم للطفل في كل الأحوال.

يوضح لنا هذا المثل كيف تحاول النظرية أن تخضع كل شيء للعامل الجنسي. يتضح الخطأ هنا بدرجة مدهشة.

لكن الممارسة تؤكد أن التحليل النفسي الفرويدي بإمكانه أن يداوي. لا شك في أنه يفعل ذلك. كل معرفة في هذا المجال، حتى لو كانت تقريبية، بالإضافة إلى سيطرة العقل على القوى الدنيا بإمكانها أن تحقق الشفاء.

في ضوء المنطق يمكن طرد وإبعاد مثل هذه القوى.

يتسم التحليل النفسي الفرويدي بالإحكام الشديد، لذا لا بد له أن يعمل على الشفاء في الحالات التي تلعب فيها العوامل الجنسية دورًا كبيرًا، أو بشكل أدق، في تلك الحالات عندما تتحول المحفزات الشرطية الأصلية إلى استثارات جنسية شرطية. لكن يمكن أن يراودنا الشك في كمال هذا العلاج، أو

بمعنى أدق في أن يكون علاجًا تامًا ونهائيًا. يصطدم كل من الطبيب والمريض بمشاكل أخلاقية، ولا يمكنهما أن يريا عبرها الآليات التي في حاجة إلى تقويم، ولا الروابط العصبية التي يجب تمزيقها. تواصل مثل هذه الروابط العصبية الشرطية عملها بفاعلية، مما يعمل على عودة المرض، وعلى ما يبدو يتسبب في ظهور مقاومة كبيرة.

يتمثل جوهر العلاج تحديدًا في العثور على هذه الروابط وتمزيقها، والفصل بين الأهداف التي تبعث الرعب في المريض، وإظهار جوهرها التافه الحقيقي.

٣

تبين إذن أن عالمًا واسعًا لم يأخذ حقه من الفحص خلف عتبات الوعي... إنه العالم الأدنى، العالم الحيواني.

لقد اقتحمته الانطباعات الأولى للطفل بقوة كبيرة، وبقيت في داخله. لقد اتضح أنها انطباعات خاطئة وغير حقيقية، ومن ثم تسببت في إحداث المرض، وأوقدت الصراع، وأوقفت التطور، وعقَّدت سلوك الشخصية.

لم يُقوِّم التطور العقلي هذا الخطأ، بل على النقيض من ذلك؛ فاقمه، وجعله منطقيًا، وحوَّل الأهداف المرضية إلى رموز.

استمرت الروابط الشرطية في عملها، وكذلك الإشارات

الشرطية: الكاذبة والمزيفة، وواصلت تغذية ودعم هذه الروابط العصبية.

لقد كان مرضًا... مرضًا ضد المنطق والفكر السليم. لقد كان عُصابًا لم يسهل اكتشافه في البداية.

في هذه الحالات يبدو سلوك الإنسان عقلانيًا، فسلوكيات هذا المريض لا تختلف في شيء عن سلوكيات الإنسان الطبيعي. تحدِّد تأثيرات قوى مختلفة - اجتماعية في المقام الأول - نمط السلوك، وفي أحيان قليلة كشفت هذه السلوكيات النقاب عن نوع من الانحراف، نوع من الغرابة.

كان بالإمكان ملاحظة هذا الانحراف بشكل خاص في السلوكيات البسيطة اليومية في الحياة، كان النوم مثلا أكثر راحة على الفراش، لكني نمت عادة على الأريكة.

كان من الأنسب تناول الطعام على الطاولة، لكني ظللت أتناول طعامي واقفًا مسرعًا، وفي بعض الأحيان تناولته وأنا سائر. كنت أغتسل واقفًا وعلى عجل شديد في المغطس. أغلق باب غرفتي بإحكام شديد، شاعرًا بالخوف من شيء ما غامض.

أؤدي عشرات الأفعال الغريبة، وتبدو مغفلة وغير منطقية، لكنها في الوقت ذاته تبطن في نفسها منطقًا صارمًا؛ منطق إنسان يود أن يهرب من لقائه بأغراض مرضية. لم يكن العثور على المرض ممكنًا سوى في هذه اللقاءات.

من الممكن أن يُكوِّن الأطباء بعد ذلك صورة عن المريض

من خلال تصرفات الإنسان الغريبة والهوائية، ومنها يمكنهم أن يجدوا مصادر انفعاله الشديد. ربما يكون هذا أبسط من البحث عن أسباب بليته في أحلامه، فكافة تصرفاته الغريبة طفولية، تكاد تحاكي تمامًا مشاهد من حياة الطفل الصغير.

مرَّت عليَّ فترة خشيت فيها الشارع. كنت أتهرب منه. توقفت عن التمشي فيه. في البداية بدا الأمر غريبًا، لكن من خلف هذا الفعل يوجد هدف. المخاطر أقل وطأة داخل المنزل. في الشارع هناك أبقار وكلاب وصبية بإمكانهم مهاجمة المرء. يمكن أيضًا أن يضل المرء طريقه في الشارع. يمكنه أن يختفي ويتلاشى. يمكن أن يستولي الغجر عليه أو حتى منظفو المداخن. يمكن للسيارات أو العربات أن تسحقه. خارج المنزل يوجد الماء والمرأة والحرب والغازات والقنابل والطائرات. بالتالي قرنت الروابط العصبية بين الشارع وعشرات البلايا. كانت الإشارات الشرطية لخطورة الشارع كثيرة، واقترن الشارع تمامًا بالتعرض للمخاطر، ولم يعد من الممكن تمزيق هذا الرابط، وقد أدت وفرة هذه الإشارات إلى الخوف والرغبة في التهرب من الشارع. لقد شعرت بالخوف للمرة الأولى تحديدًا في الشارع.

٤

جلبت المرأة -مثل الشارع تمامًا- مخاطر جمة معها، وحَّدت الروابط الشرطية الدفينة بين المرأة وكثير من البلايا.

بدت الحرب والتناقضات في مجال المشاعر أقوى وطأة، لكنها لم تسر على الإطلاق طبقًا لطرق أخلاقية.

يعتبر فرويد أننا نرى عادة في المرأة الأم أو الأخت، وهذا هو سبب التحريم والكبت. الحضارة والأخلاق... هذه - على حد قولهم - هي البلايا التي تفضي بالإنسان إلى المعاناة. لا شك أن انطباعات الطفل الأولى، والأحاسيس الأولى يمكنها أن تتوجه حقًا نحو الأم أو الأخت. هذا أمر طبيعي. لكن هذا الصراع لا يُنتج فقط هذه المعضلة الأخلاقية، ولا الخوف من العقاب، لكن الصراع يظهر في الأساس عند لقائه بأهداف مرضية. هذه الأهداف تقرن بعد ذلك بين الأم والمرأة. لا يحدث الكبت بسبب العلاقة بين الجنس وهذه الحرب الأخلاقية، لكنه يظهر في الأساس بسبب الخوف الذي يرتبط شرطيًا بأهداف أخرى مرضية.(١)

ليست عقدة أوديب هي الحاضرة خلف قراراتنا اللاوعية، بل شيء أكثر بساطة من ذلك. لا شك أن الصراع الأخلاقي حاضر، وأنه قد يكون عظيمًا، لكنه لا يؤدي إلى صراع مرضي، بل يُحدِّد فقط نمط المرض وشكل السلوك.

ما يحدد الأمر فعلا هي الروابط الشرطية، وكذلك الدلائل

---

(١) هذه التسمية «أهداف مرضية» استعرتها من دي بويز (فيلسوف وفيسيولوجي نمساوي). أطلق هذه التسمية على تلك الأهداف التي تترك انطباعات مرضية في المريض ترتبط شرطيًا ببلاء أو ألم أو صدمة ما. (المؤلف).

الشـرطية، التي تؤدي وفرتها ودقتهـا إلى خلق المرض وتفاقمه. عـلاوة علـى ذلك، فتوفر الحـد الأقصى من هـذه الدلائل يجبر المرء على الرفض التام للقاء أي من هذه الأهداف المرضية.

لهـذا غالبًـا لا تحـدث الكارثـة في أعـوام الشـباب، بل في المرحلـة التي تـتراوح بين خمسـة وثلاثين وأربعيـن عامًا. قبل ذلك يمكن للشـخص بطريقة أو بأخرى أن يناور متهربًا من هذه الأهداف المرضية، ففي هذه المرحلة لا تبلغ بعد الحد الأقصى من القدرة على تخويفه.

لكن وفرة الدلائل تحرم المرء من أي أمل.

كمـا يحـدث التكلـس في الشـرايين ويتراكـم في أوردتنـا ويفسدها، هكذا تتكدس الدلائل في نفسنا، وتبعث فيها الخوف، وتعزلها عن الحياة وتميت أنسجتها وتشوها وتقودها إلى الهلاك. ربما هذا هو أحد أسباب الضعف والموت والشيخوخة المبكرين.

٥

لا شـك أن عُصابـي كان من النوع الصعـب، وقد أصيبت الشرايين الرئيسة التي تسري فيها الحياة.

الطعـام والحب... الماء ويد العقـاب... هذه هي العوامل التي حتَّمت النهاية التعيسـة. لم يكن هنا مفر من الهلاك؛ الهلاك جوعًـا أو خوفًا أو حتى عطشًـا. تمكن أيضًا الخوف من العقاب وجنون الاضطهاد من إيجاد مكان لهما في هذه النهاية.

كان من السهل تسمية هذه النهاية بالعُصاب، في الوقت الذي كانت فيه بمثابة إجابة عاصفة - أو بمعنى أصح - تركيبة من الاستجابات، على مؤثرات شرطية. علاوة على ذلك فإنها إجابة قصدية من وجهة نظر العقل اللاواعي الحيواني. يوجد رد فعل انعكاسي دفاعي في أساس هذه الاستجابة، وأيضًا دفاع ضد المخاطر... إنه خوف الكائن الحيواني... خوف الطفل الصغير. ليست للعقل سيطرة حقيقية على هذه الاستجابة، فاستخدام المنطق لم يكن مسموحًا به، وأدى الخوف دوره بدرجة مدمرة. لقد اكتنفني الخوف بشدة، ولم يفارقني سريعًا. أخذ يضغط عليَّ بقوة متزايدة، وكلما تعمقت في هذا العالم المذهل، قلت قدرتي على فهم قوانينه. لكني اخترقت هذا العالم. وأنار ضوء عقلي ظلمات مريعة ربضت فيها المخاوف حيث وجدت القوى البربرية مأوى لنفسها وألقت بظلالها على حياتي.

لم تتراجع هذه القوى عندما اقتربت منها. لقد قبلت المعركة، لكنها لم تكن معركة متكافئة. لقد تحملت الهزيمة في الظلام من قبل. لم أعرف من الذي أحاربه تحديدًا، ولا فهمت كيف يتوجب عليَّ أن أقاتل. لكن الآن، عندما أضاءت الشمس موقع المبارزة، رأيت أخيرًا وجه عدوي البربري البائس. رأيت حيله الساذجة، وسمعت صيحاته القتالية التي كانت تبعث فيَّ الخوف سابقًا. الآن. لم أعد أخاف الآن منها بعد أن تعلمت لغة العدو. أخذت أدفع عدوي خطوة بخطوة، وبينما يتراجع وجد

في نفسه القوة على تنفيذ بعض الأفعال التشنجية كي يبقى في مكانه ويُواصل الحياة والتأثير.

لكن وعيي سيطر على قدرته على التأثير، صرت أتفادى ضرباته بسهولة، وأقابل مقاومته بابتسامة. حين زالت قوة الخوف على الإحاطة بي، وتوقفت مقاومته في النهاية، هرب من أمام وجهي.

كم كلفني هذا القتال!

كنت أستلقي على بطني على الفراش، وبجانبي سلاحي: الورقة والقلم الرصاص. أحيانًا ما لا تكون لديَّ حتى القوة لرفع يدي حتى أمسك بهما ثانية.

بدا لي أن الحياة تفارقني.

كما قال جوته:

من يريد أن يدرس كائنًا حيًا

دائمًا يقتله أولا[1]

لم أستطع على الانبعاث من رمادي ثانية فقد صرت قتيلا، ممزقًا إلى أشلاء، وغطتني الجروح.

كنت أستلقي دون تنفس تقريبًا، في انتظار عودة عدوي ثانية وحينها سينتهي كل شيء. لكنه لم يعد ثانية.

من وقت لآخر تظهر الأعراض المعتادة، لكنها لا تقترن بالخوف. بدأت الحياة تعود إليَّ بسرعة وقوة شديدتين حتى أني

(١) من تراجيديا فاوست لجوته.

شـعرت بالذهول والارتباك. فارقت فراشي ولم أعد الشخصية التي كنتها. صرت في حالة صحية رائعة، شاعرًا بالقوة، والسرور الشديد يغمر قلبي.

صـارت حيـاتي تمتلـئ بالبهجة والسـعادة والمرح في كل سـاعة، في كل دقيقـة. لـم أختـبر ذلـك من قبـل. للمـرة الأولى شعرت بأن ذهني صافٍ إلى هذه الدرجة، وقلبي مفتوح، وإرادتي حرة. صرت ألاحظ نفسـي بدهشة بالغة؛ ألاحظ كل حركة وكل تصرف وكل رغبة. بدا كل شـيء شـديد الجدة ومدهشًا وغريبًا. للمرة الأولى أشـعر بمذاق الطعام ورائحة الخبز. أدركت للمرة الأولى ماذا يعني النوم الهادئ، والشعور بالراحة.

كنـت أهـرع هنا وهنـاك، ولا أعـرف كيف يمكننـي تبديد هـذه القوة الرهيبة التي أشـعر بهـا، والتي لم أعتد عليها سـابقًا، ولـم أعد مقيدًا بهذه القيود السـابقة. تحركت بـإرادة الحياة التي تملأني كدبابة، ودهسـت كل العقبات والحواجز بسـهولة كدت أن أتسـبب في كثير من البلايا لا تتناسـب مع خطواتي وتصرفاتي الجديدة. حينهـا أمعنت التفكير في حيـاتي الجديدة، ولم تبد لي جذابـة كمـا كانت في الماضـي. بدا لي أن النـاس يحملون حزنًا أكبر من السابق عندما كنت مقيدًا وضعيفًا.

وخيَّم حزن جديد على صدري
وأسفت على هجراني لأصفادي[1]

---

(١) من قصيدة سجين تشيلون لبيرون.

كان أمامـي اختيـار أن أعـود إلى الخلـف دون أن أحكم انتصـاري على عـدوي، أو أن أمضي إلى الأمـام أو أهب قواي الجديدة للفن، وهو أمر اعتدت عليه لعدم استطاعتي التعبير عن مشاعري سوى على الورق.

لكـن عقلي الآن قد تحرر. وصار بإمكاني أن أرتب أموري كما أشـاء. تمسـكت ثانية بما تبقى لي في يـدي: إنه الفن، وتلك المرة لم أفعل ذلك بقلب يائس ولا بنظرة حزينة.

امتـد أمام ناظريَّ طريق مذهل، أسير فيـه فعلا منذ أعوام عديدة. طـوال هذه الأعوام لـم أعرف طبيعة هـذا الحزن وهذه الكآبة وذلك الإنهاك. لقد نسـيت كل ما يتعلق بهم. أود أن أشـير لشيء: أنا لا أختبر الحزن دون سبب، لكني ما زلت أَمُر بحالات مزاج سيئة بالطبع، لكنها تعتمد تمامًا على الأسباب الخارجية.

٦

ولكـن كيف جاءني الشـفاء؟ مـا الآليات التـي أُصلِحت؟ لماذا فارقتني مخاوفي القديمة؟

لقد فارقتني لسـبب واحـد؛ ألا وهو أن ضوء العقل قد أنار وجودها غير المنطقي.

ارتبطـت هـذه المخـاوف تمامًـا بالأهداف التـي لم تكن خطيرة في واقع الأمر كما رآها عقل الطفل.

كانـت المسـألة تحديـدًا في إمكانيـة تمزيـق هـذه الرابطة

العصبية الشرطية غير المنطقية.

لقد مزَّقت هذه الروابط. قضيت على الاقتران بين المصائب الحقيقية والأهداف الشرطية التي كانت تبعث الخوف، ومنحت الأخيرة معناها الحقيقي. تمثَّل العلاج تحديدًا في ذلك. عالج المنطق غياب المنطق!

لكن تمزيق هذه الروابط العصبية الشرطية لم يكن أمرًا سهلا دائمًا، فبعضها كان شديد التعقيد والتشابك والتنافر. بعضها بدت سخيفة للغاية إلى حد الهزل، حتى أنها تكاد تكون بلا معنى تقريبًا، لكن في كل مرة أجد فيها مثل هذه الروابط يتوجب عليَّ أن أضع في الاعتبار موقف الطفل الصغير، ويصبح ضروريًا أن أرى الأمور من منظوره، وأفكر بطريقة تفكيره وأشعر بمخاوفه.

اتخذ الرعد والماء واليد صورًا مختلفة، وفي كل مرة تقرنها الروابط العصبية بأهداف أخرى. أحيانًا تبدو الخطورة المتخيلة لمثل هذه المواضيع مثيرة للسخرية. وعلى الرغم من ذلك فلا زالت حتى الآن تثير المخاوف وتمارس تأثيرها على الحياة.

اقترنت يد العقاب بالدرجة ذاتها بالطعام والمرأة والعمل، وبسلوكي كله. كان العقاب يُنتظر في صورة ضربة أو طلقة أو نزيف في المخ. من الواضح بالطبع هنا أن قوة الإحساس لا تتناسب بتاتًا مع المؤثر. ذكرت سابقًا حلمًا يصف كيف غمرت المياه غرفتي ذات مرة، وكيف خرجت من كافة شقوق الأرض

وأخذ منسوبها يواصل ارتفاعه، وكيف شعرت بخطر الموت يدهمني. يتوجب علينا أن نرى خوف الطفل وعواقبه ورمزيته الشرطية حتى في حلم سخيف كهذا.

لا أعتقد أنه من الممكن أن أُعدِّد هنا كل ما اصطدمت به. إن كتابي هذا ليس كتابًا طِبيًّا يشرح طريقة العلاج. بالإضافة إلى لذلك لدينا أدبيات عديدة حول التحليل النفسي، ويسرد لنا فرويد هذه الحالات بدقة متناهية على الرغم من الاستنتاج الخاطئ الذي يتوصل إليه.

لكن عليّ أن أذكر المزيد عن الروابط الشرطية. في كل مرة أُمزِّق فيها هذه الروابط العصبية الشرطية أتساءل كيف تكونت، وكيف تمكنت من التأثير بهذه الطريقة؟ لقد وصل تأثيرها إلى حد تهديد الوجود نفسه. توجب عليّ في كل مرة أن «أتحدث مع الكلب[1]» كي أدمرها.

لقد مزقت هذه الروابط الشرطية التي تجلب لي البلايا شر تمزيق. عندما فعلت ذلك تحررت من الكبت المرضي الذي كان يظهر في كل مرة عند لقائي بالأهداف المرضية، كان هناك فعل انعكاسي دفاعي عادي يكمن في أساس ذلك الكبت.

لا يمكنني ادعاء أن هذا الفعل الانعكاسي قد تلاشى تمامًا، فقد تبقت بعض أعراض هذا النظام الآلي، لكن المنطق قد نزع فتيله تمامًا، فتوقف عن الاقتران بالخوف، وبفضل ذلك

(١) من المحتمل أن الكلب يمثل الخوف بالنسبة للمؤلف.

بدأ في التلاشي تدريجيًا.

ربما ما زالت في حاجة إلى خمسة عشر عامًا للانطفاء تمامًا. حسنًا... هذا داخل نطاق الحياة الإنسانية. سيكون من الجيد لي أن أدرك قبل موتي أن آليات العقل قد تجددت كاملا.

٧

لقد وعدت صديقي الفيسيولوجي ألا أجري تعميمات في عملي هذا.

تذكرت تحذيره لي من أن أعد الناس بشيء.

ولكن ماذا؟! ها أنا أتحدث فقط عن حياتي وعن أيامي الحزينة وأيام تحرري.

لم أتخط حدود مرضي الذي استطعت التخلص منه.

لكن لا شك أن الناس الذين يتمتعون بالسمات التي لديَّ، وبهذه النفسي الحساسة، يمكنهم تحمل مثل هذه البلايا. أعتقد أن بإمكاني هنا أن أقوم بنوع من التعميم في حدود هذه الأمراض التي تندرج تحت تسمية «العُصاب».

لكن إذا لم يتفق العلم معي، ووجد أن تعميمي جريء للغاية، لن أصر عليه.

هذا يعني أني أعتقد أن مرضي كان استثنائيًا إلى حد ما، وليساعدني حينها الرب على المضي إلى الأمام على الرغم من تلك القواعد القائمة التي اضطررت بموجبها أن أنهي طريقي

الأرضـي الضعيف بهذه الطريقـة المحزنة. ما زلت أجد نفسـي مضطـرًا إلى إجـراء تعميـم آخر، فقوانيـن الروابط الشـرطية لا تنطبـق علـى الجميـع بالمقدار ذاتـه، لكنها تُشـكِّل - بدرجة أو بأخرى - خطـرًا، حتى على أولئك من لا يتمتعون بطبيعة عقلية حساسة.

لهذه الروابط الشرطية خطورة كبيرة على الجميع، فالعقل لا يتحكـم بهـا. تذكرت حكاية أخرى مدهشـة، وبعدها تذكرت مجموعـة كاملة مـن الحكايات الأخرى. سـأقص عليكم بعضًا منها.

حكاية امرأة شابة

إنها امرأة شـابة، وهي تحكي لي عن حزنها بنبرة لا مبالية وصوت منخفض.

أرادت أن تُرزق بطفل. كانت حينها هي وزوجها في كامل السـعادة، وقد اعتقـدا أن إنجاب طفل سـيكون تجسـيدًا كاملا لحبهما.

لكـن القـدر يلاحقها. تحمل ثلاث مرات، ولا تسـتطيع إنجـاب الطفل. يحدث الحمل بطريقـة غير طبيعية تمامًا وتلوح عليهـا أعـراض مرضية حتى يصـر الأطباء علـى الإجهاض مرة أخرى. في المرة الثالثة اضطرت لإجراء عملية.

أنظـر إلـى وجه هـذه المـرأة الشـابة المنهـك بطريقة غير

طبيعية. ربما قد سالت دموعها سابقًا، ولم يبق لها الآن سوى اللامبالاة، والإذعان وعدم الاكتراث. لا يمكنني رؤية اضطرابها الداخلي إلا عبر حركة يديها المتشنجة. يمكنني عبرها رؤية هذا الجحيم والصراع غير المتكافئ الذي سينتهي بهزيمتها.

أشعر بالدهشة لبعض الوقت من قوة حزنها.

بدا لي فجأة أن رد الفعل على هذا الحزن لا يتناسب مع حجمه الحقيقي.

حينها سألت هذه المرأة ما إن كان حملها الأول قد اقترن بأية أحزان.

قالت لي بهدوء بعد أن نظرت إليّ: «لا».

ثم ارتبكت واحمر وجهها وقالت:

- حملي الأول؟ الأول فعلا؟ لكنه لم يكن في هذا الوقت. حدث قبل اقتراني بزوجي الحالي.

ارتبكت بشدة، وقالت إنها بلغت حينها من العمر سبعة عشر عامًا عند حملها الأول. كانت لا تزال في هذا الوقت طالبة. اضطرت إلى إخفاء هذا الحمل عن والديها وعن المدرسة. ظلت تخفي الأمر حتى الشهر الأخير، ثم رحلت عن المدينة إلى منزل صديقة لها، وهناك ولدت طفلا ميتًا. كانت قد نست ذلك تمامًا، لذلك قالت في البداية إن حملها الأول لم يقترن بشيء محزن.

بالطبع اقترن بأحزان ثقيلة.

الآن أصبح كل شيء واضحًا. لقد أخفت حملها، شعرت بالخوف والهلع واليأس منه. كان اعتراضها عليه عظيمًا، وحزنها مهولا. اقترن الحمل بالحزن، وصارا متلازمين.

ظل الفعل الانعكاسي الشرطي قائمًا، ولم تتمزق الروابط العصبية حتى بعدما تغيرت الظروف. لم يلحظ العقل تغير مصير الفتاة، وتعامل العقل مع الحمل مجددًا باعتباره مصدر للحزن. وكانت استجابة جسدها عاصفة.

قبل أن أقول لها شيئًا وجدتها قد فهمت ماذا بها. قالت وهي تضغط يديها:

- أيعقل أن يكون الأمر كذلك؟ أهذا هو السبب فعلا؟

قلت لها:

- نعم... الأمر كذلك. عليكِ أن تمزقي هذه الروابط الشرطية. عليكِ أن تفصلي بين الماضي والحاضر. عليكِ أن تتحكمي في سلوكياتك وفي حالتك.

ساد الارتباك، ثم لاحت البهجة على وجهها.

بعدها بأسبوع عرفت أن حالها أفضل. قالت لي بعد شهر أنها في حالة حسنة وأنها سوف تنجب طفلا.

أنجبت فعلا طفلها بعد ذلك بسلام.

حكاية شاب

دخل شاب فائق الجمال إلى غرفتي.

طويـل القامـة، يتمتع بصحـة جيدة، متـورد الوجه أيضًا. لكن شـيئًا غريبًا حزينًا لاح في عينيه. عيناه داكنتان، لونهما أسـود تقريبًا، والظلال تلوح أسفلهما.

قال لي:

- اسـمعني. أعلم أنك لسـت طبيبًا. لكنني أشـعر أنك تستطيع مساعدتي.

قلـت لـه بكل صراحـة إني بالـكاد اسـتطعت التغلب على البلايـا التي أصابتني، ورفضت من ناحية المبدأ أن أقحم نفسـي في اعتلالات الآخرين.

حينها انخرط في البكاء. أنا لا أبالغ. انهمرت الدموع بغزارة من عينيه، وأخذ يمسحها بطريقة طفولية.

رأيت في حركته شيئًا شديد الصبيانية.

رغبت في أن أواسـيه فطلبت منـه أن يحكي لي عما حدث معه.

بدأ يحكـي لي بالتفصيل عن مرضه. لديـه معدة مضطربة إلى حد أنه يجد نفسـه مضطرًا إلى عزل نفسه عن الناس. خضع للعـلاج منذ مدة طويلة وسـافر إلـى المنتجعـات الصحية دون جـدوى. مـا حدث كان علـى النقيض من ذلـك؛ ازدادت حالته سوءًا. إنه تعيس، يتجنب الرفقة، وقد فقد كل بهجته في الحياة.

شعور بالاشمئزاز والغثيان وتشنجات في المعدة والأمعاء. شكّل كل ما سبق مصيره البائس.

سألته ما إن كان قد خضع للفحص الطبي. أجابني قائلا:

- نعم، وجدوا أني مصاب بحموضة زائدة. كان التشخيص: اضطراب حاد في المعدة.

سألته:

- متى تزداد حدة هذه الأعراض؟ ما الظروف التي تقترن بذلك؟

- تزداد حدتها عندما أكون بصحبة الناس.

- وهل تعاني منها في المنزل أيضًا؟

- نادرًا ما تراودني في المنزل.

- وكيف يكون الأمر عندما تكون في انتظار أحدٌ؟ امرأة مثلا؟

صمت وأومأ برأسه. واصلت طرح الأسئلة عليه معتذرًا له على التدخل في تفاصيل حياته الحميمة.

أجاب أسئلتي بوجه شاحب محمر من الخجل.

ثم بدأت أسأله عن طفولته. لم يذكر عنها الكثير. لكنه فجاة بدأ يحكي لي قصة سمعها من أمه. ذات مرة غفت أمه بينما تضمه إلى صدرها. لم تفق إلا وجسده قد اكتسى تمامًا بالزرقة، ولم يستطيعوا إعادته إلى الحياة إلا بصعوبة.

لم أسأله عن شيء آخر. بدت الروابط العصبية واضحة تمامًا.

استجابة الجسم واضحة. الخوف والرغبة في تفادي الهلاك كمنا في استجابة طفولية، ولم تتمزق الروابط الشرطية

منذ ذلك الوقت.

رغم ذلك كان من الضروري القيام بتحليل متسلسل شامل. كتبت استنتاجاتي عن حالته ووجهته لزيارة أحد الأطباء. كان الطبيب فرويديًا، فلم يكن هناك وقتها طبيب بافلوفي.

تُخمة

التقيت في أيام شبابي بامرأة مدهشة. كانت جذابة بطريقة غير عادية، وبدا لي أنها لم تُخلق لأي شيء سوى الحب.

توجهت أفكارها ونواياها كافة إلى موضوع الحب، ولم تبد اهتمامًا بأي شيء آخر. بدا الأمر كما لو أنها قد حشدت كل قواها في اتجاه واحد فقط.

كان هناك شيء ما عاصف في طباعها. تمر سريعًا بين حيوات الآخرين كالنيزك. انشده جميع الرجال الذين التقوا بها بقوة شغفها. هلك بعضهم من فرط حبهم لها. أحدهم شنق نفسه في شرفة منزلها الخارجية، وآخر أطلق عليها النار، وأصيبت فعلا من جراء ذلك. كاد الثالث أن يخنقها تقريبًا، بينما سرق رابع مبلغًا كبيرًا من المال من أجلها، وحوكم على ذلك ونُفي.

لو تمتعت بقدر أعلى من الذكاء لاستطاعت أن تهز أركان النظام العالمي كله بسهولة.

لم يكن لدى زوجها البائس القوة كي يتركها. نظر إلى علاقاتها المتعددة بذهول. غفر لها كل أخطائها. اعتبرها امرأة

فريدة من نوعها، ولم ير فحشًا في سلوكها، وافترض أن هذا هو العادي بالنسبة لها.

عندما عرف أني ألتقي بها، جاءني وأخرج قطعة ورق ووضعها على الطاولة دون أن ينبس بشفة. كانت قائمة بأسماء عشاقها. كانت هذه طريقته لتحذيري منها ومحاولة إبقائها له.

لا... إنها لم تجلب لي الشقاء. في هذه الأعوام... في أعوام كآبتي، لم يكن هناك شيء قادر على التأثير فيَّ.

افترقت عنها تقريبًا بلامبالاة. وقد جرحها للغاية أني لم أشنق نفسي ولم أبكِ حتى، بل إني على ما يبدو سعيد!

رحلت إلى الأورال، ومن هناك إلى الشرق الأقصى، ولم أرها بعدها لأحد عشر عامًا.

ذات مرة التقيتها في الشارع. من الواضح إذن أنها عادت إلى بلدها. ليس هناك ما هو غريب في أني لم أسمع شيئًا عنها، فهي تعيش في هدوء تام تقريبًا، ولا تظهر في أي مكان. لقد سئمت من كل شيء؛ الناس والمشاعر.

نظرت إليها باهتمام. لا... لم تتغير، ما زالت جذابة كما كانت. لم تنعكس حياتها العاصفة على مظهرها الخارجي. بدا حتى لي أنها قد ازدادت جمالا، ولكن في الوقت ذاته يا لحجم التغيير المذهل الذي حدث لها!

صارت كسولة خاملة فاترة المشاعر. مظهرها كله يشي بالإنهاك واللامبالاة.

عيناها مطفئتان، بينما عمرها لا يتجاوز الثلاثين عام. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

سألتها:

- هل سئمتِ من كل شيء؟ ألا تحبين أحدًا الآن؟

هزت كتفيها وقالت:

- لا أحد. سئمت من كل شيء. لم أعد أشعر بشيء سوى الاشمئزاز.

- أهي التخمة؟

- لا بد أنها كذلك.

هكذا أجابتني وتضببت عيناها بحزن غير عاد.

- لا بد أن شيئًا قد حدث. ما الذي حدث في هذه الأعوام؟

- لا، لم يحدث شيء. الأمور هي هي دائمًا.

- لكن ما حدث ليس قليلا. لقد مررت بمشاهد درامية وفضائح وطلقات رصاص، وثلاث عمليات إجهاض في عام واحد.

ابتسمت وقالت لي:

- بالطبع هذا كله لا يجلب لي الآن سوى الحزن.

فجأة رأيت كل شيء في إجابتها التي قالتها ببساطة ودون تفكير، رأيت سبب تخمتها.

كل هذا الوقت وعلاقات حبها التي لم تتوقف، وأمانيها كافة ارتبطت تمامًا بالتعاسة. لا بد أن تأتي النهاية في وقت ما، وها قد أتت. صار الحب والتعاسة مقترنين تمامًا ببعضهما. ربطت

الروابط الشرطية بينهما بقوة. من الأفضل إذن ألا ترغب في شيء بدلا من المعاناة إثر بلية جديدة.

نظرت مرة أخرى إلى هذه المرأة الشابة. كنت سأحدثها عن أسباب تعاستها لكني صمتّ. لم أفعل ذلك بسبب أنها لن تفهمني. بدا لي أنه من الأفضل أن تظل على هذه الحال.

ودعنا بعضنا. مدت لي يدها الفاترة، ورمقتني بنظرة لا مبالية، ومضت تسير في الشارع بخطوات بطيئة.

شعرت بالأسف عليها. أردت أن أصيح فيها وأوقفها كي أقول لها سبب حالتها، لكني لم أفعل ذلك.

قلت في نفسي: «لتبق هكذا».

٨

لا، الآن أنظر بلطف إلى كل ما يحدث حولي، فلم تعد لدي عادة تحليل التصرفات الغريبة، ولم أعد أشعر بالسرور بالتدخل في حياة الآخرين. أعيش كما يتوجب على الإنسان أن يعيش، بحيث يفكر باعتدال، ولا يصنع من رأسه جهازًا للتفتيش عن سلوكيات الآخرين الغريبة.

لكن في الأعوام الأولى التي اعتدت الاصطدام فيها بهذه الأفعال كنت أراقب الناس باهتمام واضطراب شديدين.

شعرت على نحو خاص بالاضطراب من هذه الاستجابات المرضية للناس التي تحدث بعيدًا عن سيطرة العقل. أحيانًا

تظهر استجابات شنيعة وسخيفة حتى لا يعود من الممكن فهم مغزاها. لكني في كل مرة بعدما أستغرق في التفكير أقتنع أنها استجابات ذات أهداف محددة. بالطبع هي لا شيء سوى حماقات من وجهة نظر التفكير السليم، لكن ما إن نترجمها إلى لغة الكائن الحيواني أو الطفل حتى نجد لها معنى سريعًا.

كنت أجد الخوف أو التصنع في أي أعراض عصابية. يمكن ملاحظة الهروب في أي من سلوكيات العصابي، بل وحتى في موته. يمكن أيضًا ملاحظة الرغبة في الابتعاد عن الأهداف المرضية، والضعف في تمزيق الروابط الشرطية.

سأقص لكم بعضًا من الحكايات المدهشة. إنها قصص حقيقية.

نهاية غير متوقعة

دخلت إحدى الطالبات إلى غرفتي. بدت يافعة تمامًا وجميلة.

اجتازت اختباراتها الأخيرة، وتوجب عليها أن تجمع بعض المواد حول أعمالي الأدبية.

تحدثت معي دون أن ترفع عينيها تقريبًا، لكنها في النهاية تحلت بالجرأة، بل وبدأت تتودد إليَّ.

قلنا كل شيء تقريبًا، وتوجب عليها أن تنصرف لكنها لم تنصرف.

بعدها انصرفت أخيرًا بعد أن أخذت موافقتي على أن تزورني غدًا حتى نكمل حديثنا عن أعمالي الأدبية. جاءتني فعلا في اليوم التالي، وبدت حزينة للغاية. قالت لي إنها متزوجة من طالب، وإن لديهما طفلًا صغيرًا. قالت إن الطفل والدراسة يملآن حياتها كاملا، وإن هذا أمر حسن جدًا. سيكون أمرًا مريعًا إذا شعرت بالإعجاب بشخص ما أو أحبت إنسانًا ما. ستكون كارثة؛لأنها لا تستطيع خداع زوجها. سيتوجب عليها حينها أن تحطم حياتها ودراستها ومستقبلها ومستقبل زوجها.

استمعت إليها بدهشة. قلت لها إن عليها ألا تسمح لهذه المشاعر بالسيطرة عليها.

أجابتني بصوت خفيض جدًا:

- يبدو أن الوقت قد تأخر على ذلك. أخشى أني سقطت فعلا في الحب.

لا، لم تقل إنها قد سقطت في حبي، لكنني قرأت ذلك في عينيها، وفي كل ملامحها وإيماءاتها.

ارتبكت للغاية. ظهر شيء محرج حقًا وسط هذا الشعور. كنت أصغر وأجمل منها، ولكن ما زال هناك شيء آخر غير طبيعي في سلوكها. هذه السرعة تشي بالتهور. خشت أن أفكر بهذه الطريقة. كان بإمكاني رؤية الصراع المعتمل في داخلها. أرادت أن تنصرف لكنها لم تفعل ذلك؛ لأنها أدركت أني لن أتخذ أي خطوة للقائها ثانية.

أرادت أن تـأتي إليَّ ثانية بعد يوميـن، لكنها لم تفعل ذلك. وقد بعث فيَّ هذا السرور جدًا.

جاءتنـي بعد أسـبوعين. بدت شـاحبة وقد تغيـرت تمامًا. جاءتني مستندة إلى عصا.

قالت إنها مرضت بشـدة، وقد سقطت في العام الماضي في إحدى المسـابقات الرياضية وكسـرت إحـدى قدميها، وإن ألم الإصابـة قد عاودها ثانية. لديها تـورم في الركبة، ويمكنها بالكاد أن تسير. جاءتني بصعوبة شديدة كي تُعبِّر لي عن شعورها الذي يتوجب عليها أن تطفئه في قلبها.

فهمت سبب مرضها تمامًا.

قلت لها:

- توقفي عن التفكير فيَّ وستكونين في أفضل حال. إنك مريضة لأنـك لا تودين زيـارتي. توقفت قدماك عـن أداء وظيفتهما، وكأنهما تقولان لكِ: ستحدث مصيبة إذا أحببتِ إنسانًا آخر. لقد دافع المرض عنكِ، واختار أضعف جزء في جسدك.

كانـت ذكية. اسـتمعت إلى كلماتي وهي تكاد تبتسـم، ثم أخذت تضحك... أخذت تضحك حتى سقطت العصا من يدها.

قالت عبر نوبة الضحك هذه:

- يا له من أمر عجيب! لا بد أن هذا ما حدث فعلا.

ودعتني بوذ وخرجت، وقد نست عصاها في شقتي.

فيديا البائس

إنها حكاية قديمة للغاية، لا أتذكرها إلا بصعوبة، لكن الاستنتاجات التي توصلت إليها قد بعثتها إلي الحياة في ذاكرتي.

كيسلوفودسك. محطة مينوتكا[1]. على بعد منزل واحد من هنا يعيش الطالب فيديا. إنه هنا في القوقاز مثلي من أجل التمرن. فيديا يدرس الرياضيات. إنه تلميذ لطيف، خجول بعض الشيء، ويمكنه الغناء ببراعة أثناء العزف على الجيتار. يأتيني تقريبًا كل يوم، وأستمع إلى موسيقاه. بعدما ينتهي من العزف والغناء يبدأ في الحديث عن الفتيات. إنه غير محظوظ في هذا الشأن. تعرف الطلبة جميعًا على فتيات جميلات أما هو فلا. متى سيحدث الأمر في النهاية؟

تم الأمر قرابة نهاية الصيف. سقط فيديا في حب طالبته. كان يُدرس الفيزياء للفرقة الأخيرة بالمدرسة الثانوية.

سقط في حبها، وعلى ما يبدو أنها فتنته تمامًا. اعتدنا أن نلتقي بهما في الكورسال[2] ونراهما جالسين على المقاعد في الحدائق العامة.

ثم حلت مصيبة فجأة؛ مرض فيديا، أصيب بالإكزيما. أصابت ذقنه في البداية، ثم امتدت إلى وجنتيه.

مثّل ذلك لفيديا كارثة محققة. قبل أن يُصاب بالمرض

(١) معنى الكلمة الحرفي: دقيقة.
(٢) مبنى مخصص للأنشطة الثقافية والترفيهية.

كان خجولا، أما الآن فقط ثبطت عزيمته تمامًا. توقف عن اللقاء بطالبته. صار يشعر بالخزي حينما ترى هذه البقع الحمراء المريعة على وجهه.

كانت إكزيما عصبية. بدأ الأطباء في علاجه منها بالمراهم وضوء الكوارتز، لكن المرض ازداد حدة. ساور الأطباء شك أن المريض قد يكون مصابًا بتسمم الدم. توقف فيديا تقريبًا عن الخروج من المنزل. صار يبكي قائلا إنه لم يكن يمكن أن يحدث ذلك لولا سوء الطالع، فقد حدث ما حدث بعد أن صارحته طالبته بحقيقة مشاعرها نوه بيوم واحد فقط.

عدت بصحبة فيديا إلى سان بطرسبرج في نهاية أغسطس. كنا في نفس عربة القطار. في اليوم التالي تحسنت حالة فيديا. بدأت البقع الحمراء تبهت من على وجهه. بنهاية الطريق عاد وجه فيديا إلى طبيعته تقريبًا.

لم يتوقف فيديا عن النظر في المرآة. اقتنع أن المرض يفارقه، وأبهجه ذلك. قال لي بابتسامة حزينة كم هو سيئ الحظ! تعود إليه حالته الصحية الحسنة في غياب حبيبته.

أقول مجددًا إني بالكاد تذكرت هذه القصة، لكني تذكرتها الآن، ربما لأني أدرك بوضوح الآن سبب مرضه؛ لقد كان دفاعًا ووقاية وهروبًا. لقد حال الخوف - الذي كان من المفترض أن يُعالج - دون إكمال خطواته في الطريق. عطَّل خوفه اللا شعورى من عمل إفرازات الجسد. لا شك أن كيمياء الجسد قد

أصابها الارتباك، فتسمم الدماء يمكن أن يحدث لأسباب داخلية لا خارجية.

من الأفضل أن أُصاب بالعمى

لم أكن لأتذكر هذه الحكاية أيضًا لولا اقترانها بالاستنتاجات التي توصلت إليها.

مات أحد أقربائي. كان وحيدًا. وبدا موته مريعًا وفظيعًا. حدث ذلك في عام ١٩١٩.

كان قريبي صحفيًا قديمًا. ونظرًا لنشأته في كنف النظام القديم، عارض النظام الجديد بشراسة.

زاد الفقر والحزن من مرارته، فكتب المقالات معبئًا بالكراهية، وبالطبع لم تُنشر. أرسل هذه المقالات إلى الخارج بصحبة أشخاص عشوائيين.

تنازعت معه كثيرًا محاولا إثبات أنه ليس على حق، وأنه لا يرى روسيا فعلا، ولا يفهم الشعب، وأنه يعتبر أن الشعب يقتصر فقط على طبقة المثقفين قليلة العدد، وأن أفكاره لا تتطابق مع أفكار الشعب، وأن خطأه يكمن في هذه النقطة تحديدًا، وهي خطأ كثيرين غيره أيضًا.

تنازعنا معه، وتوقفت عن زيارته.

لكنني عاودت زيارته عندما عرفت بالوضع الذي يمر به.

أُصيب بشلل عصبي. توقف نصفه الأيمن عن الحركة،

لكنه ظل كما كان، لا يمكن كبحه.

أخذ يُملي مقالاته على كاتبة اختزال[1] من معارفه، ويرسلها إلى الخارج كما فعل سابقًا، وهو يدرك تمامًا أن الأمر لن يمر على خير إن انكشف. رغم ذلك واصل عمله. شغلت أفكاره أهمية أكبر من مخاوفه. قبل شهر من موته أصيب بالعمى.

عرجت على منزله. وجدته مستلقيًا بلا حركة، ضريرًا عاجزًا. تحدثت معه. أجابني إجابات قصيرة بإذعان مكتئبًا من بليته التي حاقت به. أكثر ما أسف عليه هو عدم قدرته على العمل، فلم يعد حتى بإمكانه أن يقرأ ما هو مكتوب.

فجأة ارتسمت ابتسامة على وجهه وقال:

- لهذا أنا في أمان الآن. من يمكن أن يفكر فيَّ وأنا في مثل هذه الحالة؟

مات قريبي ونسيت أمره، ولم أتذكره إلا الآن. تذكرت ابتسامته التي رأيت فيها نوعًا من الراحة والسرور. يبدو لي الآن أنه قد أصيب بالعمى حتى لا يمكنه أن يكتب، وهكذا حمي نفسه من المخاطر. أنا أدرك أن هناك أمراضًا أخرى حقيقية يمكنها طبقًا لكافة القواعد الطبية أن تؤدي بالمريض إلى العمى، لكن بدا لي في هذه الحالة تحديدًا أن تداعي وهلاك هذا الإنسان

---

(١) نوع من الكتابة القديمة يملي فيها المؤلف كلماته، ويكتبها الكاتب بلغة إشارات ورموز مختزلة بهدف السرعة، ثم يعيد كتابتها بعد ذلك باللغة العادية.

لم يحدث طبقًا لقواعد العلم التقليدية.

٩

أتذكر أيضًا مجموعة كاملة من الحكايات.

أتذكر عددًا كبيرًا من الحكايات، وجميعها أفضت بي إلى الاقتناع بصحة استنتاجاتي.

جميعها حكايات عن تلك الروابط الشرطية التي لم تتمزق، حكايات عن أمراض مؤلمة وكوارث.

لكني أذكر أيضًا حكايات سعيدة عن روابط شرطية قد تمزقت، روابط تمزقت بمرور الزمن، ومن ثم لم تعد خطيرة.

أتذكر أحد لاعبي السيرك. لم يستطع أن يؤدي لعبته. سقط ثلاث مرات في الشبكة، وحدث الأمر على مرأى من الجمهور. كانت فضيحة تقريبًا. ضحك الجمهور، وهز اللاعبون رءوسهم قائلين إنه لم يعد من المحتمل أن يستطيع أداء لعبته ثانية. بعد ثلاث محاولات فاشلة انصرف الجمهور، وأزال الفنان الشبكة الممدودة أسفل قبة السيرك وأدى حركته مرتين بنجاح.

لقد استطاع تمزيق ما كان قد بدأ لتوه في الترابط. لقد مزَّق رابطة شرطية تكونت بين: القفزة – الفشل. تمكن من ربط قفزته بالنجاح مرة ثانية.

أذكر أيضًا روابط أخرى عرضية مذهلة مزقها أصحابها. اقترف الراديو خطأ أثناء دفن أحد الطيارين المشهورين، بدلا

من ذكر اسـم عائلـة الطيار الفقيد، ذكروا اسـم عائلـة طيار آخر شهير كان حاضرًا مراسم الدفن.

علا الشـحوب وجه هذا الطيار، وارتبك عندما سـمع اسم عائلته الذي ذُكِر بالخطأ. توجَّه الطيار بعد انتهاء المراسم مباشرة إلى المطار، واسـتقل طائرته وطار بها، وسجَّل رقمًا قياسيًا على ارتفاع عالٍ. لقد أثبت لنفسه أن هذا الخطأ محض هراء قد حدث مصادفة، وأن هذه المصادفة لن تحدد مصيره.

بهذا تمزقت الروابط الشـرطية في اللحظـة ذاتها التي بدأت فيهـا في التكـوُّن، وقـد أكـدت تمامًا علـى صحة القوانيـن التي اكتشفها بافلوف بدقة رياضية.

إن قوانين الانعكاس الشـرطي سـليمة في الحالات العادية والمرضية على السواء.

فيها يكمن مفتاح كثير من صنوف المعاناة.

١٠

حينهـا أخذت أفكر في الراحلين عنا، في الذين ظلوا يعانوا دون أن يعرفوا سببًا لمعاناتهم.

تذكـرت باضطـراب شـديد ملاحظـاتي أثنـاء فـترة كآبتي المريعة. وقتها دونت كل ما يتعلق بالكآبة والأمراض.

في مخطوطـاتي السـوداء قائمـة بأنـاس عظمـاء مرموقين، وصلـوا إلى المجـد بإبداعاتهـم. أيمكـن أن يكونـوا جميعًا قد

خضعوا لهذه القوانين؟ أيمكن أن يكون مثل هذا الهراء قد سيطر عليهم تمامًا؟

حينها أردت أن أرى فورًا سبب معاناتهم وكآبتهم وهلاكهم. أخذت أتصفح المواد التي جمعتها والرعشة لا تفارقني. لا، كل ما هو أساسي في مكانه فعلا. كل أسباب هلاكهم هي تحديدًا تلك الأسباب التي توصل إليها المؤرخون وعلماء الاجتماع. لا شيء رئيس هنا قد اهتز. تحددت الأفعال والسلوكيات إثر ضغوط أخرى خارجية. لكنني رأيت وسط معاناتهم شيئًا إضافيًا جديدًا لم يأخذه أحد بعين الاعتبار. في بعض الأحيان كان قويًا جدًا. في بعض الأحيان ضغط بقوة مميتة.

أخذت أتصفح المواد التي جمعتها باضطراب.

هنا تعود ظلال الماضي للحياة ثانية، ظلال مهيبة ننحني أمامها.

١٠

بؤس العقل

من يقف عاليًا يعرف
العواصف الرعدية، وحينما
يسقط يتحول إلى أشلاء[١]

١

ما الذي يجبرني على كتابة هذا الكتاب؟ لماذا أنشغل بالثرثرة عن أمراضي وأمراض الآخرين في زمن الحرب الرهيبة المريعة التي نمر بها الآن؟

ما جدوى الحديث عن جروح لم نصب بها في ساحات المعارك؟

ألم يكن من الأفضل أن يصدر هذا الكتاب بعد الحرب؟ هل هو كتاب لمن سيكونون في حاجة إليه بعد الحرب لإنقاذ أنفسهم؟

لا، إني أكتب كتابي هذا من أجل أيامنا الحالية، وأرى فيه قنبلة مقدَّرًا لها أن تنفجر في معسكر العدو لكي تدمر هذه الأفكار الخسيسة المنتشرة هنا وهناك.

---

(١) من مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير. الفصل الأول - المشهد الثالث.

لكن على أي حال ليست للهتلرية[1] فلسفة خاصة بها. لقد جمعت أفكارها من هنا وهناك. عن أي أفكار خسيسة أتحدث؟ أتحدث تحديدًا عن هذه الأفكار التي يشوهونها ويبسطونها ويهبطون بها إلى مستوى البشر الذين يشبهون الوحوش.

لم تحدث مشكلة كبيرة عندما ألقوا الخطب في الصالونات عن مصائب العقل. لاح نصف المشكلة عندما تحدث السادة شفاهية إبان المعركة عن روعة الحياة في الغابات والكهوف، وبحثوا هناك بعيدًا عن صخب المدينة عن خلاصهم من الآلات، من الحضارة، من نمو الوعي المستقبلي.

لكن المصيبة تكتمل عندما يكررون هذه الأحاديث على مسمع من مُقاتِل يسعى للهيمنة على العالم كله. عندما يكررها الجندي سيشوّهها ويجرها إلى أقصى تطرف ممكن. سيصيح بأعلى صوته ويسمع صداه دون أن يعرف من أين يأتي: «التعليم سيشل الناس» - «المثقفون هم نفاية المجتمع» - «أريد أن يصير الشباب لدينا وحوشًا همجية» - «من شأن الوعي أن يجلب علينا مصائب لا تعد ولا تحصى».

يريدون منا أن ننظر إلى أفول العقل البشري وهو لا يزال في فجره! يريدون منا أن نرغب في ذلك! يا لها من رغبة قاتمة! ما طبيعة تلك الروح الخسيسة التي يمكن أن تظهر فيها مثل هذه الرغبة؟

---

(١) إشارة إلى هتلر والنازية.

سوف يسود الضباب العالم لآلاف الأعوام إذا دخل هذا التعريف إلى حقول الربيع منتصرًا على جواده.، تلك الحقول التي لم يحرثها العلم الجاف سوى قليلا. لم يحدث ذلك، ولا يمكن أن يحدث. على الرغم من ذلك يتوجب علينا أن نكتب دفاعًا عن العقل وحقوقه، هذا واحد من الأسباب التي جعلتني أكتب هذا الكتاب في أيام الحرب الرهيبة.

٢

ليس ذلك هو السبب الوحيد. أكتب هذا الكتاب والأمل يساورني أن يكون مفيدًا للناس.

ربما تكشف رغبتي هذه عن بعض السذاجة، وتلوح أنها غير مجدية وخاطئة. لم أنس كلمات صديقي الفيسيولوجي: "لا تعد الناس بشيء".

لكني هنا أقدم وعودًا بدرجة متوسطة. ربما يبعث كتابي الراحة ويُسلّي البعض. ربما يساعد البعض على تحقيق التوازن النفسي. ربما يُغضب فريقًا ثالثًا ويجبرهم على التفكير، وربما يجبر البعض على مغادرة جبل الأوليمب[1] لسماع مايقوله

(١) اعتقد الإغريق أن آلهتهم تعيش فوق جبل أوليمبوس في منطقة تثاليا والذي كانت تحرسه ربات الفصول. فوق هذا الجبل يقع قصر كبير الآلهة زيوس والذي كان تعقد فيه اجتماعات الآلهة بناء على دعوة من زيوس. حيث كان المقر لكبير الآلهة زيوس بالإضافة إلى عدد آخر من الآلهة.

الجاهل الذي حدث معه ما لا يحدث إلا مع الكلاب.

سيصيحون قائلين:

- يا إلهي! لقد تحدث الكلب! أيها السادة، يريدن أن نصدق أن الكلب قد عانى! أيها السادة.. دعونا نفحص ما إذا كان الأمر كذلك فعلا أم لا.

ربما في الوقت الذي نشيح فيه بظهورنا إلى الكلاب، سيأخذون الأطفال ويبرونهم ليصيروا مخلوقات ناضجة تجلب إلى العلم متاعب واضطرابات لا يمكن تصورها.

إنها مشاهد ساحرة. يبهجني الاهتمام بالناس الساعين إلى السماوات البعيدة.

هذه المشاهد المستقبلية تحديدًا هي ما يجبرني على كتابة هذا الكتاب وعلى المضي قدمًا في هذا الطريق المفروش بالورد.

نعم... كان من الممكن أن يُفرش الطريق بالورود لو كنت أنهيت كتابي بهذا الشكل الشاعري الذي بدأته به، وكان من الممكن أن يكون كتابًا عظيمًا مكونًا من قصص صغيرة أنيقة مستوحاة من حياتي! كان من الممكن أن يمسك القارئ بكتابي وترتسم على وجهه ابتسامة سعيدة.

نعم... وكان الأمر ليصبح أسهل وأبسط، فرغم كل شيء كتبت هذه القصص القصيرة بسهولة فائقة وضمنتها في كتابي، بينما أسند مرفق ذراعي الأيسر إلى الطاولة في راحة ويسر. لكن بدلا منها يمكنكم أن تروا الآن نوعًا من الأبحاث

تضم مصطلحات جافة وغريبة من قبيل: الفعل الانعكاسي، الأعراض، الروابط العصبية.... إلخ.

لماذا كل ذلك؟ لماذا نستبدل الباز بالوقواق؟ لماذا يصير الكاتب بمثابة مساعد للطبيب؟ يا إلهي! دعه يعود ليكتب كما كان يكتب في البداية!

كان من دواعي سروري أن ألبي هذه المطالب المشروعة، لكن طبيعة الموضوع لا تسمح لي بذلك. إنه لا يتناسب مع الشكل الأدبي المعتاد مع أني قد بذلت ما في وسعي لأكتب بهذه الطريقة الفنية المعتادة احترامًا للقارئ.

لكن من المستحيل أن أتجاهل الموضوع، فهو يتمتع بأهمية استثنائية، على الأقل بالنسبة لي أنا شخصيًا. لذا أخذت على عاتقي كتابة هذا الكتاب، وتحملت السير في هذا الطريق المؤلم.

يا له من طريق مؤلم! نعم... أتوقع أن أنال أحكام صعبة ونظرات كئيبة وانتقادات لاذعة.

كما لو أني أسمع أصوات حادة تتحدث عن عدم ضرورة الاهتمام بجسد المرء، وضرر السيطرة المفرطة عليه. سيقولون: لماذا يجب علينا أن نحظى بمثل هذا العقل الحذر بهذه الطريقة الجديدة المريبة؟

أتوقع كل ذلك، لكنني آمل أن تبدد نهاية كتابي كل هذه الشكوك.

٣

حسنًا... أين توقفنا؟ ليس عند كلمات بيرون التالية:

كل صنوف السعادة التي لأعيادنا
عليك أن ترتشفها من كأس السعادة
وتأكد أن ثمة شيء في عالمنا
أكثر فتنة؛ ألا وهو ألا تكون[1].

لا... لم نتوقف عند هذه الكلمات الحزينة.

توقفنا عند تلك القائمة السوداء التي تضم المشهورين والمرموقين من الناس. شعرت بصدمة شديدة من تعاسة وكآبة هؤلاء الناس، وأردت أن أعرف: ما سبب معاناتهم من هذه البلايا؟ هل أمرهم يشبه أمري؟

لقد رأينا مدى تعقيد التركيبة التي اكتشفنا مسؤوليتها عن تعاستي، والتي تتألف من أجزاء عديدة. أردت أن أعرف الآن بعد أن اكتسبت هذه الخبرة مِمَ تتألف معاناة هؤلاء الناس المذكورين في القائمة؟

بشكل أدق أردت أن أعرف عنصرًا واحدًا فقط من هذه التركيبة البائسة التي ألفت كتابي هذا من أجلها.

لا... ليس بالأمر السهل والبسيط. ينبغي القيام بذلك بحذر، مع الأخذ بعين الاعتبار كل أحاط بهؤلاء الناس. إنهم

---

(١) من قصيدة Euthanasia لبايرون.

بشـر من عصور مختلفة، ولهم شـخصيات واتجاهات مختلفة. هـذا يعنـي أن الأمـر لا يتوقـف على قـوة واحدة أثـرت عليهم مـن الخارج، وما من سـبب واحد هو المسـؤول عـن صراعهم الروحـي. كثيرًا ما يظهـر الصراع الروحي عند النـاس بعيدًا عن العوامل البيولوجيـة التي تعمل في داخلهم. من الواضح مثلا أن الحـال كان كذلـك مع بوشـكين. كان وضع روسـيا المعقد هو أساس الصراع المعتمل في داخله، وهو ما أدى به إلى الهلاك.

مصيـر روسـيا المحزن، والأزمـة التي تعاني منهـا الحركة الثورية في العالم شـكلا أسـاس التشـاؤم والنزعة الشـكية لدي جيرتسـين، وصنعـا بداخله صراعًا عقليًا بدرجـة ما. لكن مصير روسيا المحزن لم يدفع تشيرنيشيفسكي إلى الاكتئاب، فقد آمن بنهاية الصراع السعيدة، وبالثورة الفلاحية.

هكذا هو الأمر معقد جدًا فيما يختص بالطريقة التي تحسم بها القوى المؤثرة في الإنسـان أمرها. لكنني سأحاول تجنب مثل هـذه الأمثلـة المعقدة، وسـأتناول فقط أولئك مـن تلوح عليهم بوضوح تأثيرات القوى الفيسيولوجية.

سوف أتناول حالات سريرية[1].

سـوف أقترب بحـذر شـديد من بحثـي الموجـز. لا، من

---

(١) الفحص السريري والعلامات السريرية تشير إلى ما يمكن للطبيب أن يلاحظه على المريض أو أن يفحصه في غرفة الفحص بدون استخدام آلات تشـخيصية أو معدات طبية أو مخبريـة، ولكن عن طريق النظر إلى المريض وفحصه في السرير.

المستحيل أن أطلق عليه بحثًا. إنها مواد بحثية. إنها مسودات ومقتطفات ومقاطع منفصلة لا يمكنها سوى مساعدتنا على تكوين صورة حقيقية.

٤

ذكرت في بداية كتابي اسم إدجار آلان بو مرتين، وهو الكاتب الشهير، الذي كان له تأثير عظيم على مستقبل الأدب العالمي بأكمله.

كان مصيره حزينًا بائسًا مريعًا.

كتب بو الآتي:

"لديَّ قدر من الكآبة يمكنه أن يقتلني إن استمر هكذا...."

- «لا شيء يمكنه أن يبعث فيَّ السرور أو أقل قدر من المتعة.... إن مشاعري في هذه اللحظة في حالة يُرثى لها حقًا....» - «فليقنعني أحد بضرورة العيش....».

كتب بو هذه الكلمات ولم يكن قد أكمل الثلاثين من العمر بعد. مات في سن الأربعين، وكانت حياته كلها مليئة بالبلايا، ويكتنفها حزن عجيب دون سبب مفهوم له.

لا أملك وفرة من المواد حتى أبحث بإحكام في حياة هذا الإنسان، لكن أقل المواد المتوفرة تحدثنا عن نفسية حساسة إلى أبعد الحدود، وعن وعي مريض، وعن حالات عُصابية من المستحيل ألا يلاحظها المرء. سأشير إلى عدة حقائق استقيتها

من مواد متعلقة بسيرته. سأشير إلى تلك الحقائق التي تبدو لي شديدة الخصوصية، والتي لها مغزى أو قد أثَّرت على العقلية المريضة لإدجار آلان بو.

عاش والداه في فقر. قضيا نحبهما عندما كان بلغ الطفل من العمر عامين فقط، وتبناه أب آخر وتولى تربيته.

عندما جاء هذا الرجل ليأخذ الطفل وجده في حالة ذهول، على حد تعبير كاتب السيرة. كانت المربية تُهدئ من الطفل بوضع خبز مغموس في النبيذ في فمه.

في الخامسة من عمره كاد أن يلقى حتفه حينما سقط من فوق شجرة. سقط الطفل في ماء إحدى البرك. أخرجوا الطفل من الماء ميتًا تقريبًا دون نبض، وأعادوه بصعوبة بالغة إلى الحياة.

عندما بلغ عامه السادس أخذوه إلى إنجلترا. يشير كتاب سيرته كافة إلى أن الرحلة البحرية الطويلة تركت فيه انطباعًا قويًا بشكل غير عادي.

يكتب أحد كتاب سيرته:

«وقد حددت الرحلتان البحريتان اللتان قام بهما في المياه الكثير من صفاته سلفًا».

كتب هاريسون أحد كتاب سيرته:

«أثَّرت رحلتا المحيط عليه تأثيرا بالغًا».

هذا الكاتب الآخر هو من أشار إلى أن بو ظل وقتًا طويلا لا يستطيع تعلم السباحة، على الرغم من سعيه الشديد لتعلمها.

استطاع تعلم مبادئها بعناد بالغ، لكنه لم يتم ذلك قبل أن يصبح بالغًا. رغم ذلك استطاع تحقيق رقمًا قياسيًا في السباحة حيث استطاع مرة أن يسبح لعدة أميال.

لكن السباحة كانت تنتهي بكارثة في بعض الأحيان. يكتب كاتب السيرة:

«أخرجوه مرتين من المياه ووجهه مغطى تمامًا بالخرير».

كثيرًا ما انتهت السباحة بالتقيؤ.

أمامنا الآن مشاهد شديدة الوضوح: إنه إنسان قد تجاوز بلا شك عواقب داخلية كبيرة قد ظهرت خارج نطاق وعيه. يمكننا أن نقول إن الماء قد أثَّر على إدجار آلان بو تأثيرًا كئيبًا. اقترنت آليات انعكاسية دفاعية بأية مواجهة مع الماء. وكان خوف لا يعيه صاحبه يغزوه عند أي لقاء بأي مؤثر شرطي.

أنا لا أحاول إعادة رسم صورة عامة لحالة بو العصابية، لكن يمكنني أن أشير إلى أن ما أثار فيه الهلع، والروابط الشرطية التي تؤدي إليها واضحة للغاية. من الممكن أن يساورنا الشك أن علاقته بالمرأة كانت بائسة جدًا. كتب بو مثلا لإيل أوليتمان، المرأة التي يحبها قائلا:

«أنا أتفادى وجودك، وحتى المدينة التي تعيشين فيها».

من المثير أن أشير إلى أن بو تجنب هذه المرأة؛ لأنه يعتقد أنها متزوجة، رغم أنه ليس هناك أساس لذلك، ثم أدرك لاحقًا خطأ ظنه.

كان دافعه للتهرب من هذه المرأة مذهلا فعلا. تطلب الأمر منه أن يصطنع أسبابًا أخلاقية كي يُبرِّر لنفسه هذا الهروب غير المفهوم.

في خطاب آخر يكتب بو لها:

«لم أجرؤ على التحدث عنك، ناهيك عن رؤيتك. على مدار أعوام كاملة لم تنطق شفتي باسمك مرة واحدة، ولا حتى بأقل همسة، وعندما ألمسك أشعر بالرعشة تكتنفني، وبخليط غامض من الخوف والسعادة وجنون غامض لا يشبهه شعور آخر أكثر من الشعور بالذنب».

يرسم إدجار آلان بو هنا صورة واضحة تمامًا عن بليته، دون أن يدرك أنه هنا يقدم تحليلا دقيقًا عن حالته النفسية. لقد وجد في حالته بعض العناصر مثل: الخوف والسعادة والذنب.

لا شك أن المدرسة الفرويدية سترى في ذلك ما أطلق عليه فرويد: «عقدة أوديب». بتعبير آخر سترى في ذلك ميلا مكبوتًا سريًا صوب أمه. ستعتقد أن ذلك يشير إلى الكابح الأخلاقي والخوف من العقاب الذي يشعر به الإنسان وسط ظروف الحياة المتحضرة.

يشير كتّاب سيرة إدجار آلان بو إلى أنه أحب صورة والدته، وطوال حياته لم يفارق أبدًا الميدالية التي يرتديها وتحوي صورتها.

بالطبع كانت مدرسة فرويد سترى في هذه الحقيقة دليلا

دامغًا على صحة استنتاجاتها.

مع ذلك هي استنتاجات غير مبررة. نحن هنا نرى مجددًا أمرًا آخر غير عقدة أوديب، وسأوضح السبب.

لقد ماتت والدة إدجار آلان بو عندما بلغ من العمر عامين فقط.

من المشكوك فيه أن يعاني طفل رضيع من اضطراب أخلاقي أو خوف من العقاب على مشاعره الطفولية صوب أمه.

ولكن الأكثر مدعاة للشك أن يعاني من هذه المشاعر والاضطرابات بعد عامين. لم يستطع أن يختبر هذه المشاعر؛ لأنه لم يستطع أن يراها من الأساس، فقد ماتت.

إذن فالطفل لم يكن بإمكانه أن يكبت أو يقمع ميله صوب أمه بأي صورة، وهذا يعني أنه إذا حدث كبت ما، فهو لأسباب أخرى لا يمكن أن تفسرها نظرية فرويد عن عقدة أوديب.

في هذه الحالة ماذا يمكن أن تكون الأسباب إذن؟ ما من أسباب أخرى غير تلك التي تحدثنا عنها في كتابنا هذا.

ليست الدوافع الأخلاقية هي السبب، ولا الخوف من العقاب هو سبب ذلك الميل الطفولي، بل هو خوف من نوع آخر؛ إنه الخوف من أشياء معينة أخطأ الطفل في فهم معناها الشرطي. هذا هو الأمر.

لم يكن من الممكن لهذا الفعل الانعكاسي الدفاعي أن يظهر إلا على أساس دوافع خارجية. أما بقية الدوافع فسيمليها

التطور الذي سيحدث في المستقبل. لا شك أنها كانت تستطيع أن تؤثر على سلوك صاحبها، لكن من المشكوك فيه أن هذه الدوافع كانت من الممكن أن تكون ذات طبيعة مرضية.

هكذا يمكننا أن نجد بين أفكار بو المريضة عناصر طبيعية تمامًا: الماء - الأم - المرأة. يمكننا أن نفترض وجود أهداف أخرى أيضًا تثير هلعه.

إلا أننا وجدنا بالفعل أهداف على درجة عالية من الوضوح تحدثنا عن العلاقات ذات الطبيعة المرضية التي تربطه بها.

عندما لم يستطع بو أن يدرك ماذا ألم به، وما أسباب تعاسته، انخرط في الشرب. أراد بذلك أن يُنحِّي عنه ذلك الذهول وتلك الكآبة اللذين يراوداه عندما يصطدم بتلك الأهداف التي تثير هلعه.

مات إدجار آلان بو فجأة في ظروف غريبة. سافر من بالتيمور إلى فيلادلفيا. وجده محصِّل التذاكر على الأرض في حالة ذعر غريبة. أرسلوه إلى المستشفى، وسرعان ما مات هناك.

كتب عنه من شهدوا موته قائلين إنه حتى بعدما وصل المستشفى ظل يتشنج.

ظهرت آثار مرضية واضحة طوال حياته ومرضه وكآبته وهلاكه في النهاية، وعلى ما يبدو لي فهي آثار روابط شرطية غير صحيحة، تكونت بشكل خاطئ عند لقائه الأول بالعالم من حوله.

٥

أما عن مرض جوجول فيلزمني أن أبحث بمزيد من التفصيل، مع الوضع في الاعتبار أن حالة جوجول بسماتها المتناقضة للغاية شديدة التعقيد.

من الواضح أنه لا يمكن القيام بتحليل مُفصَّل دون بعض الوثائق، والتي لم نجدها في كتابات معاصري جوجول. لا شك أن مرض جوجول لم يكن فقط لأسباب جسمانية.

على سبيل المثال اعتبر جيرتسين أن نظام القيصر نيقولاي قد أودى بجوجول إلى حافة الجنون. ليس هناك أي شيء صحيح في ذلك. لقد صوَّر لنا جوجول روسيا في عهد نيقولاي بقوة كبيرة. انتقى كلمات قوية لا ترحم يُصوِّر بها حياة ملاك الأراضي ونظام المجتمع الأخلاقي البذيء والمزيف في عهد نيقولاي.

كان جوجول يعتبر ثوريًا وسط هذه الأوساط الأدبية، وديموقراطيًا وممثلا حقيقيًا للشعب.

لكن هذه الصور الكئيبة التي رسمها جوجول بثت فيه الهلع، وكذلك فعل الحلم الثوري الذي لم يستطع أن يحلم به. شعر بتنافر عظيم بين الفنان والإنسان اللذين في داخله؛ بين الحياة الحقيقية ورغبته في رؤية روسيا أخرى.

لم يستطع، ولا أراد أن يمضي في هذا الطريق الذي سلك

فيه بيلينسكي وتشيرنيشيفسكي والشباب الثوري الديموقراطي. اتخذ جوجول بضعة خطوات كي يتصالح مع هذا الواقع المحزن لكنها أودت به إلى معسكر أعدائه.

هذه كانت مأساة جوجول.. إنها المأساة التي زادت من وطأة مرضه، وأسرعت بهلاكه. لكن بجانب هذه المأساة كانت هناك مأساة أخرى بداخله، إنه صراع فسيولوجي انعكس بعنف على مرضه وحالته العُصابية.

اتضحت سمات هذا العصاب تمامًا على امتداد حياة جوجول. لاحظ من حوله هذه السمات المرضية منذ طفولته المبكرة.

في عام ١٨١٥، عندما بلغ جوجول من العمر خمسة أو ستة أعوام كتب النبيل تروشينسكي إلى والد جوجول ما يلي:

«ليكن في علمك أني تابعت مع الطبيب ناتالينسكي الأمر المختص بضعف صحة ماريا إيفانوفنا ونوبات تضخم الغدة الدرقية التي تصيب ابنك نيكوشي[1]».

أخذت هذه النوبات غير المفهومة تتكرر في شبابه وأعوام نضجه.

أحيانًا أصابته هذه النوبات بقوة كبيرة، وحينها يتألم جوجول ولا يستطيع الاستلقاء أو الجلوس. وصلت كآبته ذات مرة إلى حد أنه صاح قائلا: «أن أشنق نفسي أو أن أغرق بدا دواء وراحة».

---

(١) تدليل نيقولاي.

لكــن الأطباء لم يجدوا مرضًا جسـديًا حقيقيًا في جوجول. عالجـوه من تضخـم الغدة ومن وساوسـه المرضية والبواسـير ومتاعب المعدة.

لـم يمض العـلاج على ما يرام، وسـاءت حالـة جوجول الجسـدية بشـكل متسـارع. مع ذلك مرت لحظات تلاشى فيها تمامًـا مرض جوجـول الذي أصيب به منذ أعـوام طويلة. حينها كان يشـعر بنفسـه مجددًا في حالـة صحية رائعة، وأنـه في ريعان شـبابه، وقـد أشـار جوجول أكثـر من مـرة إلى هـذه الملاحظة الغريبة فيما يتعلق بمرضه.

كتب في عام ١٨٤٠ لبوجودين:

«إنه الطريق... لا بد أنه قد صنع معجزة لي. لم أشـعر أبدًا بهذا الابتهاج والمرح من قبل».

في خطاب بتاريخ ٢ يناير ١٨٤٦ كتب إلى أ. ب تولستوي:

«أكـون في حالة مـن الضعف والوهن والذبول، ثم أسـمع صوتًـا في داخلي يقول لي إن قوة عليا سـوف تنتزعني فجأة من براثن هذا المرض....»

إذن فجوجـول نفسـه قـد شـعر أن مرضـه لم يكـن مرضًا عضويًا لا فكاك منه. إنه شـيء يمكن أن يفارقه ويتلاشى، ويعود ثانيـة لـه. يمكننا إذن أن نفترض أن مـرض جوجول هو المرض ذاته الذي نتحدث عنه في كتابنا هذا.

فلنفـترض أن استنتاجنا صحيـح. لنفـترض أن جوجول

حدثت له صدمة ما في عمر الطفولة.

كيف يمكننا أن نبحث عن هذه الصدمة؟ كيف يمكننا أن نُحلِّل هذا المرض؟ يبدو لي أنه يمكننا أن نقوم بذلك بملاحظة السلوكيات الغريبة والمميزة التي ظهرت أثناء حياته. ما السمات المميزة التي يمكننا أن نلاحظها في جوجول؟ إنها كثيرة... إلا أننا يمكننا أن نعتبر أن أغربها هي علاقته بالمرأة.

من المعروف أن جوجول لم يتزوج، ولم يسع إلى ذلك. الأكثر من ذلك فإننا لا نعرف أحدًا ذا عاطفة متوقدة أشد من جوجول.

في عام ١٨٢٩ كتب جوجول لأمه عن مشاعره صوب امرأة مجهولة قائلا:

«إنها إلهة حقيقية... فائض من المشاعر الإنسانية».

الكلمات التي وصف بها حبيبته ليست عادية، وهي مهمة جدًا لبحثنا:

«حزن رهيب يعذبني ويعتمل في صدري. آه... يا لها من قسوة! إذا أعدوا الخطاة للجحيم فلن تتجاوز معاناتهم ما أعانيه الآن. لا... هذا لم يكن حبًا. في هذه النوبات المسعورة والعذابات غير المحتملة التي تراودني، شعرت بالعطش، وكانت نظرة واحدة تسكرني... نظرة واحدة فقط، وتصبح رغبتي الوحيدة أن أنظر إليها نظرة واحدة أخرى. أنظر من حولي برعب وألاحظ حالتي المريعة، وأشعر أني في حاجة إلى الهرب

من نفسي إن أردت أن أنقذ حياتي....»

حتى إذا لم يكن هذا حبًا حقيقيًا ومجرد أوهام وتلفيقات، تظل الطبيعة التحليلية لهذا الوهم حاضرة.

خوف... رعب... عذاب... موت... هذا ما سار جنبًا إلى جنب مع المرأة. هذا ما اقترن بالحب لدى جوجول.

بدا الهروب وحده هو ما يمكنه أن ينقذ الحياة من الهلاك. يمكننا أن نرى هذا الهروب على امتداد حياة جوجول بأكملها. كان يتهرب من النساء، ومن المحتمل أنه لم يعرف امرأة، مع أنه أدرك تمامًا أن هذا الكبت لا يمكنه إلا أن يؤثر على صحته.

كتب جوجول عن أكساكوف:

«إذا وصل إنسان إلى الثلاثين من العمر دون أن يتزوج، فلا شك أنه سيمرض».

لا شك أن جوجول قصد نفسه بهذه الكلمات تحديدًا. بالرغم من ذلك لم يُغيِّر نمط حياته، ولم يستطع أن يغيرها، فالحواجز التي حالت بينه وبين ذلك كانت عظيمة، وفاقت إمكاناته.

تُرى ماذا كانت طبيعة هذه العواقب؟

من الواضح أن خوفًا كمن في لاوعي جوجول، يُعبِّر عن نفسه في ردود أفعال انعكاسية دفاعية.... إنه ذلك الخوف الذي اعترف به جوجول نفسه ببلاغة في خطابه عن حبيبته.

كيف ظهر ذلك الخوف؟ ومتى؟ وإلى أي شيء ارتكز؟

لـم يكن بإمكان هذا الخـوف أن يظهر إلا في حالة طفولية، فمرحلـة الطفولـة وحدهـا بإمكانهـا أن تنتج هـذا الخوف؛ لأن المنطق يتعطل في هذه المرحلة المبكرة.

لكن هذا الخوف ارتبط بالنساء، فمن تحديدًا شكَّل مصدر هذا الخوف بالأساس؟

كان بالإمـكان أن يظهر هذا الخوف صوب الأم، أو بمعنى أدق كان بإمكانـه أن يظهـر صـوب الأهـداف التي تبعـث الهلع في الطفـل، وفي الوقـت ذاتـه ترتبط شـرطيًا بالأم. طبقًـا لقوانين الانعكاس الشـرطي شـعر الطفل بالخوف من الأم، وبالأهداف التـي تثير فيـه الهلـع والمرتبطة شـرطيًا بالأم، مع وجـود فارق واحد؛ ألا وهـو أن ذلك زاد من تعقيـدات التناقضات، وجعلها مشوبة بالسرور والطموح.

بعـد ذلك صار بإمـكان أي امرأة أن تسـتدعي في جوجول هذا الخوف المتناقض؛ لأنه يبدو أن الأم والمرأة قد تماثلتا بأدلة مادية حقيقية في عقل الطفل في المرحلة المبكرة كما هو الأمر في الطابق السـفلي من نفسيتنا، من خلال إشـارات مادية خارجية: الصـدر – اليد – الجسـد، مـع شـعور بالبهجة. لكـن إذا كانت الروابط الشرطية قد وحَّدت بين نموذج المرأة والبلاء والرعب، بـل وحتى المـوت، فلا بد أن تعبر هذه المشـاعر عن نفسـها في علاقة جوجول بأمه.

أهذا ما حدث معه فعلا؟

نعـم... هذا ما حدث بالضبط. بـدت علاقة جوجول بأمه متناقضة وغريبة إلى أبعد حد ممكن. شـاب حبه البنوي المتسم بالإجـلال لأمه نفـور من رؤيتهـا. اعتاد أن يخلـق عقبات كثيرة وبواعـث عديـدة تحول بينـه وبين السـفر لرؤيتهـا، وبينها وبين زيارته. تعذر بالعمل والمرض، وجلس في منزله كئيبًا.

كتب إلى أمه في ديسمبر ١٨٣٧:

«في المـرة الأخيرة التي زرتك فيهـا اعتقدت أنك لاحظت بنفسـك أني لا أعرف إلـى أين يمكن أن أهرب مـن هذه الكآبة، التي لا أعرف لها مصدرًا».

في مـرة أخرى، في طريق سـفره إلى أمه، شـعر بهذه الكآبة وهـو لا يـزال في عربة القطـار. جوجـول الـذي كان بإمكانه أن يتحمـل أي طريق، بـل ويعتبر الطريـق بمثابة دواء، لـم يحتمله هذه المـرة. وصلت حالته العُصابية إلى حد أنـه قرر العودة إلى موسكو.

لكنه في الحقيقة عـاد أدراجه في منتصف الطريق ولم يصل إلى ضيعته.

أحـب جوجول أمه مـن بعيد، وتجنب لقاءهـا بكل طريقة ممكنة. ولقد وصل في هذا الأمر إلى حد أنه وضع عدة مرات في رسائله لها من موسكو بطاقات فيينا أو تريست.

هـذا مـا وضع كثيرين من كتاب سـيرة جوجـول في مأزق، وبدا لهم الأمر غامضًا وغير مفهوم.

في واقـع الأمر السـبب بسـيط؛ إنها عدم رغبـة جوجول في لقـاء أمه، والهروب منها. فليجعلها تعتقد أنه خارج روسـيا وإلا أصرت على لقائه.

ولكن ربما يكون قد فعل ذلك حتى لا يقوم برحلة طويلة؟ أيمكن أن يكون السبب أنه مثقل بالعمل والواجبات؟ لا .... أمه لا تجـبره على زيارتها دائمًـا، فكثيرًا ما تريد هي أن تأتي بنفسـها إلى موسكو.

أيمكن أن يكون السـبب هو أن جوجول يخجل منها ومن مظهرها الريفي؟ لا ... إن حكمنا بحسـب الرسـائل فسـنجد أن جوجـول كان يُبجِّلها، ويكن لها مشـاعر حقيقيـة، ويحميها من المتاعـب والاضطرابـات. يبدو أن سـببًا آخر جعلـه لا يريد أن يلتقي بها.

السـبب طفولي... السبب يكمن في اللاوعي. من الواضح أن ثمـة روابط شـرطية قـد ارتبطت ببعـض الأهـداف التي تثير هلعه: المنزل والأم والمرأة.

لقـد مزقته هـذه الروابط على امتداد حياتـه، وأفضت به في النهاية إلى الهلاك.

عندما لا يستطيع جوجول أن يتحاشى اللقاء بأمه، يتحدث عـن اللقـاء بأبـرد الكلمـات... كلمـات غيـر لائقة عـن اللقاء المرتقب. لقد كتب لدانيليفسكي في ديسمبر ١٨٣٩:

«أود أن أقـوم بواجبـي صـوب أمي، أي أن أسـمح لها بأن

تراني وأدعوها لموسكو كي تقضي أسبوعين معي».

من الواضح أن أمه كانت المذنبة عن غير قصد - في هذا الصراع الطفولي.

لكن ربما لا تشكل الأم في عقل الطفل مجرد أم، لكنها أيضًا مصدر الغذاء والفرحة، وهي التي تشبع جوعه. هذا يعني أنه لا بد أن تظهر أمور غريبة في هذا المجال، وسلوكيات غامضة، وبل ويمكن أن تصل الفوضى إلى أقصى حد؛ لأن الروابط الشرطية هنا أقوى، فالتصادم مع هذه الأهداف دائم ولا مفر منه.

نحن نعرف كيف كانت الأيام الأخيرة المأسوية في حياة جوجول. لقد توقف عن تناول الطعام، وعاني بشدة من فرط الجوع.

في الأيام الأخيرة توقف عن تناول الطعام بشكل كامل رغم تضرعات وتوسلات من حوله لإقناعه بتناول الطعام.

حينها أخذوا يناولنه الطعام بالقوة. صرخ وطلب منهم ألا يلمسه أحد، وألا يعذبوه.

لكن رفض جوجول لتناول الطعام لم يكن بسبب أي مرض أصاب معدته أو حتى لغياب الشهية.

كتب الطبيب تاراسنكوف ما يلي:

«كان النبض ضعيفًا واللسان نظيفًا لكنه جاف، ودرجة حرارة الجلد طبيعية. لجميع الأسباب بدا واضحًا أنه غير محموم، وكان من المستحيل أن يكون عدم تناوله الطعام بسبب

غياب الشهية».

وكتب أيضًا:

«لـم يـرد أن يتناول أي شـيء في هذا اليـوم، وعندما تناول فطيـرًا قال عن نفسـه إنه نهـم لعين غير صبور، وندم بشـدة على فعلته هذه».

أيمكن أن يكون الأمـر نوع من الهوس الديني مثلما اعتقد كثيرون من كتَّاب سيرة جوجول؟

لا... قـد يكـون للدافـع الدينـي دور، لكنـه ليس السـبب الرئيسي هنا، ولم تكن له حتى أهمية حقيقية.

نحن نعـرف أن رجال الدين مثل كهنـة الاعترافات وكهنة الإيبراشيات قد أقنعوا جوجول بتناول الطعام.

مـن المعروف أيضًـا أن كاهن الإيبراشـية أجـبر جوجول تقريبًا على تناول ملعقة من زيت الخروع.

الأكثر من ذلك أن تولسـتوي طلب من المطران فيلاريت أن يحـاول التأثيـر علـى جوجول الـذي توهـم أن تنـاول الطعام خطيـة، وأن يأمر جوجـول بتنـاول الطعام والاسـتماع لنصائح الأطباء.

أمر المطران جوجول بذلك فعلا قائلا إن الكنيسـة نفسـها تخضع لأوامر الطبيب في حالة المرض.

إلا أن هـذا الأمـر العالـي لـم يُحـدِث أي تغييـر في أفكار المريـض، وذلـك لأن الدافـع الديني لم يكن هو المسـئول عن

رفضه لتناول الطعام.

كيف فسّر جوجول نفسه سبب امتناعه عن تناول الطعام؟ لقد وجد لنفسه حافزًا غريبًا، وفي الوقت نفسه له دلالة كبيرة. كتب الطبيب تاراسينكوف:

«على الغداء لم يتناول جوجول سوى بضع ملاعق من حساء الشوفان، أو مخلل الملفوف، وحينما اقترحوا عليه تناول شيء آخر، بدت عليه إمارات المرض، وقال إنه يشعر بشيء ما ليس على ما يرام في معدته، وإن أمعاءه مضطربة تمامًا، وإن ذلك مرض متوارث من والده الذي مات في ذلك الصيف، بينما يعالجونه من هذا المرض».

تكشف هذه الإجابة الطفولية عن سبب رفض جوجول الحقيقي لتناول الطعام.

السبب الأول: وجود تشنجات واضطرابات عنيفة في المعدة (هل يمكن أن تكون أعراض فعل انعكاسي دفاعي؟). السبب الثاني: تكشف كلمات جوجول السابقة عن عدم رغبته في العلاج، أو بتعبير آخر: عن عدم رغبته في أن يكون في صحة جيدة. هذا هو جوهر مرضه وهلاكه بالتحديد. إنه يفضل الموت عن تحمل ما يتحمله الآن.

هذه هي الطريقة التي يمكن بها فهم مسألة امتناعه عن تناول الطعام.

لكن كيف يمكننا أن نربط بين امتناعه عن الطعام وحبه

للطعام، وهو الأمر المعـروف عن جوجول؟ يمكننا أن نقرأ عن حبـه للطعام في كل مكان؛ في يومياته وخطاباته ومذكراته. نعرف مـن مذكراته كيف ظـل يتعامل مع وجبة الغداء بإجلال شـديد، وكيف ظل يتعامل باحتفالية مع الطعام، والأهمية الشـديدة التي أولاها لتناول عشاء جيد.

أطلـق جوجـول في خطابه إلى دانيليفسـكي على المطعم: «هيكل مقدس» بل وأطلق عليه أيضًا: «هيكل التقدمات»!

نقـرأ في يومياته أنه أعد ذات مرة الغداء بنفسـه، وفعل ذلك بشكل احتفالي وجاد للغاية.

كتب س أكساكوف:

«لقد انشـغل بكل جوارحه في هـذا العمل، كحرفي منكب علـى عمله اليـدوي. اعتقدت حينها أنه إذا لـم يصر جوجول في المستقبل شاعرًا عظيمًا، فلا بد أن يصبح طاهيًا».

هذا يعنـي أن علاقة جوجـول بالطعام كانـت غريبة، و أنه بالغ في احتفائه بالطعام.

يمكن ملاحظة هذا السـلوك الغريب باستمرار ووضوح في كافة يومياته.

كتب م بوجودين عن الطريقة التي صاح بها الرسام الروسي بوجودين حينما قال عن جوجول:

«نعم... تعمدنا أحيانًا الذهاب زيارة جوجول وقت الغداء، حتى نستثير شهيتنا، فهو يمكنه أن يتناول طعام أربعة أفراد».

كتب ب. أنينكوف:

«بعد أن حصل جوجول على طبق من الأرز، أقبل عليه بشراهة غير عادية، وقد انكب عليه إلى حد أن خصلات شعره الطويلة كانت تسقط في الطبق، وتناول من الطبق ملعقة إثر ملعقة بنهم وسرعة شديدين».

وكتب س أكساكوف:

«تولى جوجول أمر قهوتنا وشاينا وإفطارنا وغدائنا... أجهز على كل شيء».

وكتب م بوجودين:

« كان إعداد شاي الصباح هو الأمر الشاغل لجوجول. لم يحدث أن انتهى مخزونه من الشاي أبدًا، ولكن عمله الرئيسي انحصر في اختيار مختلف المخبوزات التي تُقدَّم مع الشاي، وكان وحده يعرف أين يبحث تحديدًا عن مختلف أنواع المخبوزات والكعك والبسكويت... لا أحد يفوقه في ذلك. يصب الشاي، ثم يتحدث ويجذب فنجان الشاي ويبدأ الشرب منه. تمر ساعة كاملة دون أن يستطيع التوقف عن شرب الشاي».

يمكن ملاحظة هذه الميول المدهشة لجوجول حتى من قِبل رفاقه في المدرسة.

كتب مثلا أحد الرفاق ويُدعى لوبيتش الآتي:

«دائمًا ما تفوح رائحة الحلوى والكعك القوية من جيوب سرواله. في بعض الأحيان لم يكن يتوقف عن المضغ حتى في

أثناء الفصول الدراسية».

وكُتِب أيضًا عن أعوام جوجول الدراسية ما يلي:

«دائمًا ما كان يأكل كعكًا بالعسل، ويشرب كفاس[1] الكمثرى أو يشتريها من الأسواق».

مع هذا الولع الغريب بالغذاء، أحيانًا كان جوجول يشتكي من نقص الشهية أو عسر الهضم مع كل وعكة صحية يمر بها، إلا أن هذه العلاقة المبالغ فيها والاحتفالية بالطعام ظلت حاضرة. لكن بحسب روايات من كانوا يتناولون معه طعام الغداء، في كل مرة يقترب جوجول من الطعام، يصير متقلب المزاج، عصبيًا، وأحيانًا يستبد به الغضب.

كتب ب أنينكوف:

«لقد أدهشني جوجول بمعاملته القاسية والمتقلبة لخادمه. لقد جعله يُبدِّل طبق الأرز مرتين، فمرة يقول له إنه مطهو بشكل زائد، ومرة قول له إنه غير مطهو جيدًا».

كتب ف. إ إيوردان:

«بعد أن يطلب جوجول أي طبق، يلمسه بطريقة غريبة كما لو أنه يدعوه للجنس، ويطلب تغييره، أحيانًا مرتين وفي أحيان أخرى ثلاث مرات حتى ألقى النادل في إحدى الحانات بالطبق تقريبًا قائلا له: «سينيور نيكولو... من الأفضل ألا تأتي إلينا تناول الغداء، فلا أحد يمكنه أن يرضيك هنا».

---

(١) شراب حمضي شعبي روسي.

كما لو أن مشاهد طفولية تحدث أمام الطعام. هناك إذن اضطراب عظيم حقًا يكون حاضرًا خلف هذه المظاهر الاحتفالية لتناول الطعام.

نحن نعرف كم يمكن للمشاعر والرغبات الإنسانية أن تحوي متناقضات كثيرة، تتأسس على التصورات الطفولية المبكرة. أحيانًا لا يستطيع الخوف إطفاء الرغبة المرتبط بها، بل على النقيض من ذلك، يزيدها توقدًا. كما لو أنه كفاح ضد الهدف الباعث للخوف بهدف اقتلاعه.

النصر المؤقت على هذا الهدف يزيد من احتفالية المنتصر، لكن النصر النهائي يظل للخوف.

تتأسس أحيانًا آلية هذا النصر على إضعاف القدرة على التحكم. من المعروف علميًا أن قشرة المخ التي تضعف قدرتها على السيطرة بسبب الإنهاك أو المرض أو تقدم العمر تسمح بظهور قوى طفولية حيوانية مكبوتة مرة أخرى.[١]

نظرًا لأن مخ جوجول أنهكه المرض وأضعفه، أو بمعنى أدق قشرة المخ هي التي أُنهكت وضعفت، فقد توقفت قدرته على التحكم حتى ولو بشكل جزئي مثلما يكون الأمر في تلك الأعوام المبكرة، ولهذا رأينا هذه المشاهد المأسوية للامتناع عن الطعام، ولمسنا خوفًا كامنًا في لاوعي صاحبه حاضرًا باستمرار

---

(١) ذلك ما يفسر على سبيل المثال تلك الحالات الكثيرة التي يعود فيها الكهل ليصير طفلا. (المؤلف)

مع تناول الطعام. إنها أعراض طفولية، وقوى حيوانية لا يسيطر عليها الوعي، وقد وصلت إلى أقصى حد لها.

لكن الروابط العصابية الشرطية لم تقرن الغذاء والمرأة والأم وحدهم بالخطورة. لقد ضمت أيضًا مجموعة كاملة من أهداف أخرى مثل: المنزل – الليل - الفراش.

بهذا أعلنت المخاطر عن نفسها في كل خطوة، وبدا الصراع ضدها مريرًا وغير محتمل. لم يكن هناك مخرج سوى الهروب، فهو وحده ما يمكنه أن يمزق هذه الروابط، ويُخلّص صاحبه من المخاطر.

الهروب تحديدًا هو السمة الرئيسة في سلوك جوجول، فلم يكن يشعر بالتحرر إلا عندما يجلس في عربة، وحينها يشعر أيضًا بالراحة والحالة الصحية الجيدة.

لقد كتب كثيرًا عن كيف كان الطريق يعالجه.

بحسب وصف سميرنوفا في عام ١٨٣٧: «جلس جوجول في العربة بمساعدة بوتكين وقد بدا في حالة مريعة». حتى جوجول نفسه كتب الآتي:

«بوصولي إلى تريست شعرت أني في حال أفضل. الطريق هو دوائي الوحيد، وقد ترك فيَّ هذه المرة التأثير نفسه».

أبعده الطريق بالطبع عن المخاطر، وفارقه خوفه الكامن في لاوعيه، وهذا ما يحقق له الشفاء.

لكن شفاءً كهذا هو أمر وقتي، فالطريق قاده ثانية إلى

المرأة والطعام والعلاج، ومن ثم الشفاء، وخلف الشفاء هناك مخاطر أكبر تكمن في فرصة أكبر في اللقاء بما يخيفه حقًا. لم يكن هناك مخرج، فحتى المرض نفسه لم يرحه، فالمرض مرتبط بالفراش، والأخير مرتبط بدراما مفجعة حدثت في لحظة ما إبان أعوام الطفولة المبكرة.

من المثير للاهتمام الإشارة إلى أن كثيرين من كتاب سيرة جوجول قد لاحظوا علاقة جوجول الغريبة بالفراش. لم يكن جوجول يستلقي تقريبًا على الفراش، مع أنه موجود في غرفته بشكل طبيعي. حتى الأريكة لم يعتد الاستلقاء عليها وكان يفضل أن يغفو على مقعده.

أعرب ب. ف. أنينكوف عن قلقه وأسفه من غرابة أطوار جوجول.

هكذا يصف أنينكوف الليالي التي قضاها مع جوجول:

«كان جوجول في كثير من الأحيان – خاصة مع اقتراب نهايته أكثر فأكثر – يأتي إلى غرفتي ويجلس على أريكة ممهدة صغيرة مصنوعة من القش، ويسند رأسه على يده، ويغفو طويلا بعد أن أكون قد أطفأت الشمعة بالفعل واستلقيت على فراشي. بعدها يفيق ويُعدِّل من وضعه على الأريكة المصنوعة من التبن، ويظل هكذا حتى يحل الفجر».

حتى جوجول نفسه فسَّر سلوكه الغريب هذا بأن شعورًا بالتعب يسيطر على جسده عندما يستلقي على الفراش، بالإضافة

إلى أنه يخشى أن يدخل في غيبوبة».

كتب أنينكوف أيضًا:

«ما إن يحل الفجر حتى ينهض ويفسد ترتيب فراشه حتى لا تساور الشكوك الخادمة التي تنظف الغرفة بشأن نزوات سيدها الغريبة».

يبدو أنه بالإضافة إلى ذلك الخوف الطفولي الذي عانى جوجول، اضطر أيضًا إلى التظاهر بأنه لا يخاف شيئًا ولا يهرب من شيء.

يا لها من مشاهد طفولية تلك التي حدثت في أعوام نضجه! وكم كانت شدة قوة تأثيرها على جوجول! إن ذلك لمثال على وقوع عقل مميز جدًا تحت سيطرة تمثلات لا واعية. يا لها من معاناة قاسية تلك التي عانى منها هذا الشاعر العظيم! يا للألم الذي نشعر به بسبب معاناته! آه لو لم توجد هذه المعاناة، وظلت هذه القوى الخسيسة تحت السيطرة!

هذه المعاناة التي عذَّبت جوجول لا تُنقص أبدًا من قدر هذا الفنان والشاعر والأديب العظيم. إنها لن تُفسد ذكرانا عنه. كان جوجول على مستوى المعرفة الموجودة في زمانه، ولم يكن العلم قد وصل إلى مستوى مُرض بعد. في هذا الوقت كان العلم لا يزال يتجول في الظلام في هذا المجال. لم يكن بإمكانه أن يقدِّم يد العون لجوجول، أو حتى يُوضِّح له ما وضَّحه لنا الآن في زماننا.

٦

لا تزال أمامي أمثلة أخرى قد بحثت فيها، والنتائج جميعًا واحدة.

لن أُشوِّش القارئ بمزيد من هذه الأبحاث التي أجريتها.

يبدو لي أن المثالين اللذين ذكرتهما يكفيان لتوصيل الفكرة.

ما الفكرة تحديدًا؟ الفكرة هي أنه على الرغم من كل شيء يلزم أن يسيطر العقل على تلك القوى الدُنيا.

إلا أني سأذكر بضعة أمثلة أخرى قصيرة في هذا المجال.

أرجع نكراسوف حالته الكئيبة الي ارتباك حالته الصحية، وخاصة مرض كبده. كتب نكراسوف:

"لقد وضَّح لي الطبيب تسيميرمان أن لديَّ كبد عليل. أنا أحمق إذن بسبب اعتلال الكبد!".

لأعوام طويلة خضع نكراسوف للعلاج من هذا المرض.

لكن بعد موته اكتشفوا أن أعضاءه الداخلية - بما فيها كبده - كانت في حالة جيدة.

كتب الطبيب بيلوجولوفي الذي حضر تشريح الجثة ما يلي:

«بالنظر إلى عمره البالغ ٥٢ عام، فالجسد في حالة ممتازة. ما من أمراض سوى بعض أعراض الاضطراب المألوفة في الجسد»[١].

---

(١) أصيب نكراسوف بورم في المستقيم. لذا أجروا عملية جراحية لانتشال هذا الورم من جسده قبل موته بأربعة شهور، ومع ذلك يمكن أن يكون هذا الورم قد عاود الظهور قبل وفاته مباشرة. (المؤلف).

لقد ظلت الكآبة تلاحق نكراسوف طوال حياته، حتى إنه كتب وهو لا يزال شابًا في مقتبل العمر لم يتجاوز السبعة عشر عامًا مايلي:

«ها أنا في طريق جديد، والكآبة تلاحقني
وتنمو بداخلي...
أمضي دون هدف...»(١)

لم تعود هذه الكآبة إلى اعتلال الجسد، فأسبابها داخلية. إن أجرينا مجرد تحليل بسيط سيمكننا أن نتيقن من وجود تمثلات لا واعية تصل أحيانًا إلى أقصى حد لها.

كان من المفترض أيضًا أن لدى سالتيكوف شيدرين ورم في المخ، وذلك منذ أن كتب الطبيب بيلوجولوفي عنه: «لديه انقباضات عنيفة في عضلات الجسد تصل إلى درجة شديدة فلا يقتصر الأمر حينها على صعوبة الكتابة، بل إنها تصير مستحيلة تمامًا».

في عام ١٨٨١ كتب بيلوجولوفي: «لقد صارت هذه الانقباضات فظيعة إلى حد أنها أصبحت تبدو كالرقَّاص(٢). بالإضافة إلى ذلك عانى أيضًا من آلام في العينين غير مرتبطة بأي شيء خاطئ يحدث في جهاز العين».

هذه الأعراض والنوبات التي تعذبه والمرتبطة بالكآبة

(١) من قصيدة: وسط اللا مكان.
(٢) مرض عصبي.

جعلت الطبيب يظن أن لديه ورمًا في المخ.

لكن كما اكتشفنا بعد ذلك من خلال ما قاله الطبيب نفسه فإن شيدرين لم يُصب بورم أو مياه على المخ أو أي اضطراب في المخ على الإطلاق.

تداخلت الأسباب بالطبع بين الاضطرابات الوظيفية والتمثلات اللاوعية في مجال المشاعر التي تكونت بشكل خاطئ، وكذلك هناك استجابات خاطئة لهذه الاستثارات التي لم تتناسب في القوة والهدف مع هذه الاستجابات.

من المحتمل أن العلم المعاصر كان ليفحصه نفسيًا قبل أن يقول إنه مصاب بورم في المخ.

ربما كان هذا النوع من التحليل قادرًا على إنقاذ حياة الرومانتيكي الأعظم: بلزاك.

إن قصة حبه بجانسكايا[1] هي قصة مرض وهلاك.

راسل بلزاك هذه المرأة على امتداد أعوام طويلة. أحبها بقوة إنسان ذي عقل وقلب كبيرين. رغم المسافات بينهما، فقد عاشا في بلاد مختلفة، كانت بالنسبة له شكلا من أشكال المخاطر. ولكن عندما أرادت أن تفارق زوجها كي تذهب إليه كتب لها:

"يا حَمَلي المقيد البائس... لا تفارقي حظيرتك!"

---

(١) جانسكايا يفا فياتشيسلافا ١٨٠٠ - ١٨٨٢: كونتيسة بولندية كانت عشيقة بلزاك في البداية ثم تزوج منها بعد ذلك.

لكنها فارقت حظيرتها، وسافرت إلى سويسرا حتى تلتقي ببلزاك، كان لقاءً بائسًا. حاول بلزاك أن يتحاشاها تقريبًا.

لم يستطع كُتَّاب سيرة بلزاك تفسير سلوكه هذا.

كتب أحدهم:

«لقد شعر بالخوف من أن يعرف المرأة التي أحبها»

كتب كاتب سيرة آخر:

«شعر بالخوف أكثر من شعوره بالسعادة».

استنتج كاتب ثالث ما يلي:

«سكن في غرفة قذرة، وشعر بالخزي من أن يدعوها إليها».

يا للهراء! ويا لهذه الدوافع التافهة التي يذكرونها كي يبرروا الهروب والدفاع والخوف!

لكن زوج جانسكايا توفى، لذا تلاشت كل الدوافع الأخلاقية للهروب، ومن المفترض أنه لم يعد من الممكن أن يحدث أي هروب آخر، توجب على بلزاك أن يسافر إلى بولندا كي يتزوج من جانسكايا.

يكتب كاتب سيرة بلزاك أن قرار السفر هذا جعله يضطرب اضطرابًا عظيمًا، «كان بإمكانه أن يظل جالسًا في عربة القطار إلى الأبد من فرط التعب». مع مرور كل مدينة واقترابه من المكان المنشود، ازدادت حالته سوءًا، وازداد هلعه. شعر بالاختناق إلى حد أن شعر أن إكمال بقية الطريق لم يعد أمرًا ضروريًا. وصل إلى بولندا في حالة يُرثى لها. أمسك به الخدم من ذراعيه عندما

وصل إلى جانسكايا، وتمتم قائلا:

- آه يا حبيبتي آنا المسكينة! يبدو أني سأموت قبل أن يقترن اسمك باسمي».

لكن حالته هذه لم تستطع أن تحول بينه وبين الزواج الذي تم الإعداد له مسبقًا. في الأيام الأخيرة قبل الزواج كان بلزاك مشلولا تقريبًا. حملوه إلى الكنيسة على مقعد. سرعان ما قضى نحبه. كان في الخمسين من عمره، وتمتع بقوة جسدية كبيرة، وطبيعة قوية، لكن ذلك لم يحل بينه وبين الهلاك[1]. في هذا المثال يمكننا أن نرى إلى أي حد يمكن أن تصل القوة المناوئة لصاحبها، وما الدرجة الدفاعية التي يحتاج المرء إليها لينتصر على هذه القوة المناوئة وعلى تمثلاتها الطفولية الكاذبة التي تبعث المخاوف في عالم اللاوعي لدى المرء.

٧

يمكننا أن نعرض لكثير من هذه الأمثلة التي تكشف عن الهزيمة والكآبة والمرض والهلاك، لكني سأكتفي بما ذكرته من أمثلة.

على ما يبدو فقد رأى الناس أمثلة واضحة على عقول

---

(١) قبل زواجه بجانسكايا كنّ بلزاك عاطفة لها وربطته بها علاقة قوية، ومع ذلك لم تبد له العلاقة أمرًا خطيرًا؛ لأن عراها كان من الممكن أن تنفصم في أي لحظة، ولكن الزواج حال بينه وبين الهروب، وتعقد الصراع وأنتج وضعًا لا فكاك منه. (المؤلف)

سامية تعاني أكثر من غيرها. وقد تبين أن صنوف المعاناة هذه تعاني منها أكثر العقول سموًا، وتتعرض للمصائب والأحزان والأمراض. لكن في الحقيقة فإن صنوف المعاناة هذه لا تعود إلى هذه العقول السامية، بل إنها تصيب عقولا مرتبطة في المقام الأول بالفن والإبداع، ذات سمات خاصة تجعلها تميل إلى الخيالات والتصورات شديدة الحساسية. هذه السمات تحديدًا أكثر من أي صفات وراثية أخرى هي ما تزيد إمكانية ظهور الروابط العصبية الخاطئة، التي تتأسس على خيالات طفولية كاذبة!

لكن ذلك لا يعني على الإطلاق أن كل رجال الفن والإبداع والخيال يجب أن يعانوا من أمراض خاصة. تظهر هذه الأمراض بسبب مجموعة بائسة من الظروف، وسمات العقل تعتبر هنا بمثابة التربة الخصبة لظهورها[1]. هنا مكمن الخطأ ومنبع الإشكاليات التي تواجه العقل. درجات الوعي السامية لا تعتبر في حد ذاتها مصدرًا للخطورة، وحتى العقول الحساسة جدًا والميالة إلى الخيالات، لا ترتبط حتمًا بالمعاناة والأمراض العصابية.

هناك العديد من الأمثلة لا ترتبط فيها الموهبة الشديدة أو العبقرية على الإطلاق بأية أمراض أو أي نوع من أنواع الجنون أو العُصاب، بل على النقيض من ذلك؛ نلاحظ في هذه الأمثلة

(١) تساعد سمات هذه العقول السامية أيضًا أصحابها على إيجاد الخطأ الحادث في مجال العلاقات الشرطية.

صحة رائعة وعلاقات متوازنة تمامًا.

لا تحرم الحالة الصحية الجيدة صاحبها أبدًا من إمكانية أن يكـون فنانًا مبدعًا، بل على العكس من ذلك؛ إنها مثالية للإبداع، فحينهـا فقـط يمكن للفن أن يكتسـب قيمته الكاملـة، ولا بد أن يكـون كذلك. في الحقيقة فإن الإنسـان الذي يتمتع بصحة مثالية يمكنـه أن يفضل الحيـاة الحقيقية علـى الأوهام التافهـة، فربما لا يكون لديه وقت لملء رأسـه بشـخصيات خياليـة. إنه يفضل التفكير في شـخصيات حية ومشـاعر حقيقية. سـوف يقدم أناسًا هائميـن في أوهامهم، غير قادرين على إدراك مشـاعرهم بسـبب المخاوف والكبت. هذا هو السبب الذي يجعلنا نرى في كثير من الأحيـان اقترانًا خطيرًا بين الفن والمرض. هذا هو أيضا السـبب الـذي يجعلنا نعتقـد أن الفن مرتبـط بأولئك الذيـن لا يتمتعون بصحة جيدة، والمجانين والمعاتيه.

الأمـر ليس كذلك على الإطـلاق. وحدهم المختلون من يشـعرون أن العقل يـأتي بالبلاء وهم الذين أعلنـوا بؤس العقل. ربمـا هم لم يخطئـوا في الأمر في علاقتهم بأنفسـهم، لكنهم قلة. يجـب ألا ينسـبوا مـا يعانـون منه إلى جميـع النـاس، الذين هم بعيدون تمامًا عن مثل هذه الكوارث. هنا تحديدًا يمكننا أن نجد خطأ الفلاسفة والأدباء والشـعراء، فكثيرًا يعتقدون أن الإنسانية جمعاء تختبر ما يختبرونه من مشاعر.

اعتقـد ليـف تولسـتوي أن عـدم مقاومـة الشـر يمكنه أن

ينقـذ النـاس من مصائب عديـدة. يمكن أن يكـون ذلك قد أنقذ تولستوي نفسه، لكن هذه الفكرة بدت غريبة جدًا للناس.

رأى جونشـاورف[1] في الشـعب الروسـي نمـاذج مـن شخصيته الشهيرة: «أوبلوموف[2]». قد تكون الأبلوموفية إحدى سمات المؤلف، لكنها ليست على الإطلاق من سمات الشعب الروسي.

الأمر كذلك مع بلزاك، ففي روايته «الجلد المسحور» أكَّد على فكرة أن الحياة تنطفئ وتزداد هشاشة مع ظهور كل رغبة في نفس الإنسان.

خشـى بلـزاك مشـاعره ورغباتـه، لـذا حـذَّر الآخرين من رغباتهم ومشاعرهم، شاعرًا بالخوف من الموت الآتي لا محالة. كان ذلك خطأً شديدًا.

الأمـر على النقيض من ذلك، فالحياة تزداد توهجًا وطولا كلمـا قلـت العقبات المرضية. جسـم الإنسـان ليس دلـوًا مليئًا بعصارات ثمينـة يمكنها أن تندلق وتضيـع وتتبعثر من صدمات الحياة الكثيرة، بل إناء يمتلئ بقدر الاستهلاك. أربك هذا الخطأ الكثيرين والكثيرين من الناس.

---

(١) روائي وكاتب روسي عاش في القرن التاسع عشر.

(٢) رواية شـهيرة للأديب الروسـي الكبيرة: إيفان جونشـاروف، وتدور أحداثهـا عن بطل الروايـة: أبلوموف الذي يتميز بالخمول والكسـل وإنعدام المبـادرة وغياب الاهتمام بكل ما يحـدث في هذا العالم من أحداث وتطورات.

لقد كانت أخطاء في حق المجتمع وفي حق علم الفيسيولوجي وفي حق المنطق. نرى في هذه الأخطاء منطق أناس ليسوا في تمام الصحة، وأحيانًا مرضى.

في ضوء هذه الأخطاء الواضحة يتضح خطأ دوستويفسكي الفلسفي حينما قال: «الوعي الشديد، بل الوعي بأي درجة من الدرجات هو مرض[1]».

لم يكن دوستويفسكي إنسانًا معافى، وقد كتبت زوجته الآتي عن انطباعها الأول عنه: «رأيت أمامي إنسانًا بائسًا بدرجة لا تصدق، إنسانًا معذَّبًا. إنه يشبه إنسانًا قد قُتِل أحد أقاربه اليوم أو أمس. يشبه إنسانًا صعقته كارثة رهيبة».

يمكننا إذن أن نقول إن حالته المرضية (الصرع) قد تفاقمت بلا شك من الجهد العقلي المتزايد، ومن المحتمل أن هذا ما قد جعل الكاتب يصل إلى هذا الاستنتاج المتطرف.

لكن يبدو لنا أن السبب لا يكمن في العمل؛ بل في استجابة معقدة، أو تركيبة من الاستجابات لاستثارات خارجية هيأت له هذه الحالة.

قد يرى أحدهم خطأ في كتابي هذا يشبه ذلك الخطأ الذي تحدثت عنه للتو، لكن كل ما أستطيع أن أؤكده هو أن ذلك يتعلق بي شخصيًا وبصورة جزئية بالمشتغلين بالفن، أما فيما يتعلق بالمشتغلين بالمهن الأخرى فأنا لا أستطيع أن أؤكد شيئًا. أنا أقدم فقط بعض الافتراضات.

(١) من رواية مذكرات من العالم السفلي.

١١

العقل يقهر الموت

زعيق الأبواق الجنائزية قريب
تنهـد الشـفاه البـاردة مربك[1]

١

ثمـة عبارة مدهشـة ومحزنة في إحدى رسـائل جوجول في فترة شبابه:

«لقـد فككـت شـفرة علـم الحيـاة السـعيدة والمبهجـة، وتعجبت كيف يتهرب الناس المتعطشـون للسـعادة على الفور من هذا العلم، بعد أن التقوا به».

هـذا يعني أن الأمر لم يقتصر علـى إدراك جوجول لهروبه السريع من السعادة، بل أدرك أيضًا هروب الآخرين منها.

إلـى أيـن يهـرب أولئـك النـاس؟ في أي الزوايـا يجدون خلاصًـا لهم من هذا الوهـم الذي صنعوه لأنفسـهم؟ يركضون صوب ذلك الاتجاه الذي لا يمكنهم أن يجدوا فيه خلاصًا أبدًا. يركضون صوب المرض والجنون والموت.

يركضـون صوب هذه الأماكـن كي يهربوا مـن المخاوف والمصائب والاضطرابات، بينما هم لا يعونها في حقيقة الأمر.

---

(١) من قصيدة بلوك: لقد هزمتها أخيرًا.

هل يعني ذلك أنهم يفرون صوب الموت؟ هل يمكن أن نجد الراحة في الموت؟ هل الخوف من الموت أقل وطأة من ذلك الخوف الكامن في اللاوعي، والذي يمسك الإنسان من يديه.

نحن ندرك مدى قوة هذا الخوف الذي يغرسه الجنون في الإنسان بفكرة الموت. مع ذلك يمكننا أن نجد أمثلة عديدة رأت في سعيها للموت خلاصًا ومخرجًا وعلاجًا.

كيف يمكننا التوفيق بين هذين القطبين المتباعدين؟ لا شك أنه يمكن التوفيق بينهما إذا نظرنا إلى ما يحدث خارج حدود الوعي.

لا يدرك الطفل – شأنه شأن الحيوان –ماهية الموت. إنه يراه بوصفه اختفاء أو رحيلا أو غيابًا، لكن جوهر الموت نفسه لم يتضح بعد، ويُستوعب هذا المفهوم تدريجيًا مع تطور العقل. في الطوابق السفلية من العقل يُدرك الموت بوصفه أشد الأفعال إثارة للهلع، أو بمعنى أدق أخطرها من بين كل ما يحدث في الحياة الإنسانية.

في عام ١٩٢٦ عندما أوشكت الكارثة على ابتلاعي تمامًا، وأرعبتني التناقضات والصراعات، ولم أعد أجد مخرجًا، رأيت حلمًا غريبًا.

رأيت يسينين يدخل غرفتي، وكان قد شنق نفسه منذ فترة بسيطة. دخل إلى غرفتي أحمر الوجنتين وهو يجفف يديه، في حالة من السعادة والبهجة و الرضا. لم أره طوال حياتي بهذا

الشكل أبدًا. جلس على الفراش الذي أنا مستلقٍ عليه مبتسمًا، ومال نحوي كي يقول لي شيئًا ما.

استيقظت من نومي مرتجفًا. قلت في نفسي: «إنه يطاردني. لقد انتهى كل شيء. لا بد أني سوف أقضي نحبي».

لكن ها هي الأعوام قد مرت، ونسيت هذه الحادثة تمامًا، ولم أتذكرها كاملة إلا الآن. حينها أدركت ما أشار إليه هذا الحلم في وقتها. لقد أشار إلى الآتي: أنظر كيف أنا الآن في خير حال! أنظر كيف أبدو سعيدًا وفي حالة صحية جيدة، خالي البال. تصرف مثلي يا صديقي العزيز، وستكون في مأمن من كل تلك المصائب المريعة التي ظلت تمزقنا».

هذا ما عناه ذلك الحلم الذي تسلل لي أثناء النوم من سكان الطابق السفلي، وهم السكان الذين يخشون على ما يبدو من هذه المخاطر أكثر من خشيتهم من الموت نفسه، ربما لأنهم لا يفهمونه، أو بمعنى أدق لا يفهمونه بالطريقة التي نفهمه بها.

أيمكن أن يكون ذلك هو سبب حدوث كثير من الميتات الغريبة التي تحدث إثر أمراض تافهة تمامًا؟ ألا يمكننا أن نجد في ذلك الأسباب الحقيقية لبعض حوادث الانتحار، والتي تمثل هروبًا سريعًا كهروب الحيوان؟

هذا النوع من الانتحار طفولي إلى أقصى درجة، فيمكننا أن نرى فيه سعيًا صوب الموت يماثل تمامًا ذلك الخوف الطفولي اللاواعي من بعض المخاطر المشكوك فيها وصراعات مشكوك فيها.

لا شك في الطبيعة المرضية لهذه المساعي، وأكرِّر مرة أخرى أني أرى أن التحكم في العقل أمر ضروري.

٢

لكن هل يمكن أن يكون تدخل العقل بإفراط غير ضروري في الظروف الطبيعية؟

لا. أعتقد أن سيطرة العقل في هذه الظروف هي أمر ضروري. ما المشاعر التي نختبرها عندما نرى الموت؟ ما الذي يحدث في الطابق الأعلى من عقلنا عندما نفكر مليًا في الموت؟

يخاف غالبية الناس من الموت ويشعرون بالكآبة والهلع.

هل هذا أمر صائب حتى لو كان من وجهة نظر الرغبة في استمرار الحياة؟ لا، هذا غير صحيح على الإطلاق، وخطير، بل ومهلك. هنا يجب أن نتحدث تفصيلا عن الموت، عن هذه الحالة التي لا مفر من مواجهتها في الحياة الإنسانية أكثر من أي حالة أخرى. يبدو لي أن الحديث عن ذلك لا يتعارض مع مبادئ الواقعية الاشتراكية[١]. حتى مع أكثر درجات تفاؤل الواقعية

---

(١) تكشف هذه العبارة عن مدى قوة القيود التي كبَّلت بها السلطة السوفيتية الأدب، وكيف حدَّدت إطارًا واحدًا ضيقًا يجب أن يسير في داخله الكاتب، ألا وهو الواقعية الاشتراكية والتغني ببطولات المواطن السوفيتي والجندي البطل وما إلى ذلك. في ضوء تلك المخاوف يمكننا أن نفهم إذن رد الفعل العنيف الذي حدث من السلطة السوفيتية ردًا على صدور هذا الكتاب، خاصة إبان فترة الحرب.

الاشـتراكية، فهي لا تغفل عينيها عن كل ما يحدث حولها. علينا ألا نتأخر في حسم تلك المسائل التي لابد لنا وأن نحسمها.

علاقتنـا بالموت هـي واحدة من أعظم المشـاكل التي لا بـد أن يصطدم بها الإنسـان. لكـن الأمر لا يقتصر علـى أن هذه المشـكلة لم تُحسـم من قبل الأدب والفلسفة والفن، لكن حتى التفكيـر فيها لم يكـن كافيًا. إن حل هذه المسـألة أمر متاح لكل إنسـان على حـدة. ولكن عقل الإنسـان ضعيـف ومرتعب، لذا يؤجل البت في هذه المسـألة حتى الأيـام الأخيرة، وحينها يكون الوقـت قد تأخر علـى حلها ومواجهتها. يكـون الوقت قد تأخر أيضًا على الندم حين يفاجئ الموت صاحبه.

حكـى أحـد الكتاب الألمـان المناهضون للفاشـية قصة مدهشـة. وقع أحـد أصدقاء هذا الكاتب في قبـو، وهناك تعرض لتعذيب وحشـي، لكنه اسـتطاع تحمله، وعندما اصطدم بحقيقة أنه سـوف يموت، ارتجفت نفسه. في البداية جاءته فكرة الموت لأول مـرة، اسـتولت عليـه دون وعـي منـه عندمـا كان ضعيفًـا ومعذبًـا. أرعبته هذه الفكـرة لدرجة أنه أنكر أفـكاره حتى ينجو مـن الموت. أرسـل خطابًا يعلن فيه توبته من السـجن، موضحًا بيأس ما حدث معه.

بعد أن حكى لي الكاتب عن ذلك قال لي:

- اعتقـدت فيما مضى أن السـؤال حول المـوت هو أمر يتعلق بكُتَّـاب الزمـن القديـم. لا... يجـب أن نكتب عـن الموت

ونفكر في هذه المسـألة بقدر تفكيرنا تمامًا في الحب. لا شك أن الأمر كذلك حقًا، وسوف تدركون حالا السبب.

٣

أشـارت كل الكتب التي تقص سـيرة جوجول تقريبًا إلى خوفه وهلعه من الموت.

كتـب أ.ب أنينكـوف: «إن فكرة التأمـل في الموت لم تكن محتملة بالنسبة له».

لـم يتمتع جوجول بالطبع بصحة جيـدة، لكن حالته كانت محتملة إلى حد كبير حتى التقى ذات مرة بالموت. ماتت شقيقة الشـاعر يزيكوفـا. لم تكد تبـدأ الصلاة على جثمانها حتى شـعر جوجول أنه في حالة مريعة. كان يرتجف، وشـعر أنه مشـدوه من الموت. ترك الموت أثرًا ملحوظًا عليه من جميع الحاضرين.

كتـب الطبيـب تاراسـينكوف: «لـم يـترك موتها أثـرًا على زوجهـا وأقاربها كما فعل مع جوجول. ربما كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها بالموت وجهًا لوجه».

مـن الواضـح أن ملاحظتـه كانـت في محلها. لا شـك أن جوجول التقى بالموت سابقًا، لكنه هذه المرة ربما تكون الأولى التـي يمعن فيهـا التفكير في الموت حقًا. فحينهـا اعترف لكاهنه بأن الخوف من الموت هاجمه. طبقًا لما روته أ. س خومياكوفا، مـا إن بـدأت الصلاة على الجثمـان، ونظر إلى وجـه المرحومة

حتى قال: «لقد انتهى أمري...»

والحقيقـة أنه منـذ ذلك اليوم بدأ جوجـول يعاني من محنة مسـتمرة. وربمـا كان يفكر في الموت وانقضـاء الحياة حين قال ذات مرة: «كل شيء هراء... كل هذا محض هراء...»

طبقًا لكلمات ب. أكوليشـا، مرض جوجول بهذا المرض الذي مات بـه أبوه؛ ألا وهو الخوف من الموت. في غضون عدة أسابيع كان جوجول قد قضى نحبه...!

لقد وصفنا نهايته. كان موتًا دون قتال، موتًا مذعنًا. لقد كان سـعيًا نحو الموت. ظل الموت حاضرًا في مشـاعره، وقد سـرّع حلول الخاتمة. أتى مفعوله المهلك بشـكل ملحوظ للمحيطين بجوجـول. لم يكن جوجول وحده من شـعر بهـذا الخوف، فقد شـعر بـه كثيرون. قرأنـا عن هذا الخـوف من حقيقـة الموت في الحكايات والذكريات والخطابات. لقد مات حرفيًا من الخوف من المـوت بوتيمكين عشـيق يكاترينا[1]. كتب عنـه معاصروه: «تملكه ذلك الخوف الرعديد، والهلع من الموت كاملا، وصار مكتئبًا وبائسًا».

أمـا الإمبراطـورة يليزافيتـا بيتروفنـا فكانت أيضًا تخشـى الموت، وبدأت في معاقرة الشـرب حتى تُبـدِّد عنها هذه الأفكار المفزعة.

---

(١) إحدى أبرز وأهم وأكبر حُكَّام روسـيا عبر التاريخ ومن أطول النسـاء الحاكمات عهدًا.

أما القيصر ميخائيل فيدوروفيتش فبعد أن استغرق في التفكير في نهايته ومصيره توقف تمامًا عن الحركة ومات من طول الجلوس والشراب البارد والكآبة التي استولت عليه، أو بتعبير آخر من فرط الأسى. بعث الموت الخوف في قلوب الناس، وقد سقط أناس أذكياء ذوو موهبة رفيعة تحت وطأة هذا الخوف بدرجة لا تقل عن بقية الناس.

كتبت شقيقة المؤلف الموسيقي جلينكي: «خاف الموت لدرجة أنه ظل يحمى نفسه من أتفه الأمور بطريقة مضحكة».

مزقت الكآبة موباسان حينما كتب:

«أيًا كان ما فعلناه فالأمر سيان، فالموت آت لا محالة. أيًا كان ما آمنا به، وأيًا كان ما سعينا إليه، سيدركنا الموت لا محالة، وستشعر بثقل الوعي يسحقك».

كتب ليف تولستوي مرتعبًا:

«أربعون عامًا من العمل والعذاب والنجاح حتى أدرك أن لا شيء دائم، وأن كل ما سيبقى مني هي العفونة والديدان».

غيَّر تولستوي بعد ذلك من علاقته بالموت، وربما يكون هذا المقطع هو الأشد إثارة لاهتمامنا، كي نجري مقارنة بينه وبين المقطع التالي.

كتب بلوك، شاعرًا بالهلع من الموت، آملا أن يرى نهايته قريبًا:

تصيح الأصوات تعبة: متى المصير؟

لن تستطيع الراحة دون أن تصغي

يا لفظاعة كل شيء! أعطني يدك

يا رفيقي... فلنمت مجددًا[1]

هكذا نرى أن الخوف حاضر بدرجة مفزعة عند الاصطدام بالموت، وحتى عند التفكير فيه.

في هذا السياق نعتقد أن هذا الخوف يُثبِّط من عزيمة الناس، ويجعلهم مذعنين وعبيدًا لا حول لهم ولا قوة. إنه يجردهم من كل أسلحتهم ويجعلهم أكثر إذعانًا للموت.

كما قال شكسبير:

الخوف يجذب الموت

لكننا عبيد مذعنون للموت

نسلم أنفسنا له دون مقاومة

من فعل الخوف[2].

إنها كلمات دقيقة وحقيقية، فالخوف يحرم المرء من قدرته على المقاومة. إنه يُسرِّع من أوان الهلاك، ويأتي بالنهاية سريعًا.

سواء جاءنا الخوف على حين غرة أو في صورة حالة مرضية، يظل بلا رحمة، وهو أقوى ما يجذبنا إلى الموت. أكثر من يعرف ذلك هم الذين خاضوا حروبًا. أذكر إبان الحرب جنودًا اعتادوا القول ساخرين: «الرصاصة تجد الجبان»، والأمر هكذا فعلا.

---

(١) من قصيدة: أكوان تتلاشى وسنون تمر... باطل الأباطيل.

(٢) ريتشارد الثاني الفصل الثالث المشهد الثاني.

ربما لأن الجندي الذي يشعر بالهلع يتصرف بشكل غير منطقي وغبي. يتحرك كالأعمى دون تقدير للموقف. الخوف يشله، ويحرمه من مرونته وقدرته على المقاومة. يصير ضعيفًا جسديًا، لا حول له ولا قوة، عصبيًا. حينها ستجده الرصاصة سريعًا.

ذلك هو الأمر بالنسبة لظروف الحياة العادية والهادئة. أولئك المرعوبين والجبناء يموتون بصورة أسرع، ويحرمهم الخوف من إمكانية السيطرة على أنفسهم.

في هذه الحالات التي يمكننا - إن جاز التعبير- أن نطلق عليها «طبيعية» لا بد للعقل أن يهب لإنقاذ صاحبه. لابد له وأن يدمِّر الخوف.

٤

لكن كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ من السهل أن نقول: لا يجب علينا أن نخشى الموت. حاول أن تقنع إنسانًا أن الموت ليس مريعًا إلى هذا الحد، ولن يصدقك. سوف يسخر منك، وربما سيشعر بخوف أشد من مصيره.

ما الطريق الذي يجب على العقل أن يجده كي يُدمِّر الخوف بحيث لا يعود يشعر بالهلع من الموت؟ يجد العقل هذا الطريق فعلا. يمكننا أن نرى أمثلة متنوعة من الخوف المطلق، والشجاعة المدهشة، وأيضًا تلك الأمثلة التي تُحدِّثنا عن الاستهانة بالموت والاستخفاف به.

لسنا في حاجة هنا لتذكر الماضي، فلدينا بالفعل أمثلة عديدة على ذلك في وقتنا الحاضر.

مع ذلك يمكننا أن نتذكر ألكسندر ماتروسوف عضو هيئة الشبيبة الشيوعية الذي اعترض بجسده رشاش العدو. فعل ذلك بشكل واع. استهان بنفسه، وتلاشى خوفه من الموت عندما ظهرت لديه الرغبة في مساعدة الرفاق وإنقاذهم وتحقيق النصر.

حكى لي أحد ضباط الجيش الأحمر حادثة أخرى لا تقل عن الحادثة السابقة في إثارتها للدهشة حدثت في هذا العام، كان هناك اثنا عشر ضابطًا واثنان من جنود الاتصالات في مخبأ بأحد الخنادق. أراد أحد الضباط أن يخرج منديلا من جيبه، فنزع بالخطأ فتيل قنبلة يدوية، وانفجرت. كان باب المخبأ مغلقًا، ولم تكن هناك فرصة بإلقاء القنبلة بعيدًا.

كيف تصرف هذا الضابط السوفيتي؟ لم تكن تتبقى له سوى بضع ثوانٍ عليه أن يحسم فيها أمره. لقد استلقى بجسده فوق هذه القنبلة وغطاها ببطنه تمامًا، وقد فجَّرت جسده تمامًا بالمعنى الحرفي للكلمة، ولهذا لم يتضرر أحد تقريبًا من الموجودين معه في المخبأ. لقد تلقى جسد الضابط الضربة بأكملها، واستقبل كل شظايا القنبلة. أنقذ رفاقه، وتلاشى تمامًا خوفه من الموت أمام الشعور الذي تملك قلب هذا الإنسان العظيم. لا شك أن بإمكاننا أن نجد عددًا ليس باليسير من هذه الحقائق في تاريخنا الماضي والمعاصر.

تخبرنا هذه الحقائق أن العقل والأفكار والمشاعر السامية كثيرًا ما تتمكن من هزيمة الخوف. لكننا عندما نتحدث عن الخوف من الموت نريد أن نفكر في الأمثلة الشائعة، لا في تلك الحوادث الاستثنائية التي يكون فيها الموت ضروريًا من أجل تحقيق هدف أسمى. عندما نتحدث عن الخوف من الموت لا نقصد ذلك الموت البطولي؛ بل الموت العادي الذي يمكننا أن نطلق عليه إن جاز التعبير: الموت اليومي.

أردنا أن نرى الشجاعة وسط حوادث الموت العادية. لكننا قصدنا بهذه الأمثلة أن نعرف ما الذي فعلته عقول أولئك الناس كي يقهروا الخوف. يمكننا أن نجد عددًا كبيرًا من هذه الأمثلة التي تكشف عن علاقة الشجاعة والمروءة بالموت.

كتب لومونوسوف[1] قبل موته:

«أنا لا أخشى الموت. عشت حياتي وعانيت الكثير، وأعرف أن أبناء وطني سوف يشعرون بالأسف عليَّ».

قال أيضًا شتيلين صديقه في الأكاديمية:

«أنا أدرك أنه لا بد لي أن أموت، وأنا أنظر إلى الموت بهدوء وفتور. كل ما أشعر بالأسف عليه هو عدم استطاعتي تحقيق كل

(١) ميخائيل لومونوسوف هو عالم روسي مشهوراً مؤسس جامعة موسكو الحكومية. عاش في القرن الثامن عشر. ولد في ١٩ نوفمبر عام ١٧١١ بقرية دينيسوفكا في روسيا الشمالية وتوفي في ١٥ أبريل عام ١٧٦٥ في مدينة سانت بطرسبرج. وهو مشهور باكتشافه لوجود الغلاف الجوي عند كوكب الزهرة.

ما أردت تحقيقه لصالح وطني ورفعة العلم ومجد الأكاديمية».

مات سوفوروف[١] بشجاعة وبساطة. ابتسم وهو على فراش الموت وسأل ديرجافين عن النقش الذي كتبوه على ضريحه.

كتب تاليران[٢] وزير نابليون الشهير، وهو واحد من أذكى الناس على ما أعتقد ما يلي:

«أهرم تدريجيًا وأدرك كيف سينتهي كل شيء. لا يحزنني ذلك ولا يبعث فيَّ الخوف. لقد انتهى أمري. غرست أشجارًا، وشيدّت منزلا وارتكبت حماقات كثيرة أخرى. حان وقت النهاية».

طبقًا لرواية جوسيف: قال ليف تولستوي:

«أشعر تقريبًا بإمكانية الموت بسعادة».

كتب ريبين[٣] قبل موته بعدة أشهر لتشوكوفسكي:

«أرجوكم لا تعتقدوا أني في حالة بائسة بسبب اقتراب الموت. الأمر على النقيض من ذلك، فأنا سعيد... قبل كل

(١) أليكساندر فاسيليفتش سوفوروف كونت ريمنيك، أمير إيطاليا، كونت الإمبراطورية الرومانية المقدسة، هو قائد عام سابق في الإمبراطورية الروسية. يُعد سوفوروف أحد القادة القليلين في التاريخ الذين يشهد لهم تاريخهم بأنهم لم يخسروا معركة قط.

(٢) شارل موريس تاليران واسمه الكامل «شارل موريس تاليران-بريغور» والمعروف اختصاراً بتاليران، سياسي ودبلوماسي وقائد عسكري فرنسي ولد في ٢ فبراير ١٧٥٤ وبها توفي في ١٧ مايو ١٨٣٨.

(٣) إيليا ريبين: رسام ونحات روسي.

شيء أنا لم أهجر الفن، وكل أفكاري الأخيرة تنصب عليه. منذ أكثر من نصف عام وأنا أعمل على لوحة: «جوباك». للأسف لن أستطيع إنهائها».

كتب أيضًا ريبين:

«ليس ثمة إصلاحات في حديقتي. سوف أحفر مقبرة سريعًا. للأسف لا أستطيع أن أحفر مقبرة لي بنفسي، فقواي الضئيلة لا تستطيع فعل ذلك، ولا أعرف ما إذا كانت ستسنح لي الفرصة لذلك أم لا ....»

يمكننا أن نستشهد بأمثلة عديدة على هذه العلاقة الهادئة والفعَّالة بالموت.

ولكن ما الذي فعلوه كي يستطيعوا تحطيم الخوف؟ ما الذي تطلبه منهم الأمر للقيام بذلك؟ كيف اكتسبوا القدرة على الشجاعة؟

أعرف حكاية اصطدمت بها ذات مرة، كشفت لي عن حل تلك الإشكالية.

منذ أعوام عديدة مضت، بينما كنت عائدًا من الصيد عرجت على أحد الأكواخ الريفية لأشرب كوبًا من اللبن.

رأيت صليبًا في الردهة الخارجية. بد صليبًا تقليديًا من البتولا، من ذلك النوع الذي يضعونه على أضرحة المقابر. لا بد ون أحدهم مات في هذا الكوخ الريفي، لذا فقد أعدوا الصليب من أجل المرحوم.

أوشــك على مغادرة المكان وقــد اعتقدت أنه ليس الوقت المناسـب للمـرور على هــذا الكوخ، لكــن الباب انفتــح فجأة، ودعــاني للدخول شــخص حافي القدميــن تخطى عمر الشـباب يرتدي بنطالا ورديًا.

شربت كوب اللبن، وسألت صاحب الكوخ من الذي مات تحديدًا، وأين هو المرحوم.

ابتسم الرجل وقال:

- لم يمت أحد، وليس لدينا مرحوم. أما فيما يتعلق بالصليب، فأنا الذي أعددته لنفسي.

لــم تكــن علامات الشــيخوخة قــد لاحت علــى مظهره، وعيناه تشــعان بالفرح، وخطواتــه ثابتة، والحمــرة تلون وجنتيه الممتلئتين.

ابتسمت وسألته لماذا هو في حاجة إليه بهذه السرعة.

ابتسم ثانية وأجابني قائلا:

- كانت لحظة استثنائية، لكن الأمر مرَّ.

بعــد أن ودعنا بعضنا خرجت ثانية إلى الردهة الخارجية، وربت الرجل بلطف على الصليب وقال:

- أتعــرف يا عزيزي متى أعددت هذا الصليب لي؟ منذ سـبعة عشر عامًا.

- أكنت حينها مريضًا أم ماذا؟

- لماذا أمرض؟ كنت خائفًا بعض الشيء من الموت، وصنعت

صليبًا من أجل أن أُذكِّر نفسي بالموت، وأعتاد عليه.

- الآن لم تعد تخاف من الموت؟

- لم أعد أخاف منه الآن. لم أعد مهتمًا بهذا اللعين، ولا بد أنه هو الآخر يخاف مني.

بينما أتذكر هذه الحكاية أدركت تمامًا فيمَ تتلخص الحرب التي دارت بين هذا الرجل وبين خوفه. لقد تلخصت في فكرة العادة؛ في اعتياد الموت كأنه أمر عادي تمامًا، أمر طبيعي وحتمي. هذا الاعتياد أوقف فرادة فكرة الموت ومفاجئته. لقد حطَّم اعتياد فكرة الموت الخوف منه تمامًا.

تحدثنا عن جوجول وكيف خشي الموت. لاحظ ذلك المحيطون به، وطبقًا لكلمات ف. س أكساكوفا بدأ المحيطون به في الحديث عن إمكانية تربية الطفل منذ الصغر على الاعتياد على فكرة الموت بحيث لا يعود مفاجئًا بالنسبة له، وذلك لتغيير بنية الفِكَر التي كانت لجوجول.

غياب المفاجأة هو السلاح الرئيس في الحرب ضد الخوف. لا شك أن الناس الذين يتعاملون مع الموت بهدوء كانوا يفكرون فيه منذ زمن بعيد، لذلك لم تعد فكرة الموت بالنسبة لهم مفاجئة.

لقد رأوا فيه حادثًا طبيعيًا، فحال الحياة أن تتجدد طوال الوقت. لقد تعودوا على التفكير فيه كما لو أنه مصير عادي، لذلك مات أولئك الناس كما يليق بالبشر لا كحيوانات، أي دون

اضطـراب ولا هلع، بهدوء تـام، وهذا بدوره أضفى على حياتهم نوعًا من المهابة والإجلال.

هذه العلاقة العاقلة بالموت ربما تكون قد أطالت من حياة أصحابها، لأن العدو الرئيس لهم قد غاب، ذلك العدو الوحشي، ذلك الخوف الذي لا نعيه دائمًا.

٥

يمكن لاكتسـاب عادة التفكير في الموت وكأنه أمر مألوف وطبيعـي أن تحطم الخـوف. مع ذلك قد تؤدي هـذه العادة إلى بعض التطـرف الذي ربما يكون غير ضـروري. نجد أمثلة على علاقات هادئة محبة لطيفة صوب الموت. كنت سـأقول إن هذا أمر عديم الفائدة تمامًا.

لا تخلو مثل هذه الحالات من الهزل، وربما لهذا السـبب مسموح بها في الحياة الإنسانية.

طبقًـا لكلمـات أحد معاصـري أميـن مكتبـة الإرميتاج[١] الشـهير إ.ف لوشـكوف في نهاية القرن الثامن عشـر كان الأخير يتعامل بكل محبة وغيرة مع كل ما يختص بالدفن. يحضر تقريبًا كل يوم صلـوات الدفن التي تُقام علـى أرواح أناس لا يعرفهم. يحفـر المقابـر مجانًا مـن أجل الفقـراء، وظل على حبـه لكتابة

(١) متحـف الإيرميتـاج في بطرسـبرج: يعـد واحـدًا مـن أكـبر المتاحـف في العالـم، ويحـوي ٣ ملايين تحـف فنية، واحد من أقـدم المتاحـف والمعارض الفنية والبشرية والتاريخ والثقافة في العالم.

النقـوش على ضرائـح المقابر حتـى واتته الشـيخوخة، وقضى أحيانًا أيامًا كاملة في المقبرة.

لـم يجعلـه ذلك يشـعر بالرضـا، فبنى لنفسـه بيتًـا بجانب مدافن أخوتنيسـكي، حيث تطل نوافذ المنـزل على المقابر كما لو أنها تطل على حديقة.

كتب لوشكوف المرثية التالية على ضريح أحد أقاربه:

باشا.... أين أنت؟ هنا. وفانيا؟ على بعد خطوات.

وكاتيا؟ لا زالت صاخبة.

اشـتهر أحدهـم بعلاقة بالحيـاة كعلاقـة بالصخب، حيث تبـدو الحياة غيـر ضرورية وزائـدة في مقابل عظمـة الموت. إنه نائب المحافظ المتقاعد شيفيليف الذي كان في أربعينيات القرن الماضي.

لقـد عرف تحديـدًا من متعهدي الدفن أيـن يمكنه أن يجد الموتى، وكان يأخذ معه وسادة ويمضي إلى العناوين المحددة. كان يبقـى هنـاك بـإذن مـن أصحـاب المـكان يوميـن أو ثلاثة، فالإقامة عند منازل الموتى تروق له. كان يغسل جثامين الموتى، ويجهزهم لرحلتهم الأخيرة، ويقرأ لهم في الليالي ما يتراءى له.

أمـا فيما يختص به هو شـخصيًا، فقد حجز تابوتًا قبل موته بمدة طويلة بفتحة مخصوصة للعين. بالطبع ما من فائدة من هذه الفتحات لرجل ميت، ولن يسـتطيع النظـر عبرها على الإطلاق، لذلك أعاد التفكير في الأمر، ثم وسَّع الفتحة لتكون بمقاس الوجه.

لأجل ذلك اشتروا نوعًا خاصًا من زجاج البحر خصيصًا ليناسب الصندوق. تبين أنه لطيف جدًا، فعبر الزجاج يمكن للمرء أن يشعر بالإعجاب بالمرحوم دون أن يرفع غطاء الصندوق.

لكن الموت لم يأت سريعًا لمحب المآتم هذا، وظل الصندوق في الغرفة لأعوام عديدة، ودخله الكثير من الضيوف الفضوليون ليروا كيف يكون المنظر من الداخل عبر النافذة الزجاجية.

من المحتمل أن الأمر لم يخل من ابتسامة حينما دفنوا هذا الرجل. ولا بد أنه كان من المضحك النظر إلى وجه المرحوم الجاد المستغرق في التفكير عبر الغطاء الزجاجي الذي ابتكر شيئًا جديدًا في طريقة الدفن وإنقاذ الناس من ضجيج العالم.

هذه العلاقة بالحياة، بوصفها علاقة بصخب وجلبة تبدو عبثية. هذا هو الأمر الذي اتسم به من تعودا على التفكير في الموت. لا بد أننا نحتاج في مثل هذا الأمر لبعض الحذر والحكمة.

مع ذلك من الممكن أن يكون أسلوب الدفن الأنيق هذا بمثابة تذكرة لنا بأن الحياة ما هي إلا ضجيج. من الممكن أن يخبرنا ذلك ببساطة ما تخبرنا به الطرفة عن أننا نفعل ذلك من أجل رفع الروح المعنوية بين الموتى.

يبدو أن هذا صحيح إن حكمنا على الأمر من منطلق

ذلك النقش الذي ظل محفورًا حتى وقت قريب على مقابر سمولنسك:

ماذا يجري فوق سطح الأرض؟
هرج ومرج ومصاعب جمة
يا زوجتي يا عزيزتي
الراحة هنا لا هناك.

يا له من وغد! يحاول إقناعنا أن الراحة هناك، لكني أعتقد أن هذا لا يمكنه أن يغري معظم من يعيشون على سطح الأرض.

من الواضح أن هذا كُتِب ببساطة طبقًا للتقاليد وطبقًا لمطالب القلب الذي يهوى الكلمات المنمقة.

بطريقة أو بأخرى، وعبر هذه الأفعال المتطرفة يمكن للمرء أن يجد طريقة عقلانية لا ريب فيها في العلاقة بالموت: إنها اكتساب عادة التعامل معه بوصفه مصيرًا طبيعيًّا ومألوفًا.

١٢
العقل يقهر المعاناة

كلما ازدادت قبة السماء صفاءً
وجلاءً بدت لأنظارنا السحب
أشد قبحًا وهي تسبح عبر القبة
الزرقاء[١]

١

كم من كوارث ثقيلة الوطأة يعاني منها الناس!

إنهم يعانون منها في مختلف الظروف البائسة في الحياة الإنسانية، ويلتقون بها في كل طرقهم تقريبًا.

تعود بعض هذه الكوارث لأسباب جسدية، وأخرى لأسباب كامنة في أعماق النفس، والبعض لأسباب خارجية تؤثر أحيانًا بقوة غير هينة على مجمل الأفعال والسلوكيات التي تُسمّى: الحياة الإنسانية. كثيرًا ما يقترن الخوف بهذه المعاناة، فالخوف يُكمل لوحة الحياة.

الخوف يزيد المعاناة قوة، ويجرد الناس من أسلحتهم، وفي بعض الأحيان يقودهم صوب الهلاك كما رأينا في الأمثلة السابقة.

لكن العقل يستطيع هزيمة الخوف، ويشق الطريق صوب

(١) الملك ريتشارد الثاني - شكسبير - الفصل الأول- المشهد الأول.

السعادة لصاحبه. العقل ينتج العلم اللازم لحياة إنسانية كريمة وعادلة.

أما وقد تسلح الناس بالعلم، فقد تعلموا إزالة العقبات التي تقف في طرقهم، وتكوين ظروف أخرى أفضل وأنسب لوجودهم.

بينما يكافحون في هذه الطرق، يُنحون تدريجيًا مخاوفهم التي تملكتهم دائمًا.

هذا ما حدث على سبيل المثال في بلدنا الاشتراكي، فقد تخلص الناس من الخوف الرئيس المتعلق بالبحث عن وظيفة، وبالتالي عن الطعام. فيما يتعلق بهذا الأمر لم يعد لدينا أناس يخشون سوء المصير. لم أُدخل في حسباني بالطبع أعوام الحرب التي اضطر فيها الناس إلى المعاناة من جوع رهيب، وسقط فيها البعض ضحية للمجاعة.

يساعد العقل الناس على التحرر من صنوف مختلفة من المعاناة الجسدية، ويناضل ضد هذه الأنواع المختلفة من المعاناة بقوة مثيرة للإعجاب ويبعث السرور والأمل بداخلنا.

لقد ذرس العلم صنوف معاناة عديدة، والآليات التي تحدث وفقًا لها، ووجد مفتاحًا لكثير من هذه الآليات.

لكنه لا زال لم يجد الحلول الكاملة لتلك الآليات الداخلية المعقدة التي تظهر في أعماق نفوسنا وتؤثر عليها بصورة فادحة كما رأينا في الأمثلة التي ذكرناها.

حاولت الكشف عن بعض هذه المفاتيح والخجل يراودني، ولكن لو قال الناس إن هذه المفاتيح لا تناسب آليات مشاكلهم المعقدة، فسأسلك كما يمكن أن يسلك صانع أقفال لم يستطع أن يتعامل مع قفل بسبب قلة مؤهلاته أو بسبب تأثير ما شربه من مسكرات في الليلة السابقة.

أنا لا أعرف بشكل عام كيف يمكن أن تعمل المفاتيح في أقفال أبواب الآخرين، لكني أعرف كيف تعمل مع أقفال أبوابي أنا. لقد خلَّصني العقل من صنوف عديدة من المعاناة. قال أحدالفلاسفة: من يتعامل مع الطبيعة بتعقل، تعامله الطبيعة بالطريقة ذاتها.

٢

البعض الآخر لا يعرف من أين تأتيه هذه المعاناة، ويتصالح معها. يتصالحون معها باللجوء إلى الله والعناية الإلهية، وربما أيضًا يحاولون الافتخار بذلك بسبب طبّيعة شخصيتهم. نحن نعرف كيف رفعوا مرتبة المعاناة في الفن والأدب والرسم. ما زلنا نذكر تلك الكلمات المنمقة التي قالها الأدب عن أن المعاناة تسمو بالبشر وتطهرهم وترفعهم إلى درجة سامية من الفضيلة.

يا له من مشهد حزين تراجيكوميدي أن نرى الناس يتباهون بقروحهم بدلا من أن يناضلوا ضدها!

قبل موته بشهر أو شهرين تقريبًا أرسل لي ألكسي

مكسيموفيتش جوركي خطابًا مدهشًا.

أقول على هذا الخطاب إنه مدهش؛ لأنه خطاب مذهل وشجاع عن المعاناة، وقد كتبه جوركي حينما كان في أشد درجات المعاناة.

هذا ما كتبه جوركي:

«.... آه يا ميخائيل ميخايلوفيتش، كم كان الأمر سيبدو جيدًا لو كتبت بهذه الطريقة[1] كتابًا عن المعاناة! لم يحدث من قبل أن جرؤ أحد على السخرية من المعاناة التي تعتبر المهنة المفضلة بالنسبة للكثيرين. لم يحدث من قبل أن عانى أحد من الشعور بالاشمئزاز منها. لعبت ديانة «إله المعاناة[2]» دورًا أساسيًا في تأسيس هذه النظرة للحياة، ولكن في الوقت الذي حاول فيه البسطاء من الناس مقاومة سيادتها، على الأقل لأنهم أجبروا على هذه المعاناة، وهربوا منها إلى الصحراء والأديرة وإلى أطراف الأرض، تعمق رجال الأدب والنثر والشعر فيها وزادوا من اتساع رقعتها، متجاهلين حقيقة أنه حتى إله المعاناة المعذَّب سأم من المعاناة وقال: «يا أبي، إن شئت أبعد عني هذه

---

(١) يقصد الطريقة التي كتب بها زوشينكو مجموعته القصصية: «الكتاب الأزرق».

(٢) يقصد المسيحية التي رفعت كثيرًا من شأن فكرة المعاناة التي عانى منها السيد المسيح، وكيف لابد للمؤمنين به أن يقتدوا به في المعاناة وتحمل صليب المشقات.

الكأس[1]».

المعاناة هي خزي العالم، لذا فعلينا أن نكن لها كل كراهية حتى نمحوها...

أسخر من أولئك المحترفين الذين يحبون المعاناة. هذا أمر صائب وثمين يا عزيزي ميخائيل ميخايلوفيتش. اسخر من الذين يحضرون الناس على معاداة العالم بسبب أشياء صغيرة غبية ومضايقات الحياة الشخصية. يمكنك أن تفعل ذلك. أنت أفضل من يمكنه القيام بذلك. يبدو لي أنك خلقت لهذا، ولكن فلتفعل ذلك بعناية فائقة من فضلك...» بينما أعاود قراءة هذا المقطع من خطاب جوركي شُدِهت مرة أخرى من كلماته. إن قائل هذه العبارات هو من أشد الناس معاناة، ومع ذلك فقد فهم بدقة ما أقلقني. هذه المسائل تحديدًا هي التي شغلتني في هذا الوقت، وكنت أجمع المواد الأولية التي استخدمتها في كتابي هذا الذي نويت تسميته في البداية: «مفاتيح السعادة».

كتبت ردًا على خطابه لكني لم أرسله، فقد عرفت أن حالة جوركي تسوء، ولم أرد أن أزعجه وهو مريض.

كتبت في ذلك الجواب أني أنوي كتابة هذا الكتاب تحديدًا، لكني لم أرد فقط أن أسخر من محبي المعاناة، بل أيضًا أريد أن أجد بعض أسباب المعاناة لكي أفهم من أين تظهر تحديدًا هذه الصنوف المختلفة من المعاناة. وعدت أن أرسل لجوركي

(١) إنجيل لوقا ٢٢: ٤٢

المقاطع الأولى من هذا الكتاب. كم هو أمر مؤلم ومحزن أن جوركي لم يعد موجودًا! إني أهدي هذا الكتاب لذكراه.

٣

العقل يهزم المعاناة، لكن أصحاب المعاناة لا يريدون أبدًا مفارقة مواقعهم. لقد أعلنوا بؤس العقل، وصاروا يخافونه بعد أن اقتنعوا أنه وحده مصدر كل هذه البلايا. ولكن لماذا أغضب العقل هؤلاء المتألمين وأغاظهم ولم يبعث فيهم الرضا؟ لقد توصلنا إلى بضعة أسباب من شأنها أن تبعث الشكوك حول العقل ومستقبله، وفضحنا مدى تهافتها.

لكن هل من الممكن أن نكون قد أغفلنا شيئًا استثنائيًا صار العقل بسببه غير نافع على الإطلاق بل ومسؤولا عن معاناة الناس؟

يبدو أننا لم نفعل ذلك. إني أفحص عقليًا كل ما يتعلق بالناس، وكل شيء تتألف منه حيواتهم سواء كانت رحلات بعيدة أم لقاء الأصدقاء أم العمل أم لقاءات غرامية أم فن الطبخ أم محادثات رسمية أم أحاديث المحامين والمتهمين أم عروض مسرحية أم مشكلات داخل بعض المؤسسات.

لا... لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. العقل لا يجلب المعاناة. في كل ما سبق لا يمكن أن يكون العقل أمرًا غير مهم، بل على النقيض من ذلك. يا إلهي! يا تلك الآمال لسعيدة التي

كانـت لتضطرم في قلوبنـا لو حضر العقل السـامي في كل خطوة وكل دقيقة ومع كل نفس نستشنقه.

مـع ذلك هل يمكن أن تسـاورنا الشـكوك في وجود دوافع حـب غامضة في العقل السـامي، وهي التي من شـأنها أن تجلب الحزن والكآبة للناس؟

لا... لا يبدو أن الأمر كذلك. كل شيء على ما يرام.

مـاذا يتبقـى إذن؟ أنفقـد رهافتنـا وعفويتنا؟ لكـن ذلك لا يجلب المعاناة للناس إلى درجة أن يتخلوا عن العقل.

اسمحوا لي أن أقص عليكم قصة أخرى صغيرة يمكنكم أن تروا من خلالها أن العقل يسود في هذا المجال في نهاية المطاف.

ذات مـرة أجـروا عملية لفلوبيـر[1]. كان لديـه خراج على وجنته.

كتـب فلوبير عـن هذا الأمـر لحبيبته لويزا كوليـه[2] خطابًا صغيـرًا كئيبًـا عن البشـر كمخلوقات تعيسـة تخضـع لعملية لا تتوقف من التحلل والتعفن.

كتب فلوبير بعبارات مندفعة ما يلي:

«كمـا لـو أن كل هـذا العفـن والمـرض المعـدي اللذيـن

(١) جوسـتاف فلوبيـر: روائـي فرنسـي، درس الحقـوق، ولكنـه عكف علـى التأليف الأدبي. أصيب بمرض عصبـي جعله يمكث طويلًا في كرواسـيه. كان أول مؤلف مشـهور له: «التربيـة العاطفية»، ثم « مدام بوفاري » ١٨٥٧ التي تمتاز بواقعيتها وروعة أسلوبها.

(٢) لويزا كوليه ١٨٠٨ - ١٨٧٦ شاعرة فرنسية.

يسبقان ميلادنا وينتظراننا بعد الموت غير كافيين! اليوم يفقد المرء أسنانه، وغدًا يفقد شعره، ويصاب بجرح ويتحول لخراج. أضف إلى ذلك مسمار القدم[1] والروائح السيئة التي يفرزها الجسم والإفرازات المختلفة كافة. كل ذلك يصنع لوحة مغوية غير عادية للفرد الإنساني. ولكِ أن تتخيلي أنهم يحبون ذلك!»

لا .... بالطبع كان من المستحيل كتابة ذلك، خاصة للمرأة التي يحبها. توجب عليه أن يكبح جماح وعيه السامي، وألا يحاول أن يبدو ذكيًا وأن يُمسك نفسه عن فعل ذلك. على الأقل توجب عليه أن يعتذر إذا كان عقله قد جرَّه بعيدًا هكذا حتى يقول مثل هذا الكلام.

مع ذلك توجب على السيدة أن تتعقل ولا تغضب إلى هذه الدرجة. نحن لا نعرف تحديدًا بأي كلمات أجابت حبيبة فلوبير، لكن مما نستشفه من خطابه يبدو أن ردها لم يكن لطيفًا على الإطلاق.

هذا ما كتبه فلوبير تبريرًا لنفسه في الوقت الذي لا يدرك تحديدًا ما هو ذنبه:

«في السابق بدوت لك شديد السمو، أما الآن فأبدو مثيرًا للشفقة! ما الذي فعلته بحق الله؟ تؤكدين على أني أعاملك

---

(١) نسيج أو بروز لحمي ينمو على قمم الأقدام وبين جوانب أصابع القدم، ويتكون من خلايا جلدية ولحمية ميتة وقاسية تتراكم على سطح الجلد، تظهر مع الضغط الناتج عن الجلد والعظام.

بوصفك امرأة من طراز دنيء. أنا لا أستطيع فهم سبب شعورك بالإساءة وشجارك معي».

انتهى كل شيء على ما يرام، وتصالح فلوبير مع حبيبته. انتصر العقل إذن في هذا الصدد، وأشار الوعي السامي إلى الطريقة التي يجب التصرف وفقًا لها.

توردت السيدة ثانية، وواصلت لقاءاتها بفلوبير بوصفه إنسانًا ساميًا، أما قصة الحب الصغيرة التي حضر فيها العقل وغاب عنها التكلف فقط نُسيت.

لا... لا أرى سببًا يدعونا للخوف من العقل السامي، فكما ترون، حتى في مثل هذه الظروف تمضي الأمور كلها على ما يرام دون معاناة تُذكر.



٤

«المعاناة هي خزي العالم، لذا فعلينا أن نكن لها كل كراهية حتى نمحوها».

هكذا تحدث جوركي. أنا أشاركه الرأي تمامًا. علينا بالعلم كي نمحو المعاناة. لقد فعل العلم الكثير، لكن ما زال أمامه الكثير والكثير ليحققه في المستقبل. يمتد أمام العلم طريق ضخم ومشرق.

ربما سوف نجد المزيد والمزيد من المفاتيح التي يمكنها أن تفتح لنا أبواب أشد آليات المعاناة غموضًا. ربما سنجد أيضًا

أسبابًا آخرى للمعاناة لا نعلم عنها شيئًا بعد.

ربما سوف يُكشف لنا ذلك الأمر الذي ينشغل به العلم الآن تمامًا؛ ألا وهو الطاقة المشعة.

ما زال العلم لم يخط في هذا المجال سوى خطوات وجلة. لا شك أن العقل سوف يرفع الحجاب عما هو مخفي عنا أكثر مما كان مخبئًا في تلك الآليات الغامضة في عالمنا الواسع.

ربما سوف نجد في هذا المجال بضعة أسباب للمعاناة يمكننا أن نتحرر منها. كل كائن حي يشع بالطاقة. هذا ما اكتشفه العلم المعاصر ولكن دون تأكيد حاسم. كل ثياب الناس قادرة على الإشعاع بطاقة تشبه سماتها سمات الطاقة الكهربائية. كُتشفت تيارات وأشعة مختلفة، صدر رأي مبدئي مفاده أن هذه الأشعة لا تنشأ إلا بفعل رد فعل كيميائي يحدث في الدم. على سبيل المثال اكتشفوا أن دماء الضفادع تصدر أشعة فوق بنفسجية. اكتشفوا أيضًا إشعاعًا مشابهًا في الحيوانات والبشر.

لاحظ العلماء أيضًا أن دماء المرضى – ولنقل مثل مرضى السرطان والأورام الخبيثة لا تشع شيئًا. يصدر كبار السن والشيوخ إشعاعًا بصورة أقل من المعتاد.

بعد ذلك اكتشفوا أن الإشعاع لا يصدر عن الدماء فقط، بل أيضًا عن العضلات والمخ والجلد والأعصاب.

اكتشفوا أن المخ يصدر موجات كهرومغناطيسية، ويمكن لمستقبل هوائي أن يلتقطها بشكل واضح، وأن هذه الموجات

محسوسة للغاية وتتكون بفعل حركة الإلكترونات المتطايرة بسرعة الضوء. بدا إذن أن مخ الإنسان ذا التركيب المعقد لديه عدد لا نهائي من الخلايا، يربو عددها على ١٢ مليار خلية، وهو قادر على استقبال والاحتفاظ بعدد هائل من الإلكترونات. بدا أن المخ يُعتبر مركزًا واضحًا لشبكات معقدة من الإلكترونات.

اكتشفوا أيضًا أن نشاط المخ المضطرب يظهر بشكل خاص، ولديه تردد موجي مختلف. بتعبير آخر: حجم وجهد التردد الموجي يعتمد على حالة المخ.

يكون دماغ مرضى الهيستيريا والعصابيين، ومرضى الصرع في حالات أخرى، تيارات تتجاوز أحيانًا المعدل الطبيعي لبعض أنواع الأمراض النفسية.

يُطلق على الإشعاعات التي تظهر في أنسجة الكائنات الحية أشعة ميتوجينيتك[1]. كان لهذا الاكتشاف صدى واسع، أما عن مصيره فلازال غير معروف لي بعد. سمعت أن هذه الأشعة ما زالت موضع شك، ولم يُثبت بعد مصدر وطبيعة هذه الأشعة الضعيفة.

لكن مستقبل هذا الاكتشاف لن يُغيِّر من حقيقة الأمر، فلا شك من وجود هذا النوع أو ذاك من الإشعاعات داخل

---

(١) أشعة فوق بنفسجية ذات قوة صغيرة تنتجها خلايا وأنسجة النباتات والحيوانات، وقد اكتشفها عالم الأحياء الروسي: ألكسندر جافريلوفيج جوريفيج في عام ١٩٢٣.

أجسادنا. حتى قبل ذيوع هذا الاكتشاف بفترة طويلة كان من المعروف وجود بعض الحيوانات، خاصة التي في أعماق البحار، لها خواص إشعاعية. على سبيل المثال من المعروف أن الشفنينيات[1] تخدر فريستها بتيار كهربائي قوي تصل شدته إلى ٨٠ فولت.

من المعروف أيضًا أن البشر بمثابة حاملين لبعض الطاقة الكهربائية.

كتب الفنان المرموق فان جوخ عن جوجان في أحد خطاباته:

«حدث كثيرًا أن نشطت تدفقات تيار كهربائي شديد القوة أحاديثنا. أحيانًا ننهي الحديث برؤوس منهكة كما لو أنها بطاريات قد أفرغت شحنتها».

إذن فاكتشاف التيارات الحيوية والإشعاعات الصادرة عن كائنات حية عديدة ليس بالأمر الجديد.

لا جدال أن هذه الإشعاعات والتيارات لا تفارق جسد أي كائن حي.

لا تتناقض هذه السمة التي للأنسجة الحية مع المبدأ العام الذي ينطبق على كل الأجسام. لقد اكتشفوا شحنة كهربائية

(١) الشُّفنينيّات هي طبقة من الأسماك تتبع صنف الأشلاق من طائفة الأسماك الغضروفية. وهي مسطحة الشكل. تعيش الشفنينيات في مختلف أنحاء العالم، خصوصًا المناطق المدارية وشبه-المدارية والمعتدلة.

معقدة قابعة في أساس تكوين الذرات.

ينطبق هذا الأمر على ذرات أي مادة[1].

إذن فأية مادة لا بد أن تحمل شحنات كهربائية معقدة[2].

هذا يعني أن الشحنات الكهربائية تدخل ضمن تركيب كل المـواد، ومن الواضح إذن أن هذا ينطبق على المادة الأولية التي تكون منها الكون.

لـم يتوصـل العلـم بشـكل كامـل بعـد إلـى طبيعـة التيار الكهربائي ومختلف أنواع هذه الطاقة.

لكن الكثير قد اكتُشِف في هذا الصدد.

أحد الاكتشـافات الرئيسـة في هذا المجال هـو أن أي تيار كهربائي يخلق قوى مغناطيسـية حول السلك الذي يتدفق عبره.

أي تغيير في الحقل الكهربائي يقترن بظهور حقول مغناطيسية.

يعمل هذا المبدأ بالطريقة ذاتها مع أي نوع من التيارات.

أي نوع إذن من الإشعاعات يعتبر إشعاعًا كهرومغناطيسيًا.

ينطبـق ذلك على الضوء والحرارة والراديو، وعلى ما يبدو

---

(١) تتألـف أي مادة من مجموعة من الجزيئات التي تعتبر أصغر أجزائها. هذا الجزيء أصغر وحدة يمكن أن يحصل عليها من المادة دون تغيير خواصهـا الكيميائية. فنضرب مثالًا بالصلج الذي يتألف من جزيئات المياه، ولكن إن قمنا بفصل جزيئات الماء فلن تعد المادة التي أمامنا عبـارة عن ماء، لكنها ستصبح مجرد ذرات أكسـجين وهيدروجين. (المؤلف)

(٢) تعتبر الذرات نفسها بمثابة مصدر لشحنات هائلة من الطاقة، ويمكن لتقسيم الذرة أن يُحوِل المادة إلى طاقة. (المؤلف).

على التيارات الحيوية، لأن مظاهر هذه الطاقة تظهر في الأساس بمساعدة موجات كهرومغناطيسية.

تنتشر هذه الموجات الكهرومغناطيسية على شكل نصف قطر، كما يحدث على سطح المياه حينما تنتشر الموجات إثر سقوط حجر. إذا كان الأمر كذلك، من المفترض أيضًا وجود تأثير للموجات الكهرومغناطيسية على المادة المحيطة، أي أن مخ الإنسان الكامن داخل شبكة كهربائية معقدة، ويوجد في كنف علاقات كهربائية معقدة يتعرض لتأثيرات عديدة. يمكننا إذن أن نقول إن المخ ليس كيانًا منعزلا ومفصولا عما حوله. إنه غير مُحصَّن عن مختلف أنواع التأثيرات، فهو لا ينطوي على نفسه، فهذا الاستنتاج من شأنه أن يعارض المبادئ الرئيسية التي توصلنا إليها.

نحن نعرف أن ثمة عمليتين رئيسيتين تحكمان تقريبًا نشاط المخ؛ إنهما الاستثارة والتثبيط.

إذا تحدثنا إذن عن تأثيرات خارجية، فهي تتعلق في المقام الأول بتأثير خارجي يمكن أن يتكشف لنا عن طريق تغييرات تحدث في هاتين العمليتين. لذا من الواضح أننا يمكننا أن نتقفى أثر هذه التغييرات من خلال الدوافع الداخلية التي تنشأ بداخلنا بتأثير منها.

إن افترضنا في كل مرة حدوث تأثير خارجي ولو بأدنى درجة ممكنة، فهذا سيعني أن عمليات الاستثارة والتثبيط لا

تحدث كاملا لأسباب داخلية فقط كامنة داخل الجسد الإنساني.

هناك مسألة أخرى؛ ألا وهي: ما مدى قوة هذه التأثيرات، وما مصدرها؟

لم يستطع العلم حسم تلك المسألة تمامًا بعد. بعض الافتراضات ما زالت مشكوكًا فيها للغاية.

لكن حسم هذه المسألة لا يتعلق بقضيتنا. ما يتعلق بنا هو أن نكتفي بتقديم بعض الافتراضات على وجود هذه التأثيرات، وعن العواقب الممكنة لهذا وأثرها على نشاط المخ.

يبدو لي أنه ما من شك في حقيقة التأثيرات الخارجية. لدينا تلك التجربة الشهيرة التي أجراها: أ. ج جورفيتش[1]. لقد أثبت أنه يمكن لبصلتين موضوعتين سويًا أن تؤثرا على بعضهما البعض. تؤدي الأشعة فوق البنفسجية القصيرة التي تظهر في إحداهما إلى تعزيز وتقوية تقسيم الخلايا في البصلة المجاورة.

في كل الأحوال إن فصلنا بينهما بصفيحة تحول دون وصول الأشعة فوق البنفسجية، فسيتباطأ نمو هاتين البصلتين، وتضعف بشدة عملية الانقسام الخلوي. هذا يعني أن هذه الأشعة كانت أقرب الأسباب التي صنعت هذا الانقسام الخلوي، ومن ثم لم يعد يمكننا الجدال بشأن التأثيرات الخارجية على الأنسجة الحية.

من الثابت إذن أن كل الكائنات الحية تؤثر على بعضها

(١) عالم أحياء سوفيتي وباحث في فيسيولوجيا الخلية.

بدرجة أو بأخرى، لذا فليس المخ وحده ما تكتنفه تيارات كهربائية معقدة، فلا شيء في الجسد بمعزل عن بقية الأجزاء.

نحن لا ندرك تلك التأثيرات الخارجية كافة على حياتنا العملية بشكل كامل، ومع ذلك ندرك أن أقصى مرحلة من العصاب والكآبة العقلية تؤثر سلبًا على المحيطين بها، ويبدأ المحيطون بدورهم في اختبار كآبة مماثلة. أحيانًا يحدث أن يؤثر إنسان دخل إلى الغرفة بشدة على من هم داخلها، فيبدأون في الشعور بالارتباك والضيق، ويشعرون بأنهم ليسوا على طبيعتهم.

تؤكد هذه الأمثلة على قوة التأثير الخارجي، وأن هذا التأثير يرتبط في المقام الأول بعملية التنشيط التي تحدث في المخ.

إذا كان الأمر كذلك، وإذا كان هناك تأثير، وإذا كان مخ الإنسان يلتقط هذه الإشعاعات التي تأتيه من الخارج، فكيف إذن تنعكس هذه الإشعاعات على العقل الإنساني؟ ما أهمية هذا الحقل وتأثيره على سلوك الإنسان؟

يبدو لي أنه ليس من المفترض أن نُقلِّل من أهمية مثل هذه التأثيرات. مهما بدت ضعيفة فإنها تلعب دورًا في حياة الإنسان النفسية.

فلنفترض أن عقل الإنسان بدأ يشعر بتأثير جارف ظهر أثره عبر ازدياد عمليات التنشيط دون أن يعرف الإنسان سبب هذا التنشيط. سيعتقد هذا الإنسان أنه يعود إلى سبب ما مادي أو أخلاقي.

مثل هذا التأثير العارض قد لا يؤثر على حالة الإنسان العقلية على الإطلاق، فسيمضي التثبيط وسينسى المرء تلك الاستثارة. لكن عندما يتعلق الأمر ببنية نفسية مرضية - خاصة لدى المرضى العصابيين - سيعتبر هذا التعليل أمرًا أساسيًا لأن سبب الاكتئاب سوف يُكتشف بين هذه المواد المرضية، بين تلك الموضوعات التي تثير الهلع والتي حدث اصطدام بها. من ثم سيحدث إقرار لهذه المواد المرضية بدرجة كبيرة في النفسية باعتبارها موادًا خطرة. بتعبير آخر سيتم إقرار أدلة الخطر الزائفة.

لا شك أنه لا يمكننا تحليل هذه المسائل بسهولة، وأنه يجب القيام بفحص شامل، لكن مبدأ هذه العلاقة المتبادلة يمكن رصده بوضوح.

كل هذه المسائل لا زالت تنتظر البحث العلمي.

أما فيما يتعلق بقوة التأثير الخارجي ومنشئها، وخاصة أن هذه المسائل لا تعد ولا تحصى، فقد قُدِّمت افتراضات كثيرة عن تأثيرات الأجرام الفضائية والشمس والنجوم على الحياة العضوية على سطح الأرض. تعود هذه المسائل إلى أزمان قديمة، ومال العلم في الماضي كثيرًا إلى اعتبار أن أجساد الحيوانات هي صورة مصغرة من الأجرام الفضائية.

في كل الأحوال لا ينكر العلم المعاصر أهمية هذه الإشعاعات وهذه الطاقة التي نحصل عليها من خارج الكوكب.

اكتُشِف ما يمكن أن يطلق عليه: «الأشعة الكونية». إنها

تيار هائل القوة، وتتألف من شحنات كهربائية تنهمر على أرضنا. ولأنها تسقط على حدود غلاف طبقة الأتموسفير فمن الممكن أن تتغير إلى أشكال مختلفة من القوى[1].

تبين أن طاقة هذه الشحنات الكهربائية عظيمة جدًا، لكنها تضعف بشدة حينما تسقط على أرضنا.

في كل الأحوال يقوم العلم بعمل هائل في دراسة قوة هذه الإشعاعات. كان ذلك هو الموضوع الشاغل لـ إ. د. أوسيسكين[2] الذي قضى نحبه في حادث منطاد. أجرى قياسات وصلت إلى ارتفاع ٢٢ كيلو متر. افترض أن قوة الإشعاع تزيد ستة أضعاف على ارتفاع خمسة كيلومترات عن قوتها عند سطح البحر. أما على ارتفاع عشرة كيلومترات فتصل قوة الإشعاع إلى أربعين ضعف قوتها عند سطح البحر.

هذا يعني أن قوة تلك الأشعة الكونية التي تصل إلى غلافنا الجوي تنخفض بشدة. من الواضح إذن أن تأثير هذه الأشعة ليس بالدرجة التي افترضها من أراد أن يُخفض من معنى الحياة والعقل الإنسانيين.

في كل الأحوال سوف يحسم العلم في المستقبل أمر هذه

---

(١) يمكن للذرة المحايدة كهربيًا (لأنها تتكون من نواة ذات شحنة موجبة وإلكترونات سالبة) الانقسام إلى جزئين مشحونين كهربيًا. هذه العملية تُسمى التأين. (المؤلف).

(٢) إ. د أوسيسكين ١٩١٠ - ١٩٣٤ فيزيائي سوفيتي وعضو في طاقم المنطاد أوسوافياخيم ١، ومات إثر حادث جوي.

القضيـة المتعلقـة بقوة هـذا التأثير وأثرها على نفسـية وسـلوك الإنسـان. إذا بدا لنا أن لهذا التأثيـر دور في المعاناة التي يختبرها بعـض النـاس دون أن يدركـوا ذلك، فسـيكون من شـأن العقل الإنساني حينها أن يحررهم منها.

١٣

العقل يهزم الشيخوخة

اللعنة على الشيخوخة بحقيبة
وعكاز تقرع يد نحيلة الباب.

١

ذات مرة كنت أسير في الشارع بصحبة صديقي، نتحدث عن الشيخوخة. مال صديقي للرأي القائل إن الشيخوخة ليست أمرًا منفرًا كما يعتقد الكثيرون، وذكَّرني بكلمات ليف تولستوي عن الشيخوخة:

«لم أكن أتصور أبدًا أن الشيخوخة جذابة إلى هذه الدرجة».

أخذت أتناقش مع صديقي. في ذلك الوقت كنت أنظر بخوف إلى أولئك من يتقدم بهم العمر ويطولهم العجز وينطفئون ويتحولون إلى نفاية بائسة.

تجادلت مع صديقي، وحاولت أن أثبت له أن الشيخوخة مريعة، بل إنها أسوأ من الموت. في الشيخوخة تضعف المشاعر وتنطفئ الأماني والرغبات والنوايا. ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من ذلك!

طوال الوقت كانت لديَّ أفكار غير سليمة عن الشيخوخة،

ولهـذا تجادلـت عن الأمر. بينمـا نتحدث، وحيـن انعطفت من شـارع نيفسـكي إلى شـارع فونتانكا، وقع حادث. تعثر صديقي وسـقط، واصطدمت بـه عربة مـارة بالطريق. لم تكـن الإصابة شـديدة، فالأمـر اقتصـر علـى خـدوش علـى الوجنـة والأذن، بالإضافة إلى شق كبير بالشفة العليا.

استدعيت عربة الإسـعاف واصطحبت صديقـي المتألم إلى المستشفى. هناك جعلوه يستلقي على الطاولة حتى يخيطوا شفته المشقوقة. حضرت هذه العملية وأنا أمسك جسد صديقي بقوة، بينما يئن وينتفض بشدة.

قبل الشـروع في العملية وجَّهت إليَّ الطبيبة الشـابة سؤالا، فقـد بـدت شـفة صديقـي متورمة بشـدة ولـم يكـن بإمكانه أن يتحدث. سألتني:

- كم عمر صديقك؟

لم أعرف. هزت كتفي وقلت:

- ومـا أهمية ذلـك؟ أجري العملية سـريعًا، فكمـا ترين حالته صعبة. من المحتمل أن عمره يقترب من الأربعين.

هزت هي الأخرى كتفيها وقالت:

- لهذا أهمية كبيرة. إذا كان عمره بين ٤٠ – ٥٠ عامًا فسأجري لـه عملية تجميل، ولكن إن كان بلغ الخمسـين فسـأخيط له الشق وحسـب. سيكون كل شيء على ما يرام في هذه الحالة أيضًا وكما ينبغي، لكن المنظر بالطبع سـيختلف عن المنظر

بعد القيام بعملية تجميل.

أما صديقي المتأوه عندما سمع ذلك، تعالى أنينه وهو على الطاولة. لم تسمح له شفته المشقوقة بالجدال مع الطبيبة. رفع يده وأشار بأربعة أصابع ليشير أن عمره أربعون عامًا فقط... هيا أجري عمليتك التجميلية. ترددت الطبيبة الشابة قليلا ثم باشرت عمليتها.

عولِج الجرح بشكل جيد، ولم يكن الأثر واضحًا، لكن الصدمة المعنوية أثَّرت طويلا على صديقي. لقد نسى أمر العربة التي صدمته، لكنه لم ينس كلمات الجرَّاحة عن أولئك من تخطوا الخمسين من العمر، والذين يمكن خياطة جروحهم كما تجري خياطة المراتب بخيوط خشنة من عند الحواف. ظل هذا الألم النفسي لصديقي الذي بدأ يشيخ فترة طويلة. وظل هذا الألم يراودني أنا أيضًا، لكنني بدأت أفكر في الشيخوخة بشكل أسوأ من الطريقة التي كنت أفكر بها فيه في هذه اللحظة. ثم قرَّرت أن أكافحها.

٢

لا، لم أحلم أبدًا بالعيش طويلا، ولم أرد أبدًا أن يصل بي العمر إلى مائة عام، فأنا لا أرى في ذلك جاذبية أو رضا. لكني أردت ألا يتقدم بي العمر كثيرًا فأهرم. أردت ألا أقاسي من ذلك الضعف البائس والشيخوخة والقنوط. تمنيت لو استطعت أن

أنهي أيامي شابًا نسبيًا. أردت ألا أفقد طراوة مشاعري في معاركي مع الحياة. هذا من شأنه أن يصالحني بالشيخوخة. ويجعلني لا أعود أتهرب من الأعوام القادمة، ولا أتوقع أن تكون الشيخوخة مريرة، ولا أكن لها كل مشاعر الازدراء التي أكنها لها في قلبي.

قلت في نفسي: ولكن كيف يمكنني تحقيق ذلك؟ ماذا أفعل حتى لا أعود بهذه الحساسية من معانقة الشيخوخة؟ ما الذي يلزمني حتى أشعر أني في صحة جيدة عندما يتقدم بي العمر، وأشعر أني ما زلت قادرًا على التطور، وشابًا حتى ولو بدرجة نسبية؟

ألا يمكن للعقل البشري أن يساعد في تحقيق هذه الرغبة المشروعة تمامًا؟ حينها أخذت أنظر إلى الشيوخ من حولي. اخترت لنفسي منهم من كانت لديهم وجنات نضرة، يسيرون بثبات، ولديهم جلد ناعم وأيادٍ صلبة، وأقدام رشيقة، وأعين شابة برَّاقة.

لم أجد كثيرًا من الشيوخ على هذه الحال، لكن عندما أجد أحدًا منهم لم أكن أنحّي نظري عنه. أتتبعه. أمعن النظر في تفاصيل حياته وسلوكياته وعاداته.

أردت بمراقبتهم أن أتوصل إلى قاعدة ما لا تجعل الشباب ينطفئ. لم أستطع التوصل إلى هذه القاعدة؛ لأن كل شيخ منهم يعيش بطريقة مختلفة عن الآخرين، دون أن يلتزم بمعايير محددة. بدأت أسأل هؤلاء الشيوخ المزدهرين عن السر في

ذلـك، وقد أجابوني عن طيب خاطـر. إلا أن كل واحد منهم قال لي أمـرًا مختلفًا، فكل منهم لديه طريقته ومحفزاته الخاصة التي يعتقد أنها هي السبب في استمرار توهجه حتى الآن.

أجابني أحد الشيوخ الذي وصل به العمر إلى سبعين عامًا كالآتي:

- لـم أدخـن أبـدًا، فالتبغ يبلـي أجسـادنا. ربما هذا هو سـبب احتفاظي بالشباب.

أجابني شيخ آخر لا يقل عنه عمرًا:

- لم يؤثـر علـيَّ التبغ بطريقـة سـيئة، لكني مارسـت الرياضة والتمرينـات دائمًـا، واعتـدت النـوم والنافـذة مفتوحة. من المحتمل أن يكون هذا ما أثَّر عليَّ تأثيرًا إيجابيًا.

أجابنـي عن ذلك الأمر أيضًا شـيخ ثالث رائـع وجليل، ما زال يتمتـع بمرح وحيوية الشـباب (إنه برنارد شـو) على طاولة الغداء ذات مرة التي كانت تكريمًا له. قال لي الكاتب ساخرًا:

- لم أتناول اللحوم منذ خمسـة وثلاثين عامًا. ألا تعتقد أن هذا هو سبب احتفاظي بالشباب حتى الآن؟

لا... لا أعتقد أن هذا هو سـبب تمتع شـيخ يبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا بالشباب.

قطعًا لم يكن هذا هو السـبب لأن بجانبي جلس شيخ آخر يبلغ من العمر سبعين عامًا – إنه ف.كون[1] – وقال:

---

(١) ف. ى كون (١٨٤٦ - ١٩٤١) أحد المعروفين بنشاطهم الثوري في روسيا والعالم، وعضو في عدة منظمات سوفيتية.

- تناولت اللحوم طوال حياتي، ومع ذلك ما زلت أتمتع بالصحة والحيوية. السبب أمر آخر. أنا أعمل. العمل يجذبني، وأنا دقيق للغاية في عملي، كعقارب الساعة. ربما يكون هذا هو السر الذي تبحث عنه.

قال لي شيخ آخر، وهو شخصية مرموقة في مجال الفن:

- العمل والإلهام هما سببا احتفاظي بالشباب حتى الآن. إنهما المصدر الذي أنهل منه شبابي، ولكن عندما ينتهي العمل أنتفض كخنزير مطاطي قد وخزوا جانبه.

قال لي أحد الشيوخ المرموقين (إنه الفنان الشعبي «يو»):

- يمكنك تفهم الأمر، فكما ترى أتناول طعامًا كثيرًا، وأعمل كثيرًا، وأقوم بكل شيء بكثرة، فأنا لا أحد نفسي بشيء، ولا أمنع عن نفسي شيئًا أشتهيه، وأعرف جيدًا أني عندما أبدأ في تقييد نفسي، وأبدأ في الشعور بالخوف، حينها سيخترق الخوف قلبي، وحينها سأقضي نحبي. في ذلك الوقت سوف ينتهي الشباب والحياة في الوقت ذاته.

أعجبتني كثيرًا هذه الإجابة، لكن هذه القاعدة لم تلائمني، فأنا لم أتعود على تناول الطعام بكثرة ولا على تحقيق رغباتي كافة، ولا أنوي تغيير عاداتي. لكنني أشهد بصواب الجزء الثاني من الإجابة.

حصلت على إجابة أخرى من إنسان يبلغ من العمر سبعين عامًا، ويبدو في الأربعين فقط. إنه الكاتب الدانماركي م. أ

نيكوي. أجابني بعد أن نظر إلى زوجته الشابة قائلا:

- أنا أحب.

ابتسمت زوجته وقالت:

- لا... لا يقتصر الأمر على ذلك. يحب زوجي عمله الأدبي، وهو يعمل كثيرًا. هذا هو السبب الذي تبحث عنه.

أجابني شيخ آخر يبدو في الأربعين من العمر، بينما عمره الحقيقي ثلاثة وستون عامًا. إنه الشاعر (تسي....). قال لي بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:

- ما زلت أبدو شابًا لأني أتناول الطماطم والتوت البري والجزر. لكن ما الجدوى من شبابي؟

وهنا أخذ نفسًا عميقًا آخر، وحكى لي الشاعر قصة صغيرة حدثت معه. لقد أحبته فتاة صغيرة ما زالت طالبة تدعى (ن). ذات مرة مكثت معه، وكانا سعيدين. في الصباح التالي عندما خرج الشاعر إلى الردهة كانت الفتاة جالسة أمام المرآة، ورأت جواز سفره مصادفة على الطاولة.

عندما عاد الشاعر إلى غرفته وجد الفتاة غارقة في البكاء.

قالت له وسط نحيبها:

- يا إلهي! لم أعرف أنك تبلغ من العمر كل هذه الأعوام! لو عرفت لما أتيت إليك. يا إلهي! يا للخزي من سقطتي هذه!

حاولت مواساة الشاعر فقلت له إنها فتاة حمقاء؛ لأنها قالت ذلك، لكني شعرت بالأسف في قلبي. عاودني الشعور

بالعزاء ثانية عندما فكرت في أني أبحث عن الشباب لسبب آخر غير اللقاءات الغرامية، وإذا حدثت مثل هذه اللقاءات فيمكنني إخفاء جواز السفر.

قال لي شيخ آخر تفوح منه رائحة الخمر:

- لا شيء قد دعَّم من قواي سوى الخمر. إنها الشيء الوحيد الذي حافظ على شبابي وحيويتي، وربما صبايا.

نظرت بانتباه إلى هذا الشيخ. لا.. لم يكن الشباب ولا الصبا. إنه وجه منتفخ من أثر الخمر. انتفاخ الوجه واحمرار العينين وارتجاف الأيدي يقول شيئًا آخر. يتحدث عن شاهد ضريح توجب عليه أن يُخلِّد النهاية السريعة لهذا الشيخ:

هنا يرقد جثمان بائس

فارقته نفسه البائسة(١)

بشكل عام سألت شيوخًا آخرين كثيرين، وكلٌ أجاب إجابة مختلفة. كل منهم وجد له قواعده الخاصة الصالحة له، لكنها ربما لا تكون صالحة بالنسبة للآخرين.

إلا أن بعض قواعدهم كانت مفيدة لي، وقد استفدت منها فعلا، ومع ذلك بدأ الشباب يفارقني ولم أكن قد تجاوزت الثلاثين بعد. حينها أخذت أفكر في القاعدة التي يتوجب عليَّ أن أجدها لتلبية احتياجاتي، ومن أجل حياتي وحياة من يشبهونني.

---

(١) من مسرحية تيمون الأثيني لشكسبير. الفصل الخامس - المشهد الرابع.

بدا لي أني وجدت هذه القاعدة، وأنها مناسبة لي إلى أقصى درجة.

وضعت في اعتباري ما كتبت عنه في هذا الكتاب. وضعت في اعتباري هذه السيطرة التي سأقوم بها في المستقبل كي أحرِّر عقلي وجسدي من هذه القوى الدنيا، ومن الخوف والهلع، ومن تلك الأفعال التي تُعبِّر عن نفسها في صورة دفاعية غير سليمة ضد أمور لا يجب أن تثير كل هذه الآليات الدفاعية.

بفضل ذلك تحرر عقلي وجسدي من عوائق وبلايا كثيرة، وتحررت أيضًا من المعاناة التي خضعت لها طوعًا، مفترضًا أن الأمر لا بد أن يكون كذلك.

هذا ما يمنحني الأمل في أن الشيخوخة لن تؤثر عليَّ بدرجة مريعة مثلما نلاحظها أحيانًا.

خاتمة

الوعي... إنه ذلك الشيء
الذي يكتسبه الجميع
أرادوا ذلك أم لم يريدوا[1]

١

ها هو كتابي يقترب من نهايته.

ماذا تبقى لأقوله؟ قلت الكثير. يتبقى أن أتحدث – كما يُفترض في الخواتيم – عن مصائر الأبطال.

البطل الرئيس في ذلك العمل هو أنا جزئيًا، هو جزئيًا تلك الشخصية التي عانت والتي باشرت من أجلها العمل في هذا الكتاب.

كل ما يمكن أن يُقال عني قد قيل بالفعل.

لقد تلونت أعوام شبابي كلها باللون الأسود. اكتنفتني الكآبة وأمسك بي الحزن بين براثنه. تتبعني نموذج المتسول في كل خطوة أخطوها. اقتربت النمور من فراشي حتى في الوقت الذي لم أكن نائمًا فيه بعد. لوَّنت خرخرة النمور والضربات والطلقات لوحة حياتي الكئيبة.

أينما وجَّهت نظرتي المرتبكة رأيت الشيء ذاته.

---

(١) كارل ماركس.

ينتظرني الهلاك في أي لحظة من اللحظات.

لم أرد أن أقضي نحبي على هذا النحو البائس.

أردت أن أغيِّر مصيري البائس هذا.

هاجمت هؤلاء الأعداء الذين اكتشفتهم عبر رحلة بحثي الاستقصائي.

بدا أن عددهم كبير.

من ضمن هؤلاء الأعداء كان ذلك الخوف الكامن في اللاوعي، وقد فر بصحبة أسلحته الدفاعية الخبيثة.

أما بقية الأعداء فقد استسلموا للمنتصر.

قضيت على بعض الأعداء، وقيَّدت البعض الآخر، وأعدتهم إلى زنزانتهم السابقة.

خرجت منتصرًا من تلك المعركة، وصرت شخصية أخرى بعد ذلك النصر. أقل ما يمكن أن يُقال أنه صارت لي حياة جديدة لا تشبه مطلقًا حياتي القديمة التي كانت لديَّ منذ خمسة عشر عامًا.

في بعض الأحيان حاول العدو العودة إلى مواقعه، لكن عقلي كان قد أحكم سيطرته عليه تمامًا، وتوقفت هذه المحاولات.

٢

أهذا يعني أن النصر يعود للعقل والوعي؟

لكن أليس من شأن السيطرة والحذر المستمر والنظرة المتنبهة أن يجلبوا بدورهم الحزن والتعاسة والكآبة؟

لا، لم تكن هناك حاجة للسيطرة والحذر والحيطة بهذه الدرجة إلا في وقت المعركة، أما بعد ذلك فقد وجدت نفسي أعيش دون هذه الحاجة، خالي البال تقريبًا كما يعيش أغلب الناس.

لكن ألم تعاني حرفتي ككاتب من هذه المعارك؟ ألم يطرد العقل المنتصر مع العدو أيضًا ما كان عزيزًا عليَّ؛ ألا وهو الفن؟

لا... ما حدث كان على على النقيض من ذلك. صارت يدي أقوى، وصوتي أعلى، وأغنيتي أكثر مرحًا. لم أفقد قدرتي الفنية، وهذا ما تشهد به كتبي التي أصدرتها في الأعوام العشرة أو الاثني عشر الأخيرة. هذا ما يشهد به كتابي هذا، فهو يضم عدة أجناس أدبية، وآمل أنه ليس فقيرًا من الناحية الفنية.

أهذا يعني أننا يمكننا أن نحقق مثل هذه السيطرة على القوى الدنيا دون أن نضر أنفسنا على الإطلاق؟

نعم، لكن يجب أن تتم هذه السيطرة من قبل أناس قادرين على التفكير باحترافية، ولديهم القدرة على التحليل. يجب تحقيق هذه السيطرة بمساعدة طبيب، وأنا أُحذِّر القارئ من القيام بمحاولات غير احترافية في هذا المجال، وقد دلَّلت عليها بهزائمي الأولى.

أعلم أنه سوف يظهر معارضون كثيرون سوف يتحدثون

ويتحدثون عن معارضتهم لهذا النوع من السيطرة، بل وللسيطرة في حد ذاتها.

ما السـر الكامـن خلف هذا الاعتراض، ومـا الحجج التي يسوقها المعارضون؟

يعتبر بعضهم أن هذه السـيطرة هي أمـر لا يمكن تحقيقه، وإذا تحققت فلن تكون سـيطرة علـى الإطلاق بل نوع من أنواع التنويم المغناطيسي الذاتي.

هذا بالطبع محض هراء. يقولون إن هذا العلم يصلح لعدد قليل من الناس، وإنه ليست لديه طبيعة عامة.

ومـاذا في ذلك؟ المرض العقلي أيضًـا لا يرتبط بعدد كبير من الناس. وهو مرض أيضًا ليسـت لديه طبيعة عامة. لا تتأسس دوافـع المعارضين إذن على أسـاس صلب. هنـاك حجة أخرى لديهـم. يقولـون إنه أحيانًا يكـون التثبيط ضـرورة بيولوجية. إن ظهـر نوع مـن التثبيط – ولنقـل إنه ذو طبيعة مرضية – فالسـبب في ذلـك يعـود إلى هذه أو تلـك من الآليات المختلة في الجسـد منـذ الولادة. يمكننا أن نقـول إن مثل هذا التثبيـط هو بطريقة ما أمر طبيعي، ويتوجب على صاحبه أن يتوافق معه، مثلما يتوجب عليه أن يتوافق مع الحزن والكآبة؛ لأن سـعادة الإنسان ليست في حريـة الإرادة والعقل، بل هي في تلك المقابض التي بإمكانها أن تُقيِّد الناس وتحد من رغباتهم.

هذه هي الحجج التي يسوقها عادة من يخشون إمعان النظر

داخل أنفسهم، من تقبض عليهم المخاوف والقوى الدنيا، ولا تسمح لهم برفع رؤوسهم كي ينظروا إلى العالم في ضوء الشمس المبهر الذي يعمي الأبصار.

هؤلاء هم تحديدًا من تحدث عنهم الشاعر قائلا:

يا للبؤس! أهرب من الشمس الساطعة
باحثًا عن البهجة في السجن
في ضوء المصباح الليلي

هؤلاء الناس يرتضون قضاء حياتهم كلها في ضوء الزنزانة لسبب واحد؛ حتى لا يثيروا مخاوفهم. من شأن كل صفحة من كتابي هذا أن تبعث فيهم الحمى. يمكنني بالفعل أن أسمع صرخات استغاثتهم. ذات مرة قال لي رجل ذكي لكنه مقيد تمامًا، يضغطه خوف كامن في لا وعيه، يكاد يدمر حياته الشخصية تقريبًا:

- لا تظن أني شفيت من الإنهاك العصبي[1]. كل ما استطعت فعله هو أني اخترعت وسيلة. الكآبة هي أساس الإنهاك العصبي. هذا يعني أننا يجب أن نستوعب تلك الكآبة التي بداخلنا، وها هي الطريقة: لقد أوحيت لنفسي أن هذه الحالة لا مفر منها، وأنه يتوجب عليَّ أن أعتادها.

أتدركون ماذا قال هذا الإنسان؟ لقد قال إننا يجب أن نعتاد على هذه الكآبة، وألا نبعدها أو ندمرها أو نبحث عن

(١) مرض يُطلق عليه: نورستينيا.

أسبابها، بل نعتاد عليها ونحبها.

يا لها من مشـاعر ذليلة! يا له من خنوع نبديه أمام الخوف! كم تبدو أسباب الاحتجاج على ذلك واضحة!

تقنعنـي هذه الأمثلة للمحتجيـن المتألمين بمدى ضرورة سيطرة العقل.

في عـام ١٩٣٦ وصلني خطاب مفزع. انهال أحد الفلاحين من مقاطعة فورونيجسـكايا بفأسـه على أسـرة جاره. كان هناك نـزاع قديم بينه وبين جاره، وتملكت هذا الفلاح مشـاعر كراهية هائجة دفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة الدموية.

حُكِـم على الرجـل بالطبع بأقصى عقوبـة. في أثناء وجوده في الزنزانـة انشـغل هـذا الرجـل ذو المسـتوى المنخفـض من التعليم بقراءة الكتب، والتقى بين هذه الكتب بكتابي: «الشـباب المستعاد».

أنـا لا أعرف ماذا فهـم تحديدًا هذا الرجل من كتابي، لكن فكرة واحدة فهمها جيدًا؛ لقد أدرك أنه يمكن للإنسان أن يسيطر على نفسه، بل ولا بد له أن يفعل ذلك.

ذُهِـل الرجـل من هذه الفكـرة وكتب لي خطابًـا يقول فيه إنه لو كان قـد عرف ذلك قبلا لما ارتكب جريمته، لكنه لم يكن يعرف حينها أن بوسعه التحكم في مشاعره.

نشـرت هذا الخطـاب المذهـل في عـام ١٩٤١ في «تقويم لينينجـراد». لم يعد لديَّ هذا الخطاب الآن، لكن من الضروري

قـراءة هذا الخطاب. إنه مكتوب بيد رجل ذي مسـتوى متواضع جـدًا من التعليـم، لكن الأفـكار في الخطاب شـديدة الوضوح، ومريعـة في الوقت ذاته حتـى أني وجدت أنه من واجبي أن أزعج النـاس بأفكاري عن ضـرورة التحكم في النفس والسـيطرة على المشاعر.

لا تتعلـق المسـألة بسـيادة القـوى الدنيـا، بقدر مـا تتعلق بضرورة انتصار العقل.

كلمة أخيرة

بهذا نكون قد انتهينا من هذا الكتاب.

أنتهي من كتابة آخر سطور هذا الكتاب في أكتوبر ١٩٤٣.

أنا جالس على الطاولة في غرفتي بالطابق العاشر من فندق «موسكو».

أذاعوا توًا على موجات الراديو خبرًا عن هزيمة القوات الألمانية عند الدنيبر. استطاعت قواتنا الباسلة عبور الدنيبر، وهي الآن تطارد لعدو إلى أبعد من ذلك.

إذن فالجيش الأسود يتراجع، جيش الفاشية والكآبة والرجعية.

يا لها من كلمات مبهجة ومفرحة! مع ذلك لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. لم يكن من الممكن أن ينتصر أناس يحاربون كل ما هو طيب في الناس، يحاربون الحرية والعقل، يحاربون من أجل العبودية، وعواء الوحوش بدلا من الحديث الإنساني.

الآن يطرد جيشنا الأحمر الباسل العدو ويحطمه. يحطم تلك الأفكار القاتمة التي صارت أشد قتامة.

إنه الليل... أمامي الآن أوراق مخطوطة هذا الكتاب.

أتصفحها وأجري التعديلات الأخيرة.

يلوح الفجر من بين ثنيات ستارة النافذة.

أفتح الباب وأخرج إلى الشرفة.

إنـه صبـاح من صباحـات أكتوبـر البـاردة. الهدوء يسـود المكان. ما زالت موسكو غافية، والشوارع تخلو من المارة.

تلوح السـماء الوردية في بقعة في الشرق، ويحل الصباح. تتعالـى قعقعـة الحديد بينمـا تمر عربـة الترام الأولـى، ويمتلئ الشارع بالناس.

الجو بارد.

أعـود إلى غرفتي. أجمع أوراق كتابي المبعثرة، واودعه في خيالـي. منذ ثمانية أعـوام وهذا الكتاب لا يفـارق عقلي. ثمانية أعوام وأنا أفكر في الكتاب يوميًا تقريبًا. ثمانية أعوام! إنها ليسـت فترة قصيرة من عمر الإنسان!

تتبـادر قصائـد الوداع إلـى ذهني. لا، ربما سـأتغنى بها في وقت آخر في المستقبل، عندما أودع الحياة كلها، لا ذلك الكتاب وأعوامي الثمانية.

إنها أبيات للشاعر اليوناني:

هذا هو أروع ما فارقته في هذا العالم

الأول شعاع الشمس، والثاني هي النجوم الهادئة والقمر

الثالث هو التفاح والشمام الناضج والكمثرى(١)

مع ذلك فأنا أشـعر بلامبالاة كاملة صوب النجوم والقمر. سوف أسـتبدل بالنجوم والقمر شيئًا أشد فتنة. سأتغنى بالأبيات

---

(١) من قصيدة للشاعرة اليونانية براكسيلا.

على النحو التالي:

هذا هو أروع ما فارقته في هذا العالم...

الأول هو شعاع الشمس،

الثاني هو الفن والعقل.

أمـا فيما يتعلق بالثالث فيمكن أن أنتقـي نوعًا من الفاكهة؛ ولنقل مثلا: الكمثرى الناضجة والبطيخ والشمام.

قبل شروق الشمس كتاب من نوع خاص، يجمع بين الرواية والسيرة الذاتية والقصص القصيرة والدراسات النفسية، وهي نوعية نادرة من الكتب تستحق الالتفات إليها.

في هذا الكتاب يتقصى زوشينكو أسباب كآبته المريعة التي سيطرت عليه لأعوام طويلة. يطرح لنا زوشينكو في كتابه مشاهد قصيرة ماسية، تشبه كتابات تشيخوف من حيث قوة التركيز وكثافة المعنى في أقل عدد من السطور، ويناقش نظريات فرويد وبافلوف، ويحدثنا عن شخصيات فنية معروفة مثل جوجول وبوشكين وإدجار آلان بو وغيرهم، ويواصل البحث بكل ما لديه من قوة حتى يتوصل إلى مكمن المشكلة. إنه بحث مضن عن السعادة التي من شأنها أن تحرر صاحبها من التعاسة والمخاوف والعبودية.



ميخائيل ميخائيلوفيتش زوشينكو

كاتب روسي و لد عام 1894، صُنفت أعماله القصصية بأنها ساخرة ومُنع بعضها من التداول في روسيا بسبب سخريته من تفشي الفساد والفقر بين الناس في المجتمع آنذاك. حُرِم من تقاضى المعاش التقاعدي بعد بلوغه سن التقاعد. تدهورت صحته سريعًا، وقضى آخر سنوات حياته فى منزله الصيفى بمدينة سيستروريتسك حيث واجه أزمة نفسية صعبة. توفى زوشينكو فى 22 يوليو عام 1958 نتيجة إصابته بالسكتة القلبية.

دار يَسطُرُون للنشر

info@yasturoonpublishing.com

@Yasturoon